المركز الوطني للترجمة

تونس

نيكّولو أمّانيتي

أنا لا أخاف

ترجمة

أحمد الصمعي

شرق - غرب

دار سيناترا

المركز الوطني للترجمة

نيكّولو أمّانيتي

أنا لا أخاف

ترجمه عن الإيطالية وقدّم له:

أحمد الصّمعي

مراجعة

فتحي نقّة

دار سيناترا

أنا لا أخاف

أمّانيتي، نيكولو، **أنا لا أخاف**، ترجمة الصمعي، أحمد ـ الحجم: 13.5 / 21 سم ـ 331 صفحة، منشورات دار سيناترا ـ المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، (السنة الوطنية للترجمة)، سلسلة آداب الدنيا.

ر.د.م.ك.: 125 - 084 - 9973 - 978

أدب إيطالي ـ رواية ـ أمّانيتي، نيكولو ـ الصّمعي، أحمد ـ (المترجم) ـ نقة، فتحي (المراجع).

الأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز الوطني للترجمة.

Niccolò AMMANITI
Io non ho paura
© Einaudi - Torino 2001 - 219 p.

حقوق الترجمة العربية ونشرها وتوزيعها
وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

دار سيناترا

© المركز الوطني للترجمة، تونس 2008

9، نهج المنستيري – 1006 – تونس
الهاتف: 377 567 71 (216+) الفاكس: 308 567 71 (216+)
البريد الالكتروني: tarjamah@cenatra.nat.tn

تصدير

نيكّولو أمّانيتي هو اليوم كاتب معروف عالميّا، ولعلّ السرّ في هذه الشــهرة هو نجاح روايته **أنا لا أخاف** (2001)، خصوصا بعد أن جعل منها غابرييلّي سَــلفاتوراس شــريطا سينمائيّا رُشّح للأوسكار سنة 2004.

بــدأ أمّانيتــي مســيرته الإبداعيّة ســنة 1994 بظهــرو روايته «Branchie» [خياشــيم]، وهو لم يتجاوز بعدُ سنّ الثلاثين، ومنذ ذلك الحين فرض حضوره على السّاحة الأدبيّة الإيطالية والعالميّة وبرز كأحد الأقلام الأكثر تفرّدا وتجديدا في الكتابة الروائيّة المعاصرة: ظهرت له مجموعة من القصص سنة 1996 «Fango» [وَحَل]، تبعتها ســنة 1999 رواية «Ti prendo e ti porto via» [آخذك وأحملك بعيدا]. وهي كتب ما أن تشــرع في قراءتها حتّى تســتحوذ عليك ولا تتركك إلاّ عندما تصل إلى كلمة النهايــة. في أحد لقاءاته مع الصحفيّين قال أمّانيتي «فكرتي عن الأدب هي أن يقصّ عليك أحد حكاية، مثلما يقع مع الأطفال الصغار عند المســاء، فإذا لم تجذبــك إليها، تتركها ولا تهتمّ بها». ولكي ينجح الرّاوي في أسر قارئه يجب أن يتسلّى بالكتابة بقدر ما يتسلّى القارئ بالقراءة. وفي بداية تجربته القصصيّة كان أمّانيتي يتســلّى بذلك النّوع من الروايات المسكونة بالخوف والظلام والوَحل والوحوش، على غرار حكايات ستيفان كينغ التي غذّت قراءات طفولته : «عندما كنت صبيّا، قرأت ســتيفان كينغ، وكنت أعجبُ كيف أنّ كتبه التي تدور أطوارها في

قرية صغيرة من الساحل الشرقي للولايات المتّحدة الأمريكية كانت مشوّقة سواء في الزايير أو في تايلانديا أو في إيطاليا". ويُمكن القول إنّ الأنموذجيْن اللّذين اتّبعهما أمّانيتي لخلق عناصر التشويق في الرواية هما كلفينو وكينغ. وكلاهما تميّزا بقدرتهما على التحليق في أجواء الخيال دون قطع الصّلة بالواقع، سواء مسّ هذا الواقع حالة الإنسان المعاصر الذي يجد نفسه سجينَ الحداثة التي صنعها، أو المخاوفَ والوحوش التي تزور كوابيسه.

وبالفعل، في كتابيْه الأوّليْن، **خياشيم** و **وَحل**، يُطلق أمّانيتي العنان لمخيّلته الجامحة ويصنع عوالم فقدت كلّ عقلانيّة وكل هويّة، وصارت مثل بعض مأكولات زمننا الحاضر «**سندويشا محشوّا بالبَكلاو والبروكلو والمايونيز والبصل والكرّي**...". في رواية **خياشيم** يرحل بطل الرواية، ماركو دواناتي، المصاب بسرطان قاتل، إلى الهند حيث دُعي لصنع أكبر حوض للأسماك في دلهي الجديدة، ولكنها حيلة لجلبه هناك ولمداواته، لأنّه رفض الخضوع لأيّ علاج في إيطاليا وقرّر الاستسلام شيئا فشيئا للمصير المحتوم. إلاّ أنّ مصحّة الدكتور سوبتونيك، شخصيّة شبيهة بالدكتور مورو، كانت تُستعمل لاختطاف الأشخاص وقتلهم، ولاستعمال أجسادهم قطعَ غيار لحرفائها. وتصبح هذه السفرة إلى الهند سلسلة من المغامرات العجيبة واللامعقولة في إطار شرقيّ ساحر. وهكذا يكتشف دوناتي رغبة جديدة في الحياة ويعمل صحبة مجموعة من الأصدقاء المهمّشين مثله على تخليص سجناء المصحّة وتحطيم سوبتونيك.

في المجموعة القصصيّة «وَحل» يولي أمّانيتي اهتمامه إلى الأحداث والوقائع التي تعيشها شخصيّات صارت سجينة هواجسها وعاداتها الحياتيّة والقواعد الاجتماعيّة وسأم الحياة اليوميّة. وهكذا تُصبح قصّة «رأس العام الأخير» صورة من

انحلال وتفتّت الإنسانيّة ممثَّلة من خلال متساكني حيّ راقٍ في روما. في هذه القصّة تتوالى وتتقاطع أحداث الشخصيّات الأكثر غرابة وتنوّعا، على نسق الساعات والدقائق والثواني التي تفصل المجموعة عن منتصف الليل. عندها تتحوّل طلقات منتصف اللّيل إلى انفجار هائل يدمّر الحيّ بأكمله، وإذا بنهاية العام تتحوّل إلى نهاية العالم، إلى حدث رؤيويّ لا ينجو منه أحد. لا تبقى على قيد الحياة إلاّ امرأة كانت تريد الانتحار، ولكنّها في نهاية الأمر تستيقظ من تأثير الأقراص التي ابتلعتها، وعندما أدركت أنّ الجميع ماتوا عادت إليها الرّغبة في الحياة وانطلقت لتعيش حياتها من جديد.

تأكّد في كتابة المجموعة القصصيّة «وَحَل» اتّساع خيال أمّانيتي الإبداعي مع قدرة كبيرة على خلق نسق متسارع يشدّ القارئ إلى أن تختتم الحكاية. وسيصقل أمانيتي هاتيْن الميزتيْن، سعة الخيال وسرعة النّسق، في الروايتيْن اللّتيْن عرّفتا به الجمهور الواسع: «**آخذك وأحملك بعيدا**» و «**أنا لا أخاف**». في هاتيْن الروايتيْن يعود أمّانيتي إلى عوالم أكثر واقعيّة وإلى مسائل أكثر ارتباطاً بالواقع المرير الذي تعيشه غالبا الأوساط المهمّشة والشخصيات المغلوبة على أمرها.

في رواية «**آخذك وأحملك بعيدا**» تتلاقى قصّتان تدور أطوارهما في بلدة صغيرة على ساحل البحر: قصّة صبيّ خجول، حسّاس وحالم، وقصّة كهل في الأربعين، عيّاش وموسيقيّ مفلس يعود بعد غياب طويل إلى مسقط رأسه ويتعرّف على أستاذة غامضة ومنغلقة على نفسها. ويكافح الصبيّ والكهل ضدّ الظروف المناوئة، وضدّ عداوة الآخرين، ويبحثان عن طريقهما، ويتوصّلان جزئيّا إلى تحقيق ذلك، ولكن مع دفع الثمن غاليا.

انطلاقـا من هذه الرواية ينكبّ أمّانيتي على مسـائل أكثر اتّصـالا بالواقع، مبتعدا شـيئا فشـيئا عن المغامـرات الغريبة واللامعقولة التي شـاهدناها في أعماله الأولـى، ويصنع أحداثا ووقائع منصهرة في واقع إنسـاني متألّم ومهـزوم، حائر إلى حدّ اليأس. وتأثير هذه الحكايات علينا أكثر قوّة لأنّها تصّور بيئات ومشـاغل غير غريبة عنّا، حتّى أنّنا أحيانا نجد شـيئا من أنفسـنا فيهـا، مثلما هو الحال في رواية «**أنـا لا أخاف**»، حيث يذكّرنا جنـوب إيطاليا وحـرارة الصّيف وحقول القمـح بمناظر بلادنا وقت الحصاد، وحيث تذكّرنـا الألعاب التي يتعاطاها الأطفال والقصص التي يقصّونهـا والأحلام والمخاوف التي تراودهم بما يراودنـا من أحلام ومن مخاوف ومـا نبتدعه من ألعاب، وحيث يذكّرنا عالم الكبار بما يعيشه الكبار أحيانا من خيبة أمل ومن حقد علـى الحياة ومن نقمة على الجنس البشـري تدفعهم مثل شخصيّات هذه الرواية إلى أبشع الأفعال.

هذان العالَمان، عالم الصّغار ببراءته وباندفاعه الحيويّ وعالم الكبار الذي فقد براءته وحماسه الحيويّ، يلتقيان في هذه الرواية أحيانا في وفاق وأحيانا في شقاق، من خلال خطاب سرديّ مقنع وجذّاب. ونقطة الانطـلاق لهذه القصّة جاءت من خاطر مرّ ببال المؤلّف «توّلدت عندي فكرة هذه الرواية عندما مررتُ بالسيّارة مرّة وسـط الحقول بين بازليكاتا و بوليا. لاحظتُ فيها صعوبة العيش بالنسـبة إلى الأطفال في مكان مثل هـذا». وبالفعل ما يحسّه القارئ من أوّل وهلة هو عزلة هؤلاء الأطفال الذين يعيشون وسـط أربعة منازل فقيرة، لا تمرّ بها طريق رئيسيّة ولا يصل إليها مـن عالم الحضارة إلاّ ما يمرّ عبر شاشـة التفلزيـون. هو عالم صغير مهمّش ومنسيّ، يعيش على حاشية الحداثة، بل هو ضحيّة الحداثة التي صنعت كلّ أسـباب الرّفاهة التي حُرم منها. تحت شمس حارقة، ووسط حقول متعطّشة، لا يجد الأطفال من ألعاب إلاّ التسـكّع وسـط الحقول أو المكوث تحت المستودع، أو

تسلّق الأشجار. وفي ألعابهم تمتزج براءة الطفولة بقسوة المعاملة إزاء بعضهم البعض أو إزاء بعض الحيوانات الضعيفة. تجاه هذا العالم يوجد عالم الكبار، غامض ومنغلق، ولكن ليست له براءة الأطفال، بل اتّخذ سمات الوحوش المخيفة، التي عوّضت لدى الطفل ميكيلي الوحوش الخياليّة التي كانت تخيفه قبل استسلامه للنوم.

هذا الصيف، صيف 1978، سيكون بالنسبة إلى ميكيلي فترة المرور من عالم الطفولة إلى عالم الكبار، فترة تلقينيّة سيتعلّم أثناءها على حسابه أن الوحوش الحقيقيّة ليست تلك الموجودة في الخرافات، بل تلك التي تعيش إلى جانبنا، ويمكن أن تكون أقرب الناس إلينا. سيكتشف ميكيلي أنّ أباه وآباء أصدقائه هم «أسياد الهضبة» و «أسياد الدّيدان»، يريدون الخروج من عيشتهم الحقيرة ومن فقرهم باختطاف طفل صغير وطلب الفدية من أبويْه. وميكيلي الذي اكتشف صدفة مخبأ الطفل المختطف لم يفهم في البداية ما يحدث، واحتفظ بالسرّ الرهيب في داخله، إلى أن أدرك أنّ الطفل ليس لعبة، وأنّ لعبة الكبار ليست بريئة، وأنّ الموت والأشباح لا يوجدون فقط في الكوابيس المخيفة التي توقظه أثناء الليل. عند ذلك قرّر أنّ ينقذ الطفل من الموت، وهو يدرك أنّ هذا القرار سيعرّض حياته للخطر. وهذا الإدراك سيكرّس نضج شخصيّته وخروجه نهائيّا من الطفولة وألعابها البريئة إلى عالم الكبار المشحون بالأخطار وبثقل المسؤوليّة.

ومع ذلك فإنّنا لا نجد في الرواية حكماً على تصرّف الكبار أو درساً أخلاقيّاً، ولا نضع الشخصيّات فوق كفّتيْ ميزان الخير والشرّ، بل نشعر نحوهم بنوع من الرّأفة، تماما مثل ميكيلي الذي رغم معرفته بما صنع أبوه، لا يدينه بل يحبّه لأنّه يعرف أنّه فعل ذلك لأنّه كان يريد تحسين مستوى معيشة

عائلته الصغيرة، وأنّه ليس شرّيرا، بل هو ضحيّة الظروف القاسية التي يعيشها وضحيّة الرغبة الجامحة في الحصول سريعا وبسهولة على المال اللازم لتوفير رفاهية أكبر للعائلة. شخصيّات أمّانيتي، سواء في هذه الرواية، أو في روايته الأخيرة «**كما يشاء الربّ**»، يعيشون على حاشية المجتمع، محرومين من أسباب الرفاهية التي صنعها التقدّم التكنولوجي والصناعي، وهذا الحرمان جعلهم ناقمين على المجتمع، خارجين على القانون، ولكنّ إدراكهم لوضعيّتهم يجعل منهم شخصيّات إنسانيّة جديرة بالاحترام وتستحقّ أن ننظر إليها برأفة وتفهّم.

ولكن ما يجعل من شخصيّات أمّانيتي شخصيّات مشوّقة تحملك على أن تتعاطف معها وتميل إليها كما لو كانت شخصيّات حقيقيّة، هو قربها من تلك الشخصيّات التي تعترضنا أحيانا في الحياة اليوميّة، تعاني يوما بعد يوم ولكنّها لا تفقد حماسها ولا قدرتها على السخرية من نفسها ومن العالم بأسره. لذا فالابتسامة دائما موجودة في صفحات أمّانيتي بالرّغم من كآبة الأجواء والأماكن ومن المآسي التي يعيشها أبطال الروايات. إضافة إلى نسق في الأحداث وتنظيم دقيق لكلّ التفاصيل المكوّنة لهذه العوالم ممّا يجعل منها حكايات جاهزة للسّينما. وبالفعل أخرجت روايات أمّانيتي للسّينما، منذ روايته الأولى «**خياشيم**» التي أخرجها فرانشسكو رانييري مارتينوتّي فيلماً يحمل نفس العنوان، دون نجاح جماهيري كبير، إلى المجموعة القصصيّة «**وَحل**»، التي أخرج منها دينو ريزي للسينما قصّة «رأس العام الأخير» بمساهمة المؤلّف نفسه في كتابة السيناريو، إلى «**أنا لا أخاف**» التي أخرجها للسينما بنفس العنوان غابرييلّي سلفاتوراس، ورّشحت للأوسكار سنة 2004، إلى روايته الأخيرة «**كما يشاء الربّ**» التي أخرجها سلفاتوراس للسينما سنة 2008. وبخصوص العلاقة المتينة بين الأدب والسينما يقول أمّانيتي نفسه : «أجد صعوبة في التميز

بين ما هو أدب وما هو سينما. أرى الحكايات التي أقصّها من خلال الصّور، مثل فيلم يدور في مخّي، على الورق يتّضح أكثر الجانب النفساني والحميم. عندما أكتب حكاياتي أحسّ بوجود الفيلم. السينما بالنسبة إليّ أساسيّة مثل الأدب حتّى وإن وجدتُ في الأدب مجازاة أكبر لأنّ الكُتب تُصنع بمشاركة القارئ بينما السينما يوفّر كلّ شيء: الوجوه، والموسيقى، والأماكن. إن أمكن لي أن أختار، أقول : لنُنقذ الكتب!».

هذه العلاقة الوطيدة بين القصة المكتوبة والشريط المصوّر تعني أن كتابة أمّانيتي قريبة جدّا من الواقع خصوصا على المستوى اللغويّ: أي أن لغة الشخصيّات مرآة عاكسة لواقعها الاجتماعي ولموقعها الجغرافي ولمستواها الثقافي. في هذه الرواية نجد لغة تصوّر عالم الأطفال وألعابهم وحكاياتهم بكثير من التلقائيّة والبساطة، دون لفّ أو دوران أو تغطية أو تلطيف. وقد حاولنا قدر الإمكان أن نحافظ على هذا الطابع الخصوصي من خلال استعمال مستوى لغوي يبتعد عن الألفاظ الغريبة والمعقّدة التي لا يُمكن أن يتلفّظ بها طفل في التاسعة من عمره. وكما هو معروف يحبّ الأطفال كثيرا الكلمات التي تشير إلى البراز أو إلى أجزاء الجزم مثل النهدين أو الأرداف أو الأعضاء التناسليّة، ويستعملون في الشتم والسبّ كلمات قذرة لا يُمكن ترجمتها حرفيّا، وحيث أمكن حافظنا عليها دون السقوط في البذاءة أو لطّفنا منها دون خيانة النصّ. في حالتيْن التجأتُ إلى استنباط حلول: في لعبة اسم الحيوان الذي يبدأ باسم غلّة،في الإيطالية coccodrillo، الذي يبدأ بجوز الهند ويعني «التمساح»، جعلته يبدأ باسم جزء من جسم الإنسان «السنّ» والحيوان هو السنجاب. والحالة الثانية هي حكاية صغيّر صغرون، عوضا عن بيرينو بيروني، لأنّ هذه الحكاية موجودة في خرافات إيطالية لإيطلو كلفينو وكنتُ ترجمتها بهذا العنوان سنة 1988، لقرب الشخصيّة من «صغيّر صغرون» الموجود في تراثنا، ولأنني

بهذه الصفة أحافظ على طابع خرافة معروفة لدى الأطفال. وبما أن الأحداث تدور في السبعينات نجد في الرواية عناوين قراءات للأطفال وشخصيات صور متحرّكة كانت محبّذة آنذاك لدى الأطفال فقد رأيت من اللازم أن أدرج بعض الملحوظات في أسفل الصفحة لإنارة القارئ العربي، ولكن دون الإكثار منها حتّى لا يمتلئ النصّ بالهوامش كما لو كان كتاباً علميّا أو دراسة.

ولا يُمكنني في الختام إلاّ أن أذكّر أن كل ترجمة أدبيّة هي محاولة عسيرة لتحقيق توافق، هو في الواقع مستحيل، بين لغتيْن وثقافتيْن، لغة المؤلف وثقافته ولغة المترجم وثقافته. فلا يُمكن للمترجم إلاّ أن يقترب أكثر ما يُمكن من عالم المؤلّف ويحاول التعبير عنه بلغته ولكن بصفة تجعل القارئ يتعرّف عليه ويتفاعل معه ويستمتع به بقدر ما يُمكن ذلك مع القارئ في اللغة الأصليّة. ولعلّ الصعوبة الكبرى هنا تكمن في الحفاظ على طريقة الطفل في الكلام مستعملا لغة بسيطة علّمتها إيّاه مدرسة الشارع ولكنّها توافق لغة الكتابة الأدبيّة، بينما النصّ العربي لا يُمكن أن يستعمل إلاّ لغة مدرسة بعيدة عن طُرق الخطاب العامّي والمبتذل. فكان علينا أن نبسّط أكثر ما يُمكن وأن نحاذر من الانزلاق في خطابة قد تغيّر من نمط النصّ، بل وأن نلجأ أحيانا إلى عبارات أقرب إلى العاميّة منها إلى العربيّة الكلاسيكيّة، وذلك للمحافظة على أجواء الطفولة وعلى الأسلوب البسيط الذي توخّاه المؤلّف. وإن كانت الخيانة أمرا اضطراريّا في الترجمة الأدبيّة فإنّنا لجأنا إليها عندما رأينا أنّها لازمة لتحقيق موافقة أكبر بين النصّ الأصلي والترجمة: لأنّ البشر لا يستعملون نفس العبارات لوصف عالمهم ومع ذلك يبلّغون رسالتهم ويحقّقون التواصل بينهم.

أحمد الصمعي

أشـــكر كيارا بلّيتـــي لكلّ المســـاعدة التـــي قدّمتها لي وللحماس الذي خدمت به هذا الكتاب.

أنا لا أخاف

أهدي هذا الكتاب إلى أختي لويزا،
التي تبعتني على "نيرا"
بنجمتها الصغيرة الفضيّة
المرشوقة فوق سترتها.

لم يفهم إلاّ هذا. أنّه هوى في العتمة. وفي اللّحظة التي عرف فيها ذلك، كفّ عن المعرفة.

جاك لندن

1

كنت على وشك أن أسبق سلفاتوري عندما سمعتُ أختي تصيح. استدرتُ ورأيتها تختفي وقد ابتلعتها سنابلُ القمح التي تغطّي الهضبة.

ما كان عليّ أن أحملها معي، ستعاقبني أمّي عقابا شديدا.

توقّفت. كنت أسيل عرقاً. استعدت أنفاسي ثمّ ناديتها: ماريا! ماريا!

أجابني صوت ضعيف متألّم. ـ ميكيلي!

ـ هل أصابَك سوء؟

ـ نعم، تعالَ.

ـ أين أُصِبت؟

ـ في ساقي.

قلت في نفسي إنّها تتظاهر. لقد نال منها التّعب. ولكن لو أصابها سوء بحقّ؟

علي مولا

أين ذهب الآخرون؟

كنت أرى أثرَ مرورهم بين السنابل وهم يصعدون بتأنٍّ، في صفوف متوازية مثل أصابع اليد، نحو قمّة الهضبة، تاركين وراءهم خطّا من الزّرع المنكسر.

كان الزّرع تلك السنة عالياً. عند نهاية الربيع أمطرتْ السماءُ كثيراً، وفي منتصف شهر يونيو كانت السنابل يانعة كأفضل ما يكون، متلاصقة ومحمّلة بالقمح لا تنتظر إلاّ الحصاد.

كان كلّ شيء مغطّى بالقمح. والهضاب المنخفضة تَتلاحق مثل أمواج محيط ذهبيّ اللّون. وعلى امتداد الأفق قمحٌ وسماء وصراصيرُ وشمس وحرارة.

لم تكن لديّ فكرة عن درجة الحرارة. فصبيّ في التاسعة من عمره لا يفهم كثيراً في الدرجات المئويّة، ولكنّه يعرف أنّ الحرّ كان غير عاديّ.

ذلك الصّيف الملعون، صيفُ سنة 1978، بقي في الذاكرة كأحد أحرّ أصْياف هذا القرن. كان الحرّ ينفذ إلى الحجارة ويفتّت الأرض ويُحرق النّبات ويقتل الحيوانات ويُلهب المنازل. عندما تقطف الطماطم في الحقول تجدها جافّة وخالية من الماء وتجد القرع الأخضر صغيراً ويابسا. وكانت الشمس تخنق الأنفاس وتتركك دون قوّة ودون رغبة في اللّعب أو في عمل أيّ شيء آخر. وحتّى في اللّيل كان الحرّ قاتلاً.

في أكوا ترافرسي لا يخرج الكبار من المنازل قبل السادسة مساء. يمكثون في الدّاخل وراء الشبابيك المغلقة، إلاّ نحن الأطفال كنّا نغامر بأنفسنا في الحقول الملتهبة والمهجورة.

كانت أختي ماريا في الخامسة من عمرها وكانت تتبعني أينما ذهبتُ بعناد الكلب الذي أُخرج من مربضه.

كانت تقول لي دائماً: «أريد أن أفعل ما تفعله أنت». وكانت أمّي تدافع عنها دائماً «ألستَ أخاها الأكبر؟». ولم تكن هناك فائدة في النقاش. كان عليّ أن أحملها معي.

لم يتوقف أحد لمساعدتها.

شيء طبيعي، إنه سباق.

- يصعد الجميع إلى الهضبة في خطّ مستقيم. دون منعرجات. لا أحد يمشي وراء الآخر. لا أحد يتوقّف. ومن يصل الأخير يتحمّل العقوبة ـ هكذا اشترط «جُمجمة». ومنحني ترخيصاً:

- طيّب، أختك لن تشارك في السّباق. إنّها صغيرة.

ولكن ماريا احتجّت:

- لست صغيرة! أريد أن أشارك!

وها أنّها سقطت.

يا لَلْخسارة! كنت الثالث في الترتيب.

أنطونيو كان الأوّل، كما هو الحال دائماً.

أنطونيو نَطالي، الملقّب بـ «جُمجمة»، ولا أذكر من أين جاءته هذه الكُنية، ربّما لأنّه ألصق مرّة على ساعده صورة جمجمة، واحدة من تلك الصّور المطبوعة التي تُبَاعُ في كشك التّبغ والتي تُلصق بالماء. كان جُمجمة أكبرَنا في الثانية عشرة من عمره، وكان هو الزّعيم. كان يحبّ الزعامة. وعندما يرفض أحد منّا تنفيذ أوامره يَصِيرُ عنيفاً. لم يكن ذكيّا ولكنّه جسيم، قويّ وشجاع. وكان يتسلّق تلك الهضبة كما لو كان جرّافة ملعونة.

وبعده سلفاتوري.

كان سلفاتوري سكرداتشوني مثلي في التاسعة من عمره. كنّا في نفس القسم وكان أعزّ أصدقائي. كان سلفاتوري أطول قامة منّي ويحبّ العزلة. كان يرافقنا أحياناً، ولكنّه في الغالب يفضّل البقاء وحده. وهو أذكى من جُمجمة، وكان من اليسير أن يأخذ مكانه لكنّه لا يبحث عن الزعامة. كان أبوه، المحامي إيميليو سكرداتشوني، شخصيّة بارزة في روما، ويقولون إنّ له أموالا طائلة في سويسرا.

ثمّ أنا، ميكيلي. ميكيلي أميترانو. وحتّى في هذه المرّة كنت الثالث في الترتيب. كنت أتسلّق الهضبة جيّدا، ولكنّني توقّفتُ بسبب أختي.

بَقِيتُ متردّدا بين أعود إليها أو أن أتركها هناك، عندما وجدت نفسي في المرتبة الرابعة. من الجهة الأخرى من المنحدر سبقني ذلك الأحمق ريمو مرتسانو. وإنْ لم أسارع بالتسلّق من جديد فستسبقني أيضاً بربرا مورا.

أنثى تسبقني! أنثى وسمينة! سيكون ذلك مريعاً.

كانت بَربَرا مورا تتسلّق الهضبة على قوائمها الأربع مثل خنزيرة هائجة تتصبّب عرقاً ويكسوها التراب.

- ماذا تفعل، لن تذهب إلى أختك الصغيرة؟ ألم تسمعها؟ لقد أُصيبت المسكينة.

صاحت بذلك مبتهجة. هذه المرّة لن تتحمّل هي العقوبة.

- سأذهب، سأذهب.. وسأغلبكِ.

لن أدعَها تفرح على حسابي.

استدرتُ وبدأت في النزول محرّكاً ذراعيّ وصائحاً مثل الهنود الحُمر. كان نعلاي المصنوعان من الجلد ينزلقان على سنابل القمح وسقطتُ مرّتيْن على الأرض.

لم أكن أراها. ـ ماريا! ماريا! أين أنتِ؟

- ميكيلي...

ها هي. صغيرة كسيرة الخاطر جالسة وسط دائرة من السنابل المهشّمة. كانت تدلك بإحدى يديها عرقوب ساقها وتمسك بيدها الأخرى نظّاراتها، وقد التصق شعرُها بجبينها ولمّع البكاءُ الوشيك مقلتيْها. عندما رأتني عوّجت فمها وانتفخت مثل ديك روميّ.

- ميكيلي...؟

ـ ماريا، من جرّائك خسرتُ السّباق! قلت لك لا تأتي معي، عليكِ الّلعنة!

ثمّ جلست. ـ ماذا جرى لكِ؟

ـ تعثَّرت. وأُصبت في قدمي و... ـ فتحت فمها وأغمضت عينيها ولوت رأسها ثم انفجرت باكية. ـ النظّارات! انكسرت النظّارات!

كنت على وشك أن ألطمها بكفّ. إنّها المرّة الثالثة التي تكسر فيها النظّارات منذ أن بدأت العطلة. ومَن المخطئُ في كلّ مرّة حسب أمّي؟

«يجب أن تنتبهَ إلى أختك، إنّك أخوها الأكبر».

«ماما، أنا...»

«لا ماما، ولا أنا. أنت لم تفهم بعدُ، ولكنّ النقود لا تنبت في الحديقة. المرّة القادمة التي تُكْسَرُ فيها النظاراتُ لا تتصوّر العقوبة التي..»

لقد انكسرت في الوسط حيث كنّا قد ألصقناها. لم تَعدْ صالحة.

في الأثناء تواصل بكاء أختي.

ـ ماما... ستغضب... ماذا سنفعل؟

ـ ماذا سنفعل؟ سنضع فوقها لصيقة. انهضي، هيّا.

ـ إنّها قبيحة باللَّصيقة، قبيحة جدّا. لا تعجبني.

وضعتُ النظارات في جيبي. بدونها لا ترى ماريا شيئاً. كان في عينيها حوَل، وقال الطبيب إنّه كان من اللاّزم أن يُصوّب بعمليّة جراحيّة قبل أن تكبُر. ـ لا عليكِ. انهضي.

كفّت عن البكاء وبدأت تستنشق الهواء بأنفها.

ـ قدمي يُؤلمني.

ـ أين؟

كنت لا أزال أفكّر في الآخرين. في هذه الآونة وصلوا دون شك، منذ ساعة، إلى قمّة الهضبة. كنت الأخير. وأملي الوحيد أن لا يُسلِّط جُمجمة عليَّ عُقوبةً قاسية. ذات مرّة خسرت السّباق فحكَم عليّ أن أجري وسط الحريق.

ـ أين يؤلمك؟

ـ هنا. ـ وأشارت إلى عرقوب ساقها.

ـ إنّه التواء. لا بأس. ستشفى سريعا.

فككتُ خيوط الحذاء الرياضي ونزعته بكلّ لطف كما يفعل الطبيب.

ـ هكذا أفضل؟

ـ أفضل بقليل. لِم لا نعود إلى المنزل؟ أُحسّ بعطش كبير. وماما...

الحقّ معها. لقد ابتعدنا كثيراً، ومنذ وقت طويل. لقد مضت ساعة الفطور وأمّي ترقبُ دون شكّ رجوعنا من النافذة.

لن تمرّ العودة إلى المنزل بسلام.

ولكن من كان يتصوّر هذا قبل الآن ببضع ساعات.

في ذلك الصّباح أخذنا الدرّاجات.

كنّا نقوم في العادة بجولات صغيرة، حول المنازل، نصل إلى حدود الحقول، إلى الوادي الجافّ ثم نعود على أعقابنا متسابقين.

كانت درّاجتي حديدا قديماً أكله الصّدأ. مقعدها مرقّع ومرتفع إلى درجة أنّني كنتُ أنحني بكامل جسمي لألمس الأرض.

كانوا يسمّونها «الخُردة». وكان سلفاتوري يقول إنّها درّاجة مُتسلّقِي جبال الأَلْب. ولكنّني كنت أحبّها لأنّها درّاجة أبي.

وعندما لا نتجوّل على الدرّاجات، كنّا نقضي الوقت وسط الشّارع، نلعب بالكرة أو نلعب ألعابًا أخرى مثل «سرقة الرّاية»، أو «واحد، اثنيْن، ثلاثة، نجمة»، أو نبقى تحت مظلّة المستودع دون أن نفعل شيئاً.

كان بإمكاننا أن نفعل ما نريد. لا تمرّ سيّارات من هنا ولا يوجد أيّ خطر. أمّا الكبارُ فكانوا في جحورهم مثل الضفادع ينتظرون نهاية الحرّ.

وكان الوقت يمرّ بطيئا. عند نهاية الصّيف كنّا ننتظر بشوق بداية السنة الدراسيّة.

في ذلك الصّباح أخذنا نتحدّث عن خنازير مِليكيتّي.

كثيراً ما كنّا نتحدّث فيما بيننا عن خنازير مليكيتّي. يُقال إنّ العجوز مليكيتّي روّضها لافتراس الدّجاج، وأحياناً يلقي إليها بالأرانب والقطط التي يعثر عليها في الطريق.

قذف جُمجمة بصاقاً من اللّعاب الأبيض، ثمّ قال:

ـ لم أقصَّ عليكم أبداً هذه الحكاية لأنّ شيئاً كان يمنعني قبل الآن من ذلك. أمّا الآن فسأحكيها لكم: افترست تلك الخنازيرُ كلبَ ابنة مليكيتّي.

فصدرت عن الجمع صيحةٌ واحدة. ـ لا، هذا غير صحيح!

ـ بل صحيح. أُقسم بقلب العذراء. حيّاً التهمته الخنازير حيّاً.

ـ هذا مستحيل!

أيّ نوع من الحيوانات هي لكي تفترس كلباً طِرْفاً؟

فحرّك جُمجمة رأسه مؤكِّداً:

ـ ألقى مليكيتّي بالكلب وسط الخنازير. وحاول الكلب الفرار. فهو حيوان ذكيّ. ولكنّ خنازير مليكيتّي كانت أكثر مَكراً. لم تُمهله وافترسته في ثانيتيْن ـ.ثمّ أضاف:

ـ إنّها أدهى من الخنازير الوحشيّة.

فسألته بَرْبَرا:

- ولماذا ألقاه للخنازير؟

ففكّر جُمجمة قليلا ثمّ أجاب:

- لقد بال داخل المنزل. وأنتِ لو سقطتِ وسط الخنازير، وبما أنّكِ سمينة، فإنّها ستُنجِّر لحمكِ حتّى العظم.

عند ذلك قامت ماريا واقفة:

- مليكيتّي مجنون؟

بصق جُمجمة مرّة أخرى على الأرض:

- مليكيتّي أكثر جنوناً من خنازيره.

بَقِينا صامتين نتصوّر حياة ابنة مليكيتّي مع أب شرّير مثله. لا أحد منّا كان يعرف اسمها، ولكنّها كانت مشهورة لأنّ تقويماً من الحديد كان يغلّف ساقها.

عند ذلك قلتُ:

- لمَ لا نذهب لرؤية الخنازير!

فهتفت بَرْبَرا: لِنَقُمْ برحلة!

ولكنّ سلفاتوري غمغم قائلاً:

- ولكنّ ضيعة مليكيتّي بعيدة جدّا. سنُضيع وقتاً طويلاً.

- بل هي قريبة جدّا، هيّا بنا... ـ.ثمّ صعد جُمجمة فوق درّاجته. كان لا يترك أبداً فرصةَ لقول الكلمة الأخيرة ضدّ سلفاتوري.

عندها خطرت لي فكرة. ـ لِمَ لا نسرق دجاجة من دجاجات ريمو. وعندما نصل نرميها في حَظِيرةِ الخنازير ونشاهد كيف تفترسها؟

فأيّد جُمجمة قائلاً:

- فكرة جميلة!

ولكنّ ريمو اعترض متذمّراً:

- ولكن بابا سيقتلني لو سرقنا دجاجة من دجاجاته.

لم يُفد تذمّره شيئاً. كانت الفكرة طيّبة جدّا.

دخلنا مرقد الدّجاج، واخترنا دجاجة هزيلة منتّفة الرّيش ووضعناها في كيس.

ثمّ انطلقنا، نحن الستّة ومعنا الدّجاجة، لمشاهدة خنازير مليكيتّي المشهورة. أدرنا عجلاتنا وسط حقول القمح، وأدرنا وأدرنا، والشمسُ ترتفع عالية في السّماء وتحرق كلّ شيء.

كان سلفاتوري على حقّ. ضيعة مليكيتّي بعيدة جدّا. عندما وصلنا كان العطش يُلهب حلوقنا وكانت رؤوسنا تغلي.

كان مليكيني جالساً فوق كرسيّ متأرجحاً تحت مشمشة معوجّة ونظاراتُه الشمسيّة على عَيْنيْه.

كانت الضيعة متداعية والسّطح مرقّعًا ما أمكن بالصفيح والقطران. وفي السّاحة كدس من الأشياء البالية: عجلات

جرّار، سيّارة «بيانكينا» أكلها الصدأ، كراسي محطّمة، طاولة بدون ساق. فوق عمود من الخشب المغطّى باللّبلاب رُشقت جماجم بقر متآكلة من أَثَرِ المطر والشمس، وجمجمة أخرى صغيرة بدون قرنيْن. تُرى أيَّ حيوان كان؟

وكان هناك كلب هزيل التصق جلدُه بعظمه ينبحُ مشدوداً إلى سلسلة.

وفي قاع الضيعة، على مشارف وَهْد، توجد أكواخ من الصّفيح ومرابض الخنازير.

كانت تلك الوهدة شِعْباً صغيراً حفرته مياه الأمطار بين الصخور. كانت تبرز من ترابه المحمرّ مسلاّتٌ بيضاء اللّون وأسنانٌ مدبّبة. وغالبا ما كانت تنبت فيه زياتينُ ملتوية الأغصان، وشجيرات القَطْلب والآس البرّي. وتوجد فيه مغارات يحمي فيها الرّعاةُ أغنامهم.

كان مليكيتّي أشبه بالمومياء. كان جلده المتجعّد يتدلّى من عظامه دون شعر. ماعدا كتلةً من الشعر الأبيض نبتت وسط صدره. وكان يحمل حول عنقه طوقَ تقويم مشدودا بخيوط من البلاستيك الأخضر، ويلبس بنطلوناً قصيرا أسود ويحتذي نعلين من البلاستيك البنّي.

شَاهَدنا قادِمين على درّاجاتنا لكنّه لم يتحرّك. ربّما كان يظنّنا سراباً إذْ لا يمرّ أحد أبداً من ذلك الطريق. ما عدا أحياناً بعضَ شاحنات العلف.

كانت هناك نتونة بول والملايين من ذباب البغال. كان مليكيتّي لا يعبأ بها وهي تحطّ على رأسه وحول عينيه مثلما تفعل مع الأبقار، إلاّ عندما تقع في فمه عندهَا كان ينفخ لطردها.

تقدّم جُمجمة قائلاَ:

ـ سيّدي، عطشنا. هل لديك قليل من الماء؟

لم أكن مرتاح البال لأنّه باستطاعة واحد مثل مليكيتّي أن يُطلق عليك الرّصاص أو أن يرميك لخنازيره أو أن يسقيك ماءاً مسمّماً. قصَّ عليّ أبي مرّة أنّ رجلاً في أمريكا كان يملك بُحيرة صغيرة يربّي فيها التماسيح. وعندما يتوقّف أحد ليسأله عن شيء يُدخله إلى منزله ثمّ يضربه على رأسه ويلقيه إلى التماسيح. وعندما جاءت الشرطة فضّل أن يلقي بنفسه إلى التماسيح لتفترسه بدلا من الذهاب إلى السّجن. كان مليكيتّي قادراً تماماً على مثل هذا.

رفع مليكيتّي نظّاراته وسألنا:

ـ ماذا تفعلون هنا يا أولاد؟ يبدو لي أنّكم ابتعدتم كثيراً عن بيوتكم.

قالت بَربَرا فجأة:

ـ أَصحيح يا سيّدي إنّك ألقيت بكلبك إلى الخنازير لتأكله؟

كدتُ أموت من الخوف. والتفتَ إليها جُمجمة بنظرة ملؤها الحقد بينما صكّها سلفاتوري بركلة على ساقها.

انفجر مليكيتّي ضاحكاً وشدّته أزمة من السّعال كادت تخنقه. وعندما استعاد أنفاسه قال:

ـ مَنْ روى لكِ هذه الحماقات، يا صغيرتي؟

فأشارت بَربَرا إلى جُمجمة:

ـ هو!

احمرّ وجه جُمجمة وطأطأ رأسه ينظر إلى نعليْه.

أعرفُ لماذا قالت بَربَرا ذلك.

قبل ذلك ببضعة أيّام قمنا بمسابقة في رمي الأحجار وخسرت بَربَرا. وعاقبها جمجمةُ بأن طلب منها أن تحلّ قميصها وتُرينا نهديْها. كانت بَربَرا في الحادية عشرة من عمرها. وكان نهداها صغيريْن جدّا مثل حبّتيْن، مختلفيْن تماماً عن النهديْن اللذيْن تضخّما بعد ذلك بسنتيْن. رفضت بربَرا فهدّدها جُمجمة قائلاً:

ـ إن لم تفعلي، فلن تأتِي أبداً معنا. أمّا أنا فقد تضايقتُ من ذلك. كانت عقوبة غير عادلة. لم تكن بَربَرا تروق لي، فهي لا تتردّد في الغدر بك إذا سنحت لها الفرصة. ولكن، أنْ تُرِينا نهديْها فقد كان ذلك يبدو لي طلباً مجحفاً.

ولكن جُمجمة أصرّ:

ـ إمّا أن تُرينا أو أن تبتَعدِي عنّا.

وبصمتٍ بدأت بَربرا تحلّ صدريتها.

لم أقدر على تمالك نفسي ونظرتُ إليها. كانت تلك أوّل مرّة رأيتُ فيها نهديْ أنثى، إذا استثنيت أمّي. ربّما حدث ذلك مرّة عندما جاءت ابنة عمّي إِفيلينا إلى منزلنا ونامت عندنا. كانت تكبرني بعشرة أعوام. على كلّ حال، تحدّدت لديّ فكرة عن النّهود التي تعجبني، ونهدا بَربرا لم يعجباني بالمرّة. كانا أشبه بجُبنتيْن أو بِطَيَّتيْن من الجلد لا تختلفان عن طيّات الشّحم على بطنها.

لم تنسَ بَربرا تلك الحادثة وعزمت على الانتقام لنفسها من جُمجمة.

- هكذا إذاً، أنت تقصّ لمن يريد أن يسمع ذلك أنّي أعطيتُ كلبي للخنازير لتأكله.

ثمّ حكّ صدره مُضيفا:

- كان اسمه أوْغُسطو مثل الإمبراطور الروماني. كان عمره ثلاث عشرة سنة عندما مات. ومات بعظم دجاج وَحَل في حلقه. دفنته كما لو كان بشراً في حفرة جميلة.

ثمّ وجّه سبّابته نحو جُمجمة:

- أراهنُ على أنّك الأكبر فيهم، أليس كذلك؟

بقي جُمجمة صامتاً.

- لا يجب أبداً أن تكذب ولا أن تُسيء إلى سُمعة الآخرين. يجب أن تقول دائماً الحقيقة، بالخصوص إلى من هم أصغر منك سنّاً. الحقيقة، دائماً. أمام النّاس، أمام الربّ، وأمام نفسك. هل فهمت؟

كان يبدو قسّاً يتلو موعظة.

فسألته بَربرا بإلحاح:

- لم يكن يبول إذاً داخل المنزل؟

حاول مليكيتّي أن ينفي ذلك بحركة من رأسه ولكن الطّوق كان يمنعه من ذلك.

- كان كلباً مؤدّباً وصيّادا ماهراً للجرذان. عليه الرّحمة.

ثمّ أشار إلى الحنفيّة. - إذا كنتم عَطْشَى فالماء هناك. أعذب ماء في المنطقة، ولستُ أغالي.

شربنا إلى أن كدنا نفلق. كان الماء عذباً بارداً. ثمّ بدأنا يَرُشُّ بعضُنا البعضَ بالماء ونضع رؤوسنا تحت الحنفيّة.

وأخذ جُمجمة يقول إنّ مليكيتّي إنسان قذر. وإنّه يعلم حقّ العلم أنّ ذلك العجوز الأحمق ألقى بكلبه للخنازير لتأكله.

ثمّ حدّق في بَربرا وقال لها:

- أمّا أنتِ فستدفعين الثّمن غالياً.

ثمّ ابتعد مغمغماً وجلس وحده على الجانب الآخر من الطّريق.

أمّا أنا وسلفاتوري وريمو فقد أخذنا في اصطياد صغار الضفادع بينما جلستْ أختي وبَربرا على حافة الحوض وأقدامُهما تتدلّى في الماء.

بعد بضع دقائق عاد جُمجمة نحونا وكلُّه حماس.

-انظروا! انظروا! كم هي ضخّمة!

التفتنا.

ـ ماذا؟

ـ تلك!

كانت هضبة.

كانت تبدو خبزة «بانيتّون»[1]، بانيتّون ضخم وضعه عملاق فوق السّهل المنبسط. كانت الهضبة تتعالى أمامنا على بعد كيلومترين، ذهبيّة اللّون عظيمةَ الحجم. وكان القمح يغطّيها كما لو كان فرواً. ولم تكن هناك شجرة أو نتوء أو شيء يُفسد كمال ذلك الرّسم. وكانت السّماء من حولها كأنّها سيْل وسِخ. والهضاب الأخرى من ورائها كانت تبدو أقزاماً بالمقارنة مع تلك القبّة العظيمة.

لستُ أدري لماذا لم نتفطّن إليها إلى ذلك الحين. لقد رأيناها دون أن نراها بالفعل. ربّما لأنّها كانت مندمجة في المنظر. ربّما لأنّنا كنّا مهتمّين فقط بالطريق للعثور على ضيعة مليكيتّي.

أشار إليها جُمجمة قائلاً:

ـ لِنَتَسلّقْ ذلك الجبلَ.

---

(1) – خبزة بريوش كبيرة بالزبيب والثّمار المعقّدة تُؤكل عادة في عيد ميلاد المسيح وبمناسبة السنة الميلادية الجديدة، تشبه في شكلها قبّة (المترجم).

فقلت:

ـ تُرى ماذا يوجد فوقها؟

إنّه بدون شكّ مكان عجيب. ولعلّ بعض الحيوانات الغريبة تعيش فيه. لم يصعد أبداً واحد منّا إلى مثل ذلك الارتفاع.

وضع سلفاتوري يده أمام عينيْه في شكل مظلّة وحدّق في قمّة الهضبة:

ـ أراهن أنّه بالإمكان من ذلك الارتفاع مشاهدة البحر. هيّا، يجب أن نتسلّقها.

بقينا ننظر إليها في صمت.

كانت مغامرة، لا مقارنة بينها وبين خنازير مليكيتّي.

قلتُ:

ـ وفوق القمّة سنضع رايتنا. وعندما يأتيها أحد يعرف أنّنا كنّا أوّل من صعد إليها.

فقال سلفاتوري:

ـ أيّة راية؟ إنّنا لا نملك راية.

ـ سنضع فوقها الدّجاجة.

أمسك جُمجمة الكيس الذي فيه الدجّاجة وأخذ يديره في الهواء صائحًا. ـ وهو كذلك! سنلوي عنقها ثمّ نرشقها

فوق عصا ونغرسها في الأرض. سيبقى منها الهيكلُ العظمي. سأحملها أنا فوق الهضبة.

دجاجة مرشوقة في عصا! سيعتبرها الجميع علامة تركتْها السّاحراتُ.

إلاّ أنّ جُمجمة أخرج المسطرة قائلاً:

ـ لنصعد! في خطّ مستقيم. بدون منعرجات. لا أحد يسير وراء الآخر. لا أحد يتوقّف. من يصل الأخير يتحمّل العقوبة.

فوجئنا وبقينا صامتين.

إنّه سباق! لماذا؟

الأمر واضح. كان يريد الثأر من بَرْبَرا. ستصل الأخيرة وعليها أن تقبل العقوبة.

ذهب خاطري إلى أختي. قلت إنّها صغيرة جدّا لكي تُسابق معنا وإنّ ذلك لا يجوز إذْ أنّها ستخسر لا محالة.

أشارت بَرْبَرا بإصبعها علامة على الرّفض. لقد فهمت المفاجأة التي أعدّها لها جُمجمة.

ـ ماذا يعني؟ السّباق سباق. إنّها جاءت معنا، وإلاّ فعليها أن تنتظرنا في أسفل الهضبة.

هذا غير مُمكن. لا أستطيع أن أترك ماريا وحدها. عادت إليّ حكاية التماسيح. صحيح أنّ مليكيتّي كان لطيفا معنا، ولكن لا يُمكن أن أثق به كثيراً. وإذا قتلها ماذا سأقول لأمّي؟

ـ إذا بقيتْ أختي فسأبقى أنا أيضاً.

عوضا عن ذلك قالت ماريا:

ـ لست صغيرة! أريد المشاركة في السّباق.

ـ اسكتي أنتِ!

فكان أن حسم جُمجمة في الأمر. بإمكانها أن تأتي معنا ولكنّها لن تسابقَ.

ألقينا بالدرّاجات وراء الحنفيّة وانطلقنا.

لهذا السّبب وجدتُ نفسي فوق تلك الهضبة.

ألبستُ ماريا حذاءها.

ـ هل تقدرين على المشي؟

ـ كلاّ. يؤلمني كثيراً.

ـ انتظري ـ.نفخت مرّتين على ساقها. ثمّ دفنتُ يدي في التراب المتّقد وأخذت منه حفنة بصقتُ فوقها ودلكتُ عرقوبها. ـ بهذه الطريقة يخفّ الألم ـ. كنت أعرف أن ذلك لا ينفع. التراب جيّد للَسْعة النّحل وللحرّيق وليس للالتواء، ولكن قد تقتنع. ـ هكذا أحسن؟

نظّفت أنفها بساعدها وأجابت:

ـ أحسن بقليل.

ـ تقدرين على المشي؟

ـ نعم.

أمسكت بيدها:

ـ هيّا إذاً، تشجّعي. سنكون الأخيرين.

واتّجهنا نحو القمّة. كانت ماريا تتوقّف كلّ خمس دقائق لتُريح ساقها. لِحُسن الحظّ أن هبّت نسمة لطّفت الجوّ. كانت تنساب بين سنابل القمح بصوت يشبه التنفّس. بدا لي فجأة أنّ حيوانا مرّ بالقرب منّا، أسودَ سريعاً صامتاً. لعلّه ذئب؟ لا توجد ذئاب في جهتنا. لعلّه ثعلب أو كلب.

كان التسلّق وعراً وطويلاً، لا نهاية له. كنت لا أرى أمامي إلاّ سنابل القمح. ولكن عندما رأيت جزءا من السّماء فهمتُ أنّه لم يبق إلاّ القليل وأنّ القمّة في متناولنا وأنّنا دون أن نشعر كنّا فوقها.

لم يكن فيها أيُّ شيء يلفت الانتباه. كانت مغطّاة بالقمح مثل كلّ الباقي. كنّا ندوس نفس التّراب الأحمر المتّقد. وفوق رأسيْنا كانت نفس الشّمس الملتهبة.

نَظرتُ إلى الأفق. كان ضبابٌ مثل الحليب يحجب الأشياء. لا نرى البحر ولكنّنا كنّا نرى الهضاب الأخرى أكثر انخفاضاً وضيعةَ مليكيتّي بسياج الخنازير والوهدة والطريقَ البيضاء تشقّ الحقول، تلك الطريق الطويلة التي قطعناها بالدرّاجات للوصول إليها. وتظهر البَلدة التي نعيش فيها من بعيد صغيرة وصغيرة جدّا، أكوا ترافَرسي. أربعة

بيوت وفيلاّ ريفيّة قديمة منتشرة بين حقول القمح. أمّا لوتشينيانو، القرية القريبة، فقد كان يحجبها الضباب.

قالت أختي:

- أنا أيضاً أريد أن أرى. ارفعني!

رفعتها على كتفيّ، حتّى وإنْ كانت ساقاي لا تحملانني من التّعب. ماذا يُمكن أن ترى بدون نظّارات.

- أيْن الآخرون؟

من حيث مرّوا انعدم نظام السنابل. انحنى الكثير منها وانكسر بعضُها. تبعنا الآثار التي كانت تحمل إلى الجانب الآخر من الهضبة.

شدّت ماريا على يدي وزرعت أظافرها في جلدي:

- يا لَلْهول!

التفتُّ.

لقد فعلوها. لقد رشقوا الدّجاجة. كانت في طرف قصبة متدلّية الساقيْن مفتوحة الجناحيْن، كما لو أنّها سلّمت نفسها إلى جلاّديها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. كان رأسها يتدلّى جانباً مثل قلادة فظيعة ملطّخة بالدّم. وكانت قطرات ثقيلة حمراء تسيل من منقارها المنفرج وبرز من صدرها طرف القصبة بينما كانت جموع من الذباب الأزرق تطنّ حولها وتتزاحم فوق عينيْها وفوق دمها.

سَرت في ظهري رعشة.

تقدّمنا. وبعد أن تجاوزنا ظهر الهضبة بدأنا في النزول.

تُرى أيْن ذهب الآخرون؟ لماذا نزلوا من تلك الجهة؟

سِرنا قرابة العشرين متراً ثمّ اكتشفنا السرّ. لم تكن الهضبة مستديرة. فَقَدَتْ من الخلف كمال استدارتها وامتدّت في شبه حدبة انحدرت ببطء ملتوية إلى أن التأمت بالسّهل. وكان في وسطها وادٍ ضيّق مغلق لا يُرى إلاّ من أعلى القمّة أو من الجوّ.

من اليسير جدّا أن نصنع أنموذجًا من الهضبة بالصّلصال. يكفي أن تصنع كرة. ثمّ اقسمها إلى جزأيْن. ضَعْ أحدهما فوق الطاولة. واصنعْ من الجزء الآخر دودة كبيرة سمينة وأَلْصِقها خلفها. ثمّ اجعل في وسطها منخفضاً صغيراً.

والغريبُ هو أنّه في وسط ذلك المنخفض المتواري نبتت بعضُ الأشجار. كانت توجد غابة صغيرة من البلّوط في حمى من الرّيح والشّمس. وبين الأغصان الخضراء، تبرز دار مهجورة بسقفها المتداعي المغطّى بالقرميد البنيّ وبأعمدتها الخشبيّة الدّاكنة.

نزلنا متّبعيْن الدّربَ الصغير ونفذنا إلى الوادي.

لم أكن أنتظر مثل ذلك: أشجار وظلّ وبرودة.

لم نعد نسمع الصّراصير بل زقزقة العصافير. وكانت هناك أزهار بنفسجيّة اللّون وبساطٌ من العشب الأخضر

ورائحة طيّبة تجعلك تودّ لو اتّخذت مكاناً صغيراً تحت جذع شجرة واستسلمت للنوم.

وفجأة ظهر سلفاتوري، كما لو كان شبحاً. ـ أرأيت؟ رائع!

ـ رائع جدّا! ـ ونظرت حواليّ متسائلاً إنْ لم يكن هناك جدولٌ لأشرب قليلاً من الماء.

ـ لماذا كلّ هذا الوقت؟ ظننتُ أنّك عُدت أدراجك.

ـ كلاّ، إنّها أختي. لقد التوت ساقُها... هذا كلّ ما في الأمر. أنا عطشان. يجب أن أشرب.

فأخرج سلفاتوري من جرابه قارورة. ـ هذا كل ما تبقّى من ماء.

تقاسمنا الماء أنا وماريا مثل شقيقيْن عطوفيْن. كان فيها ما يكفي فقط لبلّ الشّفتيْن.

ـ مَنْ ربح السّباق؟- كان بالي منشغلا بالعقوبة. كنت مُنْهَكا من التّعب. وكان أملي أن يتنازل جُمجمة ولو مرّة أو أن يرجئها إلى يوم آخر.

ـ جُمجمة.

ـ وأنت؟

ـ الثاني. ثمّ ريمو.

ـ وبَربَرا؟

ـ الأخيرة. كالعادة.

ـ من سيتحمّل العقوبة؟

ـ قال جُمجمة إنّ بَربَرا هي التي ستتحمّل العقوبة. ولكنّها عارضت قائلة إنّها تَؤُول إليك لأنّك آخر من وصل.

ـ والنتيجة؟

ـ لا أدري، ذهبتُ لأقوم بجولة. لقد ضقت ذرعاً بهذه العقوبات.

واتّجهنا جميعاً نحو الدّار المهجورة.

كانت واقفة بقدرة قادر، تقوم وسط فُسحة من الأرض مغطّاة بأغصان البلّوط. وكانت الشقوق العميقة تغطّيها من أرضيّتها إلى سقفها ولم يَبْقَ من أطر النوافذ والأبواب إلاّ آثارها. ونبتت فيها شجرة تين الْتوَت أغصانُها على السلّم الذي يؤدّي إلى الشّرفة، واقتلعت جذورُها الدّرجاتِ المصنوعة من الحجارة وهَدمت الدرابزين. وفي الطابق العلوي كان لا يزال يوجد باب قديم أزرق اللون، تآكل خشبه وتقشّر من فعل الشمس. كان يتوسّط البناية قوس كبير يفتح على قاعة ذات سقف مقبّب، لعلّه الإسطبل. وكانت ركائز وأعمدة من الخشب تُسند السقف الذي تهدّم في عدّة مواضع. وكان يغطّي الأرضيّة روث جافّ ورماد وأكداس من بقايا آجر وحصى. وفقدت الجدران جزءا كبيراً من طليتها الخارجية مظهرة الحجارة المرصوفة والعارية.

كان جُمجمة جالساً فوق حوض للماء يرمي بالحجارة صفيحةً أكلها الصّدأ. نظر إلينا. ـأخيراً وصلتـ، ثمّ أضاف:

ـ هذا المكان مكاني.

ـ كيف مكانك؟

ـ إنّه ملكي. لقد رأيته قبلكم جميعاً. والأشياء هي لِمَنْ يعثر عليها قبل الآخرين.

وفجأة دفعني أحد من الخلف فكدت أسقط على وجهي. استدرتُ.

إنّها بَربَرا. ارتمت عليّ محمّرة الوجه متّسخة القميص منتوفة الشّعر متأهّبة للعراك. ـ جاء دورك. وصلتَ الأخير وخسرت السباق!

تهيّأتُ للملاكمة قائلاً:

ـ لقد عُدتُ إلى الوراء، ولولا ذلك لوصلت الثالث. أنتِ تعرفين جيّدا ذلك.

ـ وما دَخْل هذا؟ لقد خسرت!

فسألتُ جُمجمة:

ـ من المُطالب بالعقوبة، أنا أم هي؟

أخذ كلَّ وقته قبل أن يُجيب ثمّ أشار إلى بَربرا.

ـ هل رأيتِ؟ هل رأيتِ؟- كم أحببتُ جُمجمة في تلك اللحظة!

بدأت بَربرا ترفس التراب بقدميها. ـ إنّه ظلم! إنّه ظلم! دائماً أنا! لماذا دائماً أنا؟

لا أدري. ولكنيّ أعرف أنّه يوجد دائماً أحدٌ يدفع عوضا عن الآخرين. في تلك الأيّام كان ذلك الشّخص بَربرا مورا، بَربرا السّمينة، كانت هي الخروف الذي يغسل الخطايا.

كنتُ في الآن نفسه آسِفا لها وسعيداً لأنّني لست مكانها.

كانت بَربرا تنتقل من أحدنا إلى الآخر مثل الكركدنّ.

ـ لِنصوّتْ، إذاً! لا يجب أن يكون القرار دائماً له.

وبعد مرور اثنتي عشرة سنة من ذلك لم أفهم إلى حدّ الآن كيف فعلتْ لتتحمّلنا. كان ذلك دون شكّ لأنّها لا تريد البقاء وحدها.

قال جُمجمة:

ـ حسناً. لِنصوّتْ. أنا أقول إنّ العقوبة من نصيبكِ.

قلتُ:

ـ أنا أيضاً.

وأعادت ماريا مثل الببّغاء:

ـ وأنا أيضاً.

نظرنا إلى سلفاتوري. لا يستطيع أحد أن يمتنع عن التصويت. هذه هي القاعدة.

قال سلفاتوري وهو يكاد يهمس:

ـ أنا أيضاً.

عند ذلك ختم جُمجمة:

ـ أرأيتِ؟ خمسة ضدّ واحد. لقد خسرتِ، عليكِ تحمّل العقوبة.

زمّت بربرا شفتيْها وشدّت قبضتيْها ورأيتها تبتلع شيئاً يشبه كرة التّنس. طأطأت رأسها ولكنّها لم تبكِ.

إنّها جديرة بالاحترام.

تمتمت:

ـ ماذا... يجب أن أفعل؟

مسح جُمجمة عنقه بيده. لقد بدأ فكرُه الفاسد يعمل.

تردّد برهة، ثم قال:

ـ يجب أن... تريه لنا... أن تريه لنا كلّنا.

كادت بربرا تفقد توازنها. ـ ماذا يجب أن أريكم؟

ـ في المرّة السّابقة أريتِنا نهديْكِ ـ.ثمّ التفت إلينا. ـ هذه المرّة يجب أن ترينا القنفذ. القنفذ المشعّر. خفّضي السّليب وأرينا قنفذكِ ـ.وأخذ يضحك بدعارة منتظرا أن نفعل مثله،

ولكن لم يتحرّك أحد. بقينا واجمين كما لو أن هواءً مثلجاً من القطب الشمالي عصف علينا وسط ذلك الوادي.

كانت عقوبة قاسية. لا أحد منّا كان يريد رؤية قنفذ بربرا. كانت عقوبة حتّى بالنسبة إلينا. شعرت بمعدتي انكمشت ووددتُ لو كنت بعيداً عن ذلك المكان. كان هناك شيء قذر، شيء...لا أدري ما هو. سيّئ، دون شكّ. وكان يحرجني أنَّ أختي معنا.

قالت بَربرا وهي تحرّك رأسها:

ـ لا سبيل إلى ذلك. اضربني إن شئت.

انتصب جُمجمة واقفا واقترب منها ويداه في جيبيْه. كان يقضم بين أسنانه سنبلة قمح.

وواجهته بربرا مادّة إليه عنقها. لم يكن جُمجمة أطول منها بكثير. ولا أظنّه أقوى منها. ولن أراهن على جُمجمة لو أنّه تصارع مع بَربَرا. لن يغلبها بسهولة. فلو ألقته على الأرض وجلست فوقه لأمكن لها أن تخنقه.

ـ لقد خسرتِ. الآن انزعي البنطلون. هكذا تتعلّمين أن لا تتصرّفي معي مثلما فعلتِ.

ـ لا، لن أفعل ذلك!

عند ذلك صفعها جُمجمة.

فغرت بربرا فاها كالسّمكة ودلكت وجنتها بيدها. لم تبكِ بعدُ والتفتت نحونا قائلة بصوت متألّم.

ـ وأنتم؟ ألا تقولون شيئا؟ إنّكم مثله.

بقينا صامتين.

ـ طيّب. ولكنّكم لن تروني بعد الآن. أقسم على ذلك برأس ماما.

ـ ماذا تفعلين، تَبْكينَ؟ ـ كان جُمجمة يستمتع بالمشهد أيّما استمتاع.

أجابت بربرا وهي تكتم شهيقها:

ـ كلاّ، لستُ أبكي.

كانت تحمل بنطلوناً من القطن الأخضر برقعتيْن بنيّتيْن على مستوى الركبتيْن، من تلك التي تُباع في سوق الأثواب المستعملة. كان البنطلون ضيّقا وشحمها يتدلّى من فوق الحزام. فتحت الحزام وبدأت تفكّ الأزرار.

وبان لي سليبها الأبيض المزدان بزُهيْرات صغيرة صفراء. وفجأة سمعتُ صوتي يقول:

ـ انتظري! أنا آخر مَنْ وصل.

التفت الجميعُ إليّ.

ابتلعتُ ريقي وقلت:

ـ نعم، أريدها لي.

فسألني ريمو:

ـ ماذا تريد؟

- العقوبة.

صعقني جُمجمة بنظرة:

- كلاّ. عليها هي تحمّل العقوبة. والأمر لا يخصّك. اخرس.

- بل الأمر يخصّني. لقد وصلتُ الأخير وعليّ أنا تحمّل العقوبة.

فاتّجه جُمجمة نحوي قائلاً:

- كلاّ. أنا الذي أقرّر.

كانت ساقاي ترتعشان وخفتُ أن ينتبه أحدهم إلى ذلك. - لِنُعِدْ التصويت.

وقف سلفاتوري بيني وبين جُمجمة قائلاً:

- هذا مُمكن.

كانت توجد بيننا قواعد. ومن بين هذه القواعد أنّ التصويت يُمكن أن يُعاد.

رفعت يدي قائلاً:

- العقوبة لي.

رفع سلفاتوري يده:

- العقوبة لميكيلي.

أغلقت بَربرا بنطلونها باكية وقالت:

ـ صحيح، إنّها لميكيلي.

فوجئ جُمجمة، وحدّق في ريمو بعينيْن مثل عينيْ مجنون:

ـ وأنتَ؟

تمتم ريمو قائلاً:

ـ إنّها لبَربرا.

عند ذلك سألتني ماريا:

ـ وأنا، ماذا أفعل؟

فأشرت برأسي أن توافقني.

ـ إنّها لأخي.

عندها قال سلفاتوري: أربعة ضدّ اثنين. ربح ميكيلي. عليه أن يتحمّل العقوبة.

لم يكن الصّعود إلى طابق الدّار العلوي أمراً هيّناً.

لم يعد هناك سلّم. أمّا الدّرجات فقد صارت ركاماً من الحجارة. تمكّنت من الصّعود بتسلّق أغصان التيّنة. وكان شوك العلّيق يخدش ذراعيّ وساقيّ. وجرحت شوكة خدّي الأيمن.

كان من غير المُمكن أن أستعمل الدرابزين. إنْ سقط سقطت معه ووجدتُ نفسي في غابة من الحرّيق ومن الورد البرّي.

كانت هذه عقوبتي جزاء سلوكي البطولي.

ـ يجب أن تصعد إلى الطابق الأوّل، أن تدخل الدّار وتجتازها كلَّها إلى أن تصل إلى النافذة الأخيرة وأن تقفز منها فوق الشجرة وتنزل.

خشيتُ أن يطلب مني جُمجمة أن أريهم عصفوري أو أن أغرس عصا في دبري، ولكنّه على عكس ذلك أرادني أن أقوم بعمليّة خَطِرة، أقلّ ما يُمكن أن يصيبني فيها كسرُ عظم رقبتي.

هذا أفضل.

كبستُ على أسناني وتقدّمت دون تذمّر.

كان الآخرون جالسين تحت شجرة بلّوط يتسلَّوْن بمشهد ميكيلي أميترانو وهو يهشم رأسه.

من حين إلى آخر كانت تصلني نصيحة. ـ مُرّ من هناك. ـ واصل مستقيماً. ـ هنالك يوجد شوك كثير. ـ كُلْ بعض التّوت سيزيدك قوّة.

ولكنّني لم أكن أستمع إلى نصائحهم.

كنت على الشرفة. وكان هناك ممرّ ضيّق بين الشّوك والجدار. نفذت إليه ووصلت البابَ. كان مغلقاً بسلسلة ولكن القُفل كان متآكلا بالصّدإ ومفتوحاً. دفعت المصراع فانفتح البابُ بصوت يشبه الأنين.

رفرفت من حولي أجنحة وحلّقت بعضُ الرّيشات وطار سربٌ من الحمام ثمّ خرج من فتحة في السّقف.

وصل إلى سمعي صوتُ جُمجمة يسأل عن الدّار:

ـ كيف هي؟ كيف هي من الدّاخل؟

لم أعبأ بالردّ عليه. دخلتُ محاذراً أين أضع قدميّ.

كنتُ أجد نفسي في غرفة كبيرة، تناثرت فيها قطع كثيرة من القرميد وبقي عمودٌ خشبيّ يتأرجح معلّقا. في إحدى الزوايا توجد مدفأة ٱسودّ بُرقعها من فعل الدّخان. وفي زاوية أخرى كوم من الأثاث: موقدٌ منقلب ومتآكل بالصّدإ، قوارير، قطع خزف وقرميد، سرير مثقوب. والكلّ مغطّى بوسخ الحمام. كانت هناك رائحة كريهة، عفونة حادّة تنفذ إلى قاع الأنف والحلق. وفوق الأرضيّة المصنوعة من الحجر الرّملي نبتت غابة من الحشائش ومن الأعشاب البريّة. في قاع الغرفة كان بابٌ مغلق أحمر اللون، يؤدّي دون شكّ إلى الغرف الأخرى.

كان عليّ أن أمرّ من هناك.

وضعت قدمي فطقطقت العارضات الخشبيّة وتموّجت الأرضيّة. كنت أزن في ذلك الوقت خمسة وثلاثين كيلوغراماً. ما تزنُه تقريباً صفيحة من الماء. وتساءلت هل بإمكان صفيحة ماء موضوعة في وسط الغرفة أن تُسقط الأرضيّة. من الأفضل أن لا أجرّب.

للوصول إلى الباب الموالي كان من الأفضل أن ألاصق الجدار. كتمتُ أنفاسي وتقدّمتُ على أطراف أصابعي مثل راقصة كلاسيكيّة متّبعا محيط الغرفة. إنْ انهارت الأرضيّة فسأجد نفسي في الإسطبل بعد سقطة من علوّ أربعة أمتار، ما يكفي لكسر كلّ عظامي.

ولكن لم يقع شيء من هذا.

في الغرفة الموالية التي كانت تقريباً في نفس حجم المطبخ، تهدّمت الأرضيّة بأكملها. لقد انهارت من الجانبيْن، ولم يبقَ منها إلاّ ما يشبه الجسر الضيّق يصل بين الباب الذي أنا فيه والباب المقابل. من العارضات الستّ التي كانت تحمل الأرضيّة بقيت فقط في الوسط عارضتان سليمتان. أمّا الأخرى فقد بقيت منها قطع أكلها السّوس.

لم يكن بإمكاني أن أحاذي الجدران. كان عليّ أن أجتاز ذلك الجسر. ولا أظنّ أنّ العارضتيْن اللّتيْن تحملانه كانتا أفضل حالا من غيرها.

تجمّدتُ تحت دعامة الباب. لا يُمكن أن أعود أدراجي. سيعيبون عليّ ذلك إلى آخر يوم مِنْ حياتي. ولمَ لا ألقي بنفسي إلى تحت؟ تلك الأمتار الأربعة التي كانت تفصلني عن الإسطبل بدت لي فجأة أنّها غير كثيرة. بإمكاني أن أقول لهم إنّ الوصول إلى النافذة مستحيل.

أحياناً يلعب لك.دماغك أدواراً غريبة.

بعد هذه القصّة بعشرة أعوام تقريباً حدث أن ذهبت للتزحلق على الثلج فوق جبل «غران ساسّو». لم يكن اليوم ملائماً. كان الثلج يتساقط. وكان البردُ قطبيّاً. والرّيح تعصف بشدّة تجمّد الأذنيْن. وكان هناك ضباب. كنتُ في التاسعة عشرةَ من عمري ولم أتزحلق إلاّ مرّة واحدة في حياتي. كنتُ مهتاجاً جدّا، لا أعبأ بشيء حتّى وإن قال الجميع إنّ ذلك شديدُ الخَطَر، كنتُ أريد أن أتزحلق. ركبتُ على الكرسيّ النّاقل وأنا ملتفّ من رأسي إلى قدميّ مثل الإسكيمو وانطلقتُ إلى ميدان التزحلق.

كانت الرّيح من الشدّة حتّى أنّ محرّك الكرسيّ كان يتوقّف بصفة أوتوماتيكيّة ثم يشتغل من جديد حينما تهدأ هبّات الرّيح قليلا. كان يتقدّم عشرة أمتار ثمّ يتوقّف ربع ساعة لينطلق من جديد أربعين متراً وليتوقّف مرّة أخرى عشرين دقيقة. هكذا، إلى ما لا نهاية له. كدت أجنّ. كانت الرؤية تكاد تكون منعدمة وبدت لي الكراسي النّاقلة خالية من الرّاكبين. شيئاً فشيئاً فقدتُ الإحساس بأطراف قدميّ، وبأذنيّ وبأطراف أصابعي. كنت أحاول أن أنزع عنّي الثلج الذي تساقط فوقي ولكن عبثاً، كان يتساقط دون ضجّة خفيفا ومتواصلا. وفجأة أحسست أنّي بدأت أستسلم للنّوم وأنّ فكري بدأ يعمل ببطء. جمّعت كلّ قواي وقلت لنفسي إن غلبني النّوم فستكون النهاية. صحت وطلبت النجدة. أجابتني الرّياح. نظرتُ إلى أسفل. كنتُ فوق ميدان التزحلق بالذات، معلّقاً على ارتفاع عشرة أمتار تقريباً. عادت إلى ذهني قصّة ذلك الطيّار، الذي ألقى بنفسه أثناء الحرب، من الطّائرة

المحترقة ولم تنفتح مظلّته ولكنّه لم يمت لأنّ الثّلج اللّين أنقذه. عشرة أمتار ليست بالكثيرة. لو ألقيتُ بنفسي كما ينبغي، دون أن أتصلّب، فلن يقع لي شيء. لم يُصب الطيّار بأي أذى. وكان جزء من دماغي يُعيد عليّ بإصرار «ألقِ بنفسك! ألقِ بنفسك!». رفعت حاجز الأمان وبدأت أتدحرج. ولحسن الحظّ، في تلك اللحظة بالذات، تحرّك الكرسيّ واستعدتُ وعيي. أنزلت الحاجز. كان الارتفاع كبيراً. وأقلُّ ما يُمكن أن يحدث لي هو أن أبقى مُقعداً.

انتابني في تلك الدّار نفسُ الإحساس. كنتُ أريد القفز في الفراغ. ثمّ تذكّرت شيئاً قرأته في كتاب لسلفاتوري يقول إنّ العظاية تتسلّق الجدران لأنّها توزّع ثقلها على كامل الجسم. يتوزّع ثقل الجسم عندها على القوائم وعلى البطن وعلى الذيل بينما يتوزّع لدى البشر على السّاقيْن فحسب، لذا يغرق الإنسان في الرّمال المتحرّكة.

يجب أن أفعل مثل العظاية!

جثوتُ على ركبتيّ وتمدّدتُ ثمّ بدأت أزحف. عند كلّ حركة كانت تتساقط قطعٌ من الجير والحجارة. وكنت أعيد على نفسي: كُنْ خفيفاً، خفيفاً مثل العظاية. كنتُ أحسّ بالعارضات ترتعش، وقضّيت في تلك العمليّة خمس دقائق كاملة ولكنّي وصلت سالماً معافى إلى الجهة المقابلة.

دفعتُ الباب. كان الباب الأخير. وفي طرف القاعة كانت النافذة التي تشرف على الفناء. كان هناك غصن

طويل ممتدّ نحو الدّار. لقد نجحت. هنا أيضاً تهدّمت الأرضيّة، ولكن نصفها فقط انهار وبقي النصّف الآخر قائماً. استعملتُ الطريقة التي كنتُ قد جرّبتها، محاذيا الجدران. كنت أرى تحتي قاعة غارقة في الظلّ، فيها بقايا رماد وعُلب طماطم مقشّرة مفتوحة ولفائف مقرونة فارغة. إِنَّهُ إدليل على أنّ شخصاً ما جاء إلى هنا منذ وقت غير بعيد.

وصلتُ النافذة بدون عراقيل ونظرت إلى أسفل.

كانت هناك ساحة صغيرة محاطة بصفّ من العلّيق استندت عليه من الخلف غابةُ البلّوط. وكان يوجد على الأرض حوض غسيل من الإسمنت انكسر قاعُهُ، وذراعٌ رافعة أكلها الّصدأ وأكداس من الحصى والحجارة المغطّاة باللّبلاب وقارورةُ غاز وحَشِيّة.

كان الغصن الذي أريد تسلّقه قريبا، على أقلّ من متر. ولكنّه ليس بالقرب الكافي لكي أصل إليه دون أن أقْفز. كان غصنا عظيما وملتويا كأنّه أناكُندة، يمتدّ على أكثر من خمسة أمتار. سيتحمّل دون شكّ ثقلي. وعندما أصل إلى نهايته سأجد الطريقة للنزول.

صعدتُ على حافة الشبّاك. رسمتُ علامة الصّليب ثمّ رميتُ بنفسي مفتوح الذّراعيْن مثل شقّ أمازوني. وجدت نفسي منبطحا على بطني فوق الغصن، وحاولت أن أحيطه بذراعيّ لكنّه كان عظيماً. حاولت بساقيّ لكنّني لم أجد ممسكاً. بدأت في الانزلاق، فحاولت التشبّث باللِّحاء.

ثمّ بان لي طريق النجاة. أمامي كان غصن أصغر على بعد بضع عشرات السنتيمترات.

جمّعت ما لديّ من قوّة وبحركة سريعة قبضتُهُ بيديّ الاثنتيْن.

كان غصناً جافّاً وانكسر.

سقطتُ على ظهري وبقيتُ دون حراك مغمض العينيْن وقد تأكّد لدَيَّ أنّ عظم رقبتي انكسر. لم أكن أشعر بأيّ ألم. كنتُ متمدّدًا جامدًا مثل الحجر والغصنُ في يدي. وكنتُ أحاول أن أفهم لماذا لا أشعر بأيّ ألم. لعلّي أصبحت مثل مشلولٍ لا يُحسّ بشيء حتّى لو أطفأتَ على جلده سيجارة مولعة أو رشقت في فخذه شوكة أكل.

فتحتُ عينيّ وبقيتُ أحدّق في مظلّة البلوّط الخضراء الضخمة الممتدّة فوقي وفي لمعان الشّمس بين الأوراق. يجب أرفع رأسي. حاولتُ ذلك. وأخيراً رفعته.

ألقيتُ بذلك الغُصن الأحمق. تحسّست الأرضَ من تحتي واكتشفتُ أنّني فوق شيء ليّن. لقد سقطتُ على الحَشيّة.

ورَأَيْتُنِي من جديد وأنا أهوي وأطير ثمّ أسقط دون أن يحدث لي شيء. كان هناك صوت ضعيف ومخنوق في اللحظة التي لمست فيها الأرض. سمعته. أنا متأكّد من ذلك.

حرّكت ساقيّ واكتشفتُ أنّ تحت الأوراق والأعواد والتّراب كانت صفيحةٌ متموّجة السّطح خضراء، سقفٌ من

البلاستيك الشفّاف، غطّاها أحد كما لو أراد إخفاءها. ثمّ وضع فوقها تلك الحشيّة القديمة.

لقد أنقذني البلاستيك المتموّج: تَعوّج ليتلقّى ثقلي.

هذا يعني أنّه يوجد تحته فراغ.

يُمكن أن يكون مخبأ سريّا أو ممرّا يؤدّي إلى مغارة مليئة بالذهب والأحجار النفيسة.

جثوت على ركبتيّ وزحزحتُ الصفيحة.

كانت ثقيلة، ولكنّني تمكّنت من زحزحتها قليلاً عن مكانها. انبعثت من داخلها عفونة براز فظيعة.

كدت أفقد توازني. وضعتُ يدي على فمي ودفعتُ مرّة أخرى.

لقد سقطتُ فوق حفرة.

كانت مظلمة. ولكنّني كلّما زحزحت الصفيحة أكثر غمرها النّور أكثر.

كانت جوانبها من التراب المحفور بقوّة الفأس. وقُطعت جذور شجرة البلّوط.

تمكّنت من زحزحة الصفيحة أكثر. كانت الحفرة متّسعة بقدر متريْن ويصل عمقها إلى متريْن أو متريْن ونصف.

كانت فارغة.

كلاّ، يوجد شيء.

كُوم من الأثواب المكوَّرة؟

لا...

حيوان؟ كلب؟ كلاّ...

ما هو؟

كان أمردَ...

أبيضَ...

إنّها ساق...

ساق!

قفزت إلى الوراء وكِدت أعثر.

ساق؟

استعدتُّ أنفاسي ثمّ ألقيتُ نظرة سريعة.

إنّها ساق.

أحسستُ بغليان في أذنيّ وبثقل في رأسي وفي ذراعيّ.

كاد يُغمى عليّ.

جلست، وأغمضتُ عينيّ. أسندت جبيني إلى كفّي وتنفّستُ. أريد أن أهرب، أن أعدُوَ للالتحاق بالآخرين. ولكنّني لا أقدر. أريد إلقاء نظرة أخرى.

اقتربتُ وأشرفتُ على الحفرة.

كانت ساقَ طفل. ومِنْ كوم الأثواب البالية كان يبرز مرفقٌ.

في قاع تلك الحُفرة كان يوجدُ طفل صغير.

كان متمدّدا على جنبه ووجهُه متوار بين ساقيه.

كان جامداً لا يتحرّك.

إنّه ميّت.

بقيتُ أحدّق فيه مدّة لا أدري مقدارها. كان هناك أيضاً سطلٌ وقدرٌ.

لعلّه نائم؟

أخذتُ حصاة ورميته بها. أصابته في فخذه. لم يتحرّك. كان ميّتاً، ميّتاً جدّا. سَرت رعشة في ظهري. أخذت حصاة أخرى وضربتُ رقبته. بدا لي أنّه تحرّك. حركة خفيفة من ذراعه.

- أيْن أنت؟ أيْن أنتَ؟ ماذا جرى لك يا ابن الملعونة؟

إنّهم الآخرون! جُمجمة يناديني.

أمسكتُ بالصفيحة وجذبتها إلى أن غطّيتُ الحفرة. ثمّ نثرت فوقها الأوراق والتراب ووضعت فوقها الحشيّة.

-ميكيلي، أيْن أنتَ؟

ابتعدتُ ولكنّي قبل ذلك استدرتُ مرّتين للتأكّد من أنّ كلّ شيء في مكانه.

كنتُ أدير مداس «الخُردة».

وكانت الشمس من خلفي مثل كرة حمراء عظيمة، وعندما غابت أخيراً بين سنابل القمح تركتْ وراءها لوناً بين برتقاليّ وبنفسجيّ.

سألوني عمّا حدث في الدّار، هل كانت عمليّة خَطِرة؟ هل سقطتُ؟ وهل كانت فيها أشياء غريبة؟ وهل إنَّ القفز من على الشجرة كان أمرا عسيراً؟ كان جوابي بنصف كلمات.

وفي نهاية الأمر سئموا من مساءلتي وقرّروا اتّخاذ طريق العودة. كان هناك درب ينطلق من الوادي ويشقّ الحقول القمحيّة اللّون ليصل أخيراً إلى الطريق. أخذنا درّاجاتنا وبدأنا ندير عجلاتها في صمت. كانت جموع من الذباب تطنّ من حولنا.

كنت أنظر إلى ماريا وهي تتبعني على درّاجتها «غراتسييلاّ» بعجلتيْها المتآكلتيْن من فرط السّير على الحجارة، وإلى جُمجمة، أمام الجميع، وبجانبه مُلازمه ريمو، وإلى سلفاتوري الذي كان يسير تارة يمنة وتارة يسرة، وإلى بَربرا فوق درّاجتها «بيانكي» الكبيرة، وكنتُ أفكّر في الطّفل داخل الحفرة.

لن أقول شيئاً لأحد.

ـ الأشياء لِمنْ يعثر عليها قبل الآخرين ـ، هكذا قال جُمجمة.

وهذا يعني أنّ الطّفل داخل الحفرة هو ملكي.

لو ذكرتُ شيئاً لجُمجمة لقال، كعادته دائماً، إنّ الفضل في الاكتشاف يعود إليه ولَقَصّ على مسامع الجميع أنّه هو الذي وجده لأنّه هو الذي قرّر الصعود إلى الهضبة.

ولكن هذه المرّة، لا. أنا الذي تحمّلتُ العقوبة. أنا الذي سقطتُ من الشجرة وأنا الذي عثرتُ عليه.

لم يكن جُمجمة. ولم تكن بربرا. ولم يكن سلفاتوري. الطفل ملكي أنا. إنّه اكتشافي السرّي.

لا أدري إذا كان ما وجدته مخلوقاً حيّاً أم ميّتاً. لعلّ الذّراع لم تتحرّك، وما رأيته كان من تأثير مخيّلتي، أو ربّما هي رعشة جسم ميّت مثلما يحدث للزّنبور الذي يواصل الحركة حتّى إنْ قطعت جسمه إلى نصفيْن بالمقصّ أو مثل الدّجاج الذي يواصل ضرب جناحيه حتّى بعد قطع رأسه.

ولكن ماذا يفعل هناك؟

ـ ماذا سنقول لماما؟

لم أتفطّن إلى أختي التي كانت على درّاجتها بجانبي:

ـ ماذا؟

ـ ماذا سنقول لماما؟

ـ لا أدري.

ـ تخبرها أنتَ بما جرى لنظّاراتي؟

- نعم، ولكن لا تذكري شيئاً عن المكان الذي ذهبنا إليه. لو عرفتْ ذلك لقالت إنّك كسرت نظّاراتك لأنّنا تسلّقنا الهضبة.

- حسناً.

- أقسمي.

- أقسم لك ـ.ثم لثمت سبّابتيْها.

أكوا ترافَرسي هي اليوم ضاحية تابعة لبلديّة لوتشينيانو. في منتصف الثّمانينات، شيّد مهندسٌ معماري صفّين طويليْن من الفيلاّت الصغيرة المصنوعة من الإسمنت المقوّى. كانت عبارة عن مكعّبات ذات نوافذ مستديرة ودرابزين أزرق اللّون وقضبان من الحديد تبرز من السّطح. ثمّ تبع ذلك المتجر الكبير«كوب» والمقهى حيث تُباع السجائر أيضاً. وتشقّ البلدةَ طريقٌ معبّدة ذاتُ ممرّين تمضي مستقيمة كأنّها مهبط طائرات إلى أن تصل إلى لوتشينيانو.

ولكن في سنة 1978، كانت أكوا ترافَرسي صغيرة جدّا تكاد لا تُذكر. كانت بلدة ريفيّةً كما يُمكن أن تسميّها اليوم مجلّة أسفار. .

لا أحد يعرف لماذا أطلِق عليها ذلك الاسم، حتّى العجوز ترونكا يجهل ذلك. لا يوجد بها مـاء[2] ما عدا الماءَ الذي يجلبونه إلينا بالشّاحنة مرّة كلّ أسبوعيْن.

كانت توجد بِهَا الفيلاّ التي يسكنها سلفاتوري والتي كنّا نسمّيها القَصر. وهي دار كبيرة بُنيت في القرن التاسع عشر، طويلة ورماديّة اللون بمدخل كبير من الحجارة وساحة داخليّة زُرعت فيها نخلة. ثمّ أربعة منازل أخرى. ولا أقول أربعة لأعني أنّ المنازل قليلة بل أربعة منازل لا أكثر. أربعة منازل حقيرة من الحجارة والجير، سقوفها مغطّاة بالقرميد ونوافذها صغيرة: منزلنا، ومنزل عائلة جُمجمة، ومنزل عائلة ريمو الذي تتقاسمه مع ترونكا العجوز. كان ترونكا أصمّ ماتت زوجته ويقيم في غرفتيْن تشرفان على الحديقة. ثم منزل بيترو مورا، والد بَربرا. وكانت أنجيلا، أمّها، تدير متجراً صغيراً تبيع فيه الخبز والمقرونة والصابون وحيث يُمكنك استعمال الهاتف.

منزلان من جهة ومنزلان في الجهة المقابلة. وفي الوسط طريق من التراب مليئة بالحُفر. ليست هناك ساحة ولا أزقّة. ولكن يوجد مقعدان تحت تعريشة من العنب الفراولي وحنفيّة بمقفلة لكي لا يُهدر الماء. وحول كلّ هذا حقول من القمح.

---

(2) – اسم البلدة Acqua Traverse والكلمة الأولى تعني «ماء»، كمن يقول «معبر الماء» (المترجم).

والشيء الوحيد الذي حُظِيَ به ذلك المكان المنسيّ من الله والبشر هو لافتة جميلة زرقاء كُتب عليها بالأحرف الغليظة **أكوا ترافَرسي**.

صاحت أختي:

ـ جاء بابا! ـ ثمّ ألقت بالدرّاجة وصعدت السلّم جرياً.

أمام بيتنا كانت تَوَقَّفَتْ شاحنته، «لوبيتّو فيات»، بغطائها الأخضر.

كان أبي في ذلك الوقت يشتغل سائق شاحنة ويبقى خارج البيت أسابيع كثيرة. كان يتسلّم البضاعة ويحملها إلى الشمال.

وعدني أن يَحملني معه مرّة إلى الشمال. لا أستطيع تصوّر هذا الشمال. كنتُ أعرف أنّ الشّمال غنيّ وأنّ الجنوب فقير. وكنّا نحن فقراء. كانت أمّي تقول إنّه لو تمادى أبي في العمل بذلك النسق فسنترك سريعاً وضعيّة الفقراء وسنُصبح من الموسرين. لذا يجب أنْ لا نتذمّر لغياب أبي. إنّه يفعل ذلك من أجلنا.

دخلت المنزلَ وأنا ألهث.

كان أبي جالسا إلى المائدة مرتديا تبّانا وقميصا داخليّاً. كانت أمامه قارورة الخمر الأحمر وبين شفتيْه سيجارة بالمبسم وأختي جالسة على أحد فخذيْه.

كانت أمّي تطبخ الطعامَ مديرة لنا ظهرها. وكانت تتعالى رائحةُ بصل وصلصة طماطم. وكان التلفاز ـ «غرنديق» قديم باللّونين الأبيض والأسود الذي جلبه أبي قبل ذلك ببضعة أشهر يعمل ومروحة الهواء تطنّ.

ـ ميكيلي، أين ذهبتما كامل النهّار؟ كادت أمّكما تُجنّ. ألا تفكّر في هذه المرأة المسكينة؟ يكفيها أن تنتظر رجوع زوجها ولا يجب أن تنتظركما أيضاً؟ ماذا حدث لنظّارات أختك؟

لم يكن غاضباً بحقّ. عندما يغضب غضبًا حقيقيّا تبرز عيناه من حدقتيْه مثل الضفدع. كان سعيداً بوجوده في المنزل.

نظرتْ إليّ أختي.

ـ صنعنا كوخاً صغيراً على حافة الجدول أخرجتُ النظّارات من جيبي فتكسّرت.

نفخ أبي سحابة من الدّخان:

ـ اقترب. أَرِني النظّارات.

كان أبي رجلاً قصير القامة هزيلا وعصبيّاً. عندما يجلس لقيادة شاحنته يكاد يختفي وراء المقود. كان يلمِّع شعرَه الأسود وكانت لحيته خشنة ومبيضّة فوق الذقّن، وتفوح منه رائحة سجائر «ناتسيونالي» وعطر الكولونيا.

ناولته النظّارات.

- إنّها صالحة لسلّة الفضلات ـ.ثمّ وضعها على الطاولة وقال:

- لا نظّارات بعد اليوم.

تراشقنا النظرات أنا وأختي.

سألت ماريا وهي منشغلة:

- كيف سأفعل؟

- تبقين بدون نظارات. هكذا تتعلّمين.

وجمت أختي.

فتدخّلتُ قائلاً:

- لا يُمكن. إنّها لا ترى.

- لا يهمّني.

- ولكن...

- ولكن ماذا؟- ثمّ قال لأمّي:

- تِريزا، أَعطِني تلك العلبةَ فوق الصّوان.

أعطته أمّي العلبة. فتحها أبي وأخرج منها حافظة زرقاء صلبة ومغلّفة بالمخمل.

- خُذي.

فتحت ماريا الحافظة ووجدت بداخلها نظّارات ذات دائرة من البلاستيك البنيّ اللون.

ـ جرّبيها.

وضعت ماريا النظّارات فوق عينيْها وهي تداعب الحافظة.

سألتها أمّي:

ـ هل أعجبتكِ؟

ـ كثيراً. والحافظة جميلة جدّاـ.ثمّ ذهبت لتَرَى نفسها في المرآة.

صبّ بابا لنفسه كأسا آخر من الخمر.

ـ لو كسرتِ هذه أيضاً فإنّي سأتركك دُونَ نظّارات، هل فهمتِ؟ ـ ثمّ أمسكني من ذراعي:

ـ أَرِني عضلاتك.

ثنيْتُ ذراعي وتصلّبتُ.

تحسّس عضلة ذراعي. ـ لا يبدو لي أنّك تحسّنت. هل قمتَ بالتمارين؟

ـ نعم.

كنت أكره التمارين. كان أبي يريدني أن أقوم بها لأنّني حسب قوله كسيح.

فقالت ماريا:

ـ يكذب! لم يقم بالتمارين.

ـ أقوم بها من حين إلى آخر. دائماً تقريباً.

ـ اجلس هنا ـ. جلستُ أنا أيضاً على ركبتيْه وحاولتُ تقبيله. ـ لا تقبّلني. كلُّك أوساخ. إذا أردت أن تقبّل أباك فعليك أن تغتسل. تِريزا، ماذا سنفعل بهما، هل نرسلهما إلى الفراش دون عشاء؟

كانت على فمه ابتسامة جميلة وكانت أسنانه ناصعة مستوية. لم نَرِث عنه لا أنا ولا أختي أسنانه.

أجابت أمّي دون أن تلتفت إلينا.

ـ يستحقّان ذلك! لم أعد أتحمّل هذين الطفليْن ـ. كانت غاضبة بحقّ.

ـ عندي فكرة. إنْ أرادا العشاء والهديّة التي جلبتها لهما على ميكيلي أنْ يغلبني في مسابقة الذّراع الحديدي، وإلاّ إلى الفراش دون عشاء.

لقد جلب إلينا هديّة!

ـ أنت تمزح... تمزح دائماً... ـ كانت أمّي سعيدة بعودة أبي إلى البيت. عندما يُسافر كانت تُحسّ بأوجاع في معدتها، وكلّما طال غيابه كلّما قلّ كلامها. بعد شهر تصمتُ تماماً.

قالت ماريا:

ـ ميكيلي لا يقدر على التغلّب عليك. ليست مسابقة عادلة.

ـ ميكيلي، اظهر لأختك عَلام أنت قادر. قف مستقيماً وافتح ساقيك. لو وقفتَ معوجّاً فإنّك ستخسر فوراً ولا تحصل على الهديّة.

اتّخذت الوضعيّة اللازمة وشددت على أسناني وعلى يد أبي وبدأت أدفع. لا فائدة. لا تتحرّك.

ـ هيّا! ماذا عندك عوضا عن العضلات، قطعة جبن؟ إنّك أضعف من ذبابة صغيرة! أخرج القوّة التي بداخلك، هيّا باسم المسيح!

فتمتمتُ:

ـ لا أقدر.

كان كما لو أردت أن أثني قضيبا من الحديد.

ـ إنّك أنثى، ياميكيلي. ماريا، ساعديه أنتِ، هيّا!

صعدت أختي فوق الطاولة واستطعنا نحن الاثنيْن، وقد شددنا على أسناننا وتنفّسنا بأنفيْنا، أن نثنيَ ذِراعه.

-قفزت ماريا من الطاولة صائحة:

ـ الهديّة! أَعطِنا الهديّة!

أخذ بابا علبة من الكرتونِ مليئة بأوراق الصّحف المكوّرة. بداخلها كانت الهديّة.

ـ إنّها سفينة!

ففسّر لي قائلاً:

- ليست سفينة، إنّها جُنْدُول.

- ما هو الجندول؟

- الجندول قارب يُستعمل في مدينة البندقيّة ويعمل بمجداف واحد.

فسألته أختي:

- ما هو المجداف؟

- عصا طويلة تُستعمل لتحريك القارب.

كان قارباً جميلا جدّا من البلاستيك الأسود مع قطعتيْن فضيّتين في كلا الطرفيْن ودمية صغيرة بقميص مزوّق بالأبيض والأحمر وقبّعة من القصب.

إلاّ أنّنا فوجئنا بأنّه لا يمكننا أخذها. فهي توضع فوق التلفاز. وبينها وبين التلفاز يُوضع سماط صغير أبيض، كما لو كان بحيرة. لم تكن لعبة. كانت تُحفة نفيسة. تُحفة مجعولة للزينة.

سألتنا أمّي:

- من يذهب لجلب الماء؟ سنفطر بعد قليل.

كان أبي أمام التلفاز يتابع الأخبار.

وكنتُ أنا أُعِدُّ المائدة:

- جاء دور ماريا. يوم أمس ذهبتُ أنا لجلب الماء.

كانت ماريا جالسة على المتَّكَأِ تلعبُ بدميتيْها. ـ لا أريد، اذهب أنتَ.

لا أحد منّا كان يحبّ الذهاب إلى الحنفيّة لجلب الماء لذا كنّا نفعل ذلك بالتناوب في كلّ يوم يذهب واحد منّا. وها قدْ عاد أبي. وهذا يعني بالنسبة إلى أختي أنّ القواعد تغيّرت.

حرّكت سبّابتي بالنفي:

ـ كلاّ، لقد جاء دوركِ.

شبكت أختي ذراعيها قائلة:

ـ كلاّ، لن أذهب.

ـ لماذا؟

ـ أحسّ بصداع في رأسي.

هكذا في كلّ مرّة. حينما لا تريد فعل شيء ما تقول إنّ صداعا يمنعها. إنّه عذرها المفضّل.

ـ هذا كذب، ليس عندك صداع، أنت كذّابة.

ـ بل هي الحقيقة!- ثمّ أخذت تدلك جبينها وعلى وجهها علاماتُ الوجع.

كنت أودّ لو لوِيْتُ عنقها:

ـ جاء دورها! عليها هي أن تذهب!

ضاقت أمّي ذرعاً بالأمر فأخذت الإبريق ووضعته بين يديّ. ـ اذهب أنت، ياميكيلي، فأنت أكبر منها. ودون نقاش ـ.قالت ذلك كما لو كان شيئاً عاديا تافهاً.

ارتسمت على شفتيْ أختي ابتسامة ظفر. ـ هل رأيت؟

ـ هذا ظلم. لقد ذهبتُ أنا بالأمس. لن أذهب.

فقالت أمّي بتلك النّبرة الحادّة التي تنذر بهبوب عاصفة غضبها:

ـ اسمع الكلام يا ميكيلي.

ـ كلاّ ـ.وذهبتُ أشكو الأمر إلى أبي. ـ بابا، ليس دوري. لقد ذهبتُ بالأمس.

أدار وجهه عن التلفاز ونظر إليّ كما لو كان يراني لأوّل مرّة ثمّ مسح فمه وقال:

ـ هل تعرف لمسة الجندي؟

ـ لا، ما هي؟

ـ هل تعرف كيف يفعل الجنود أثناء الحرب لاختيار من يذهب للقيام بالمهمّات الخطِرة؟ ـ ثمّ أخرج من جيبه علبة ثقاب وأراها لي.

ـ لا، لا أعرف.

ـ نأخذ ثلاثة أعواد ثقاب، ـ ثمّ أخرجها من العلبة، ـ واحد لك، والثاني لي والثالث لأختك. ثمّ ننزع من أحد الأعواد طرف الثقاب ـ.وكسّر طرفَ أحد الأعواد ثمّ أغلق يده عليها

تاركا فقط أطراف الخشب متساوية. ـ منْ يسحبُ العود الذي كُسر طرفهُ يذهبُ لجلب الماء. هيّا، اسحب واحدا منها.

سحبتُ عودا كامل الطرفيْن وقفزت من الفرحة.

ـ ماريا، الآن جاء دوركِ. هيّا.

سحبت أختي عودا كان هو الآخر كاملاً وصفّقت بيديها.

ـ أظنّ أنّ الثالث من نصيبي، ـ ثمّ سحب أبي العود المنقوص.

انفجرنا أنا وماريا ضاحكيْن، وصحنا:

ـ من نصيبك! من نصيبك! خسرت! خسرت! اذهب لجلب الماء!

قام أبي من مقعده وهو ذليل بعض الشيء:

ـ عند عودتي أريد أن تكونا قد اغتسلتما. واضح؟

فسألته أمّي:

ـ هل تريد أن أذهب أنا؟ أنت متعب.

ـ كلاّ، لا تستطيعين. إنّها مهمّة خطِرة. ثمّ يجب أن آخذ السجائر من الشاحنة ـ وخرج حاملا في يده الإبريق.

اغتسلنا ثمّ أكلنا المقرونة بالطماطم وفطيرة بالبيض. وبعد أن قبّلنا أبي وأمّي ذهبنا إلى الفراش دون أن نلحّ حتّى على مشاهدة التلفزيون.

أفقتُ وسط الليل لأنّني حلمتُ حلما مخيفا.

كان يسوع يقول للعازر «اِنْهَضْ وسِرْ» ولكنّ لعازر لم يَنهض. فأعاد يسوع أمره «انهض وسِرْ». إلاّ أنّه لم تكن للعازر أيّة نيّة في العودة إلى الحياة. ويسوع، الذي كان يشبه سفيرينو سائق شاحنة الماء، بدأ يتملّكه الغضب. كان ذلك شيئاً مهيناً. عندما يأمرك يسوع بأن تنهض وتسير يجب أن تفعل ذلك، خصوصاً إذا كنت ميّتاً. ولكنّ لعازر بقي ممدوداً يابساً. عندئذ أخذ يسوع يهزّه كما لو كان دمية إلى أن قام لعازر وارتمى على عنق يسوع فعضّه. وقال بشفتيْه الملطّختيْن بالدّم إنّه يجب ترك الأموات في حالهم.

فتحتُ عينيّ وكلّي عرق.

كانت الحرارة في تلك اللّيالي من الشدّة بحيث لو حدث لسوء الحظّ أن استفقتَ فمن الصّعب جدّا أن يعود إليك النّوم. كانت الغرفة التي أنام فيها مع أختي ضيّقة وطويلة، وهي في الواقع جزء من الرّواق وُضع فيه فراشانا على طول الحائط، الواحد تلو الآخر، تحت النّافذة. من ناحية كان الجدار، ومن الناحية الأخرى حوالي ثلاثين سنتمتراً للمرور، وما عدا ذلك كانت الغرفة بيضاء خالية من الأثاث.

في الشّتاء كان البرد فيها قارصا وفي الصّيف يصعب التنفّس لأنّ الحرارة التي تخزنها الجدران والسّقف أثناء النّهار تخرج أثناء اللّيل وتصبح المخدّة وحشيةُ الصّوف التي ننام فوقها كما لو خَرَجَتا من.الفرن.

كنتُ من فراشي أرى وراء قدميّ رأسَ ماريا الدّاكن. كانت تنام بنظّاراتها، مستلقية على ظهرها، مرتخية تماماً، مفتوحة الذراعيْن والسّاقيْن.

كانت تقول إنّها لو أفاقت بدون نظّاراتها فسيتملّكها الذُّعر. كانت أمّي في العادة تنزع عنها النظّارات ما إن تغرق في النوم لأنّها تترك آثارها على وجهها.

على حافة النّافذة كان مبيد النّاموس يبعث بدخان كثيف وسامّ يقتل النّاموس في الحين ويضرّ دون شكّ بصحّتنا. ولكن لم يكن أحد يهتمّ في ذلك الوقت بمثل هذه المسائل.

إلى جانب غرفتنا كانت غرفة والديْنا. كنت أسمع شخير أبي وأزيز المروحة وهي تدور. كنت أسمع أختي وهي تتنفّس بصعوبة ونداءَ بومة يتكرّر بنسق مملّ وأزيزَ الثلاّجة بينما تصل إلى خياشيمي عفونة المرحاض.

قمتُ على ركبتيّ فوق الفراش واتّكأت على حافة النّافذة لأَتَنَسَّمَ قليلا من الهواء.

كان البدر في تمامه عالياً ومشعّاً. كنتُ أرى بعيداً، كما لو كان نهاراً. وكانت الحقول تبدو متألّقة. وكان الهواء ساكنا والمنازل مظلمة صامتة.

ولعلّي كنتُ الوحيدَ المستيقظ في كلّ أكوا ترافَرسي. وكان ذلك يبدو لي شيئاً جميلا.

وكان الطّفل في الحفرة.

كنتُ أتخيّله ميّتا في التراب. تسري فوقه الخنافسُ والبقُّ وذواتُ الأربعين. تسري فوق جلده الفارغ من الدّم. وتخرج الديدان من شفتيه الشاحبتيْن. وتشبه عيناه بيضتيْن مسلوقتيْن.

إنّني لم أر أبداً ميّتاً، ما عدا جدّتي جيوفانّا. كانت على فراشها، بيديها المتشابكتيْن وثوبها الأسود وحذائها. كان وجهها يبدو مصنوعا من المطّاط، مصفرّا مثل الشّمع. قال أبي إنّه يجب عليّ أن أقبّلها. كان الجميع يبكون، ودفعني أبي نحوها. وضعت فمي على خدّها البارد. كانت رائحتها سُكريّة ومقزّزة مختلطة برائحة الشموع. بعد ذلك غسلت فمي بالصّابون.

وإذا كان الطّفل حيّاً؟

وإذا كان يريد الخروج ويخدش بأظافره جوانب الحفرة ويطلب النجدة؟ وإذا اختطفه الغول؟

انحنيْتُ نحو الخارج ورأيت الهضبة في قاع السّهل. كانت تبدو وكأنّها ظهرت من عدم وارتسمت مثل جزيرة خرجت من البحر مرتفعة جدّا وسوداء بسرّها الذي كان ينتظرني.

استفاقت ماريا:

- ميكيلي، أنا عطشانة...، أعطني كأسا من الماء.
- كانت تتكلّم مغمضة العينين وتمرّر لسانها على شفتيْها المتعطّشتيْن.

- انتظري...، - ثمّ نهضتُ.

لم أكن أريد فتح الباب. وإذا كانت جدّتي جيوفانا جالسة إلى الطاولة ومعها الطفل؟ وتقول لي، هيّا، اجلس معنا هنا، لنأكل معاً؟ وفي الصّحن توجد الدجاجة المرشوقة؟

لم يكن هناك أحد. وكان شعاع من القمر يسقط على الأريكة القديمة المزدانة بالزّهوروعلى الصّوان بأطباقه النّاصعة وعلى الأرضيّة من الجليز الأبيض والأسود وينفذ إلى غرفة والديّ، متسلّقا الفراش. رأيت أقدامهما متقاطعة. فتحتُ الثلاّجة وأخرجتُ الإبريق بالماء البارد. شربتُ ثّم ملأتُ كأسا لأختي فَشربته دفعة واحدة. ـ شكرا.

ـ نامي الآن.

ـ لماذا طَلَبِتَ العقوبة عوضاً عن بَرْبَرا؟

ـ لست أدري...

ـ لأنّك لا تريدها أن تنزع سَليبها؟

ـ لا.

ـ وإذا كان عليّ أنا أن أفعل ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ أن أخلع سليبي. هل تفعل معي كما فعلتَ معها؟

ـ نعم.

ـ ليلتك سعيدة، إذاً. سأنزع نظّاراتي،- نزعت نظّاراتها ووضَعَتْها في الحافظة ثمّ ضمّت إليها مخدّتها.

ـ ليلتكِ سعيدة.

بقيتُ طويلا أحدّق في السّقف قبل أن أستسلم من جديد للنّوم.

لن يرحل أبي.

لقد عاد ليبقى. قال لأمّي إنّه لا يريد أن يرى الطريق السيارة مدّة طويلة من الزمن وإنّه سيعتني بنا.

وقد يصطحبنا يوماً إلى البحر للاستحمام.

2

أفقتُ وَقَدْ كان أبي وأمّي لا يزالان نائميْن. التهمتُ الحليب والخبز بالمعجون ثمّ خرجت وأخذت درّاجتي.

- إلى أين أنت ذاهب؟

كانت ماريا في سليب على درج المنزل تنظر إليّ.

- سأقوم بجولة.

- أين؟

- لست أدري.

- أريد أن أذهب معك.

- لا.

- أنا أعرف أين ستذهب... ستذهب إلى الجبل.

- لا، لن أذهب إلى الجبل. وإن سألك أبي أو أمّي عنّي قولي لهما إنّي ذهبتُ لأقوم بجولة وسأعود على الفور.

كان يوما آخر ملتهباً.

على السّاعة الثامنة كانت الشمس لا تزال منخفضة، ولكنّها تحرق السّهل. كنتُ أقطع الطريق نفسه الذي قطعته في العشيّة الماضية دون التفكير في شيء. كنتُ أدير مداس الدرّاجة وسط الغبار والحشرات وأحاول الوصول سريعا. سَلَكْتُ الطريق التي تشقّ الحقول وتحاذي الهضبة لتصل إلى الوادي. من حين إلى آخر، كانت بعض العقاعق تطير من وسط القمح بذيلها الأبيض والأسود. كانت تتلاحق وتتشابك وتتقاذف بالشتائم بصوت حادّ بينما كان صقر يحلّق دون أن يحرّك جناحيه، تدفعه التيّارات السّاخنة. ورأيت أيضاً أرنباً أحمر بأذنيْه الطويلتيْن وهو يمرّ أمامي كالسّهم. كنتُ أتقدّم بصعوبة وأنا أدفع مداس الدرّاجة. وكانت العجلتان تنزلقان فوق الحصى والأرض القاحلة. وكلّما اقتربتُ من الدّار زاد حجم الهضبة الصفراء أمامي وأحسستُ بثقل يضغط على صدري ويمنعني من التنفّس.

وإذا وصلتُ إلى قمّة الهضبة ووجدت فيها السّاحرات أو الغول؟

كنتُ أعرف أنّ السّاحرات يجتمعن ليلاً في الديار المهجورة ويُقِمْنَ الحفلات. وإذا شاركتهنّ الحفلة أصبَحْتَ مجنوناً، وكنتُ أعرف أنّ الغول يأكل الأطفال الصّغار.

يجب أن أكون يقظاً. لو أخذني الغول فسوف يُلقي بي في حفرة وسيأكلني قطعة بعد قطعة. يبدأ بالذّراع ثمّ بالسّاق وهكذا دواليك. ولن يعرف أحد ما حصل لي. سيبكي والداي من القنوط وسيقول الجميع «مسكين ميكيلي، لقد

كان طفلاً طيّبا». وستأتي عمّاتي وخالاتي وابنة عمّي إفيلينا، في السيّارة «جيوليتّا» الزرقاء. ولن يبكيَ جُمجمة ولا بَربرا. أمّا أختي وسلفاتوري فسيبكيان.

لا أريد أن أموت حتّى وإن كنتُ أودّ السّير في جنازتي.

ما كان عليّ أن أتسلّق الهضبة. هل صرتُ مجنوناً؟

أدرت عجلتيْ الدرّاجة واتّجهتُ نحو المنزل. وبعد مئة متر تقريباً ضغطتُ على الفرامل.

لو كان تايجر جاك مكاني ماذا سيفعل؟

لن يعود إلى الوراء حتّى لو أمره بذلك مانيتو شخصيّاً.

تايجر جاك.

هو ذا رجلٌ يُمكن فعلا الاعتماد عليه. تايجر جاك، الصديق الهندي حميم تاكس ويلّر[3].

وتايجر جاك سيتسلّق تلك الهضبة حتّى ولو كان فيها مؤتمر دوليّ لجميع ساحرات الكرة الأرضيّة وقطّاع الطرق والغِيلان لأنّه هنديّ نفاخو[4] ولأنّه جَسور لا تراه ولا تسمعه، مثل النّمر، ويعرف كيف يتسلّق ويعرف كيف ينتظر ثمّ يهاجم الأعداء بخنجره.

---

(3) – Tiger Jack, Manitù, Tex Willer، جميعها شخصيّات رسوم متحرّكة كان الأطفال مغرمين بها في السبعينات (المترجم).

(4) – Navajo إحدى قبائل الهنود الحُمر المعروفة في أمريكا (المترجم).

أنا تايجر جاك، بل وأفضل من ذلك، أنا الابن الإيطالي لتايجر. هكذا ردّدت في نفسي.

ولكن يا للخسارة: ليس عندي خنجر أو قوس أو بندقية «ونشستر».

أخفيتُ الدرّاجة مثلما يفعل تايجر مع جواده ودخلت وسط سنابل القمح وزحفت على أربع قوائم إلى أن أحسستُ بساقيّ ميبّستيْن مثل قطعتيْن من الخشب وبدأ ذراعاي يؤلمانني. عند ذلك بدأت أقفز مثل الحجلة ملتفتاً يمينا وشمالاً.

عندما وصلت الوادي بقيتُ بضع دقائق أسترجع أنفاسي ملتصقاً بجذع شجرة. ثمّ مررتُ من شجرة إلى أخرى مثلما يفعل هنديّ «سيوكس»[5]، مُرهفا السّمع لالتقاط أدنى صوت أو ضجّة تثير الرّيبة. ولكنّي كنتُ أسمع فقط نبض الدّم يملأ رأسي.

ومن وراء أجمة عاينتُ الدّار المهجورة.

كان الصّمت تامّا والهدوء شاملاً. لا يبدو أنّ شيئاً تغيّر. إنْ كانت السّاحرات قد جئن فقد تركن كلّ شيء على حاله.

انسللتُ بين أجمات العلّيق ووجدتُ نفسي في السّاحة.

تحتَ الصفيحة والحشيّة كانت توجد الحفرة.

لم يكن حلماً.

---

(5) – Sioux، إحدى قبائل الهنود الحُمر المشهورة في أمريكا (المترجم).

كنتُ لا أرى جيّدا مَا بداخلها. كانت مظلمة مليئة بالذّباب تخرج منها رائحة كريهة جدّا.

جثوتُ على حافة الحفرة.

ـ هل أنت حيّ؟

لا شيء.

ـ هل أنتَ حيّ؟ هل تسمعني؟

انتظرتُ ثمّ أخذت حصاة وقذفتها. أصابته في قدمه. قدمٌ هزيل ونحيف مسودّ الأصابع. قدمٌ لم يتحرّك قيد أنملة.

كان ميّتا. ولن ينهض ولو أمره بذلك يسوع نفسُه.

اقشعرّ بَدَني.

لم تُحدث فيّ الكلاب والقطط أبداً ذلك الأثر. الوبر يخفي الموت. أمّا تلك الجثّة البيضاء، بذلك الذراع الملقى جانباً، والرأس المتّكئ على جدار الحفرة، فكانتْ شيئاً يثير الاشمئزاز. لم يكن هناك دم، لا شيء إلاّ جسم دونَ حياة في تلك الحفرة الموحشة.

لم يعد فيه شيء من البشر.

يجب أن أرى وجهه. الوجه هو أهمّ شيء. من الوجه يُمكن أن أفهم كلّ شيء.

ولكنّ النزول داخل الحفرة كان يُخيفني. بإمكاني أن أقلبه بواسطة عصا غليظة. يجب أن أجد عصا طويلة. ذهبتُ إلى الإسطبل فَوجدت عمودا ولكنّه كان قصيراً. رجعتُ

إلى الوراء. كان هناك باب صغير يفتح على الفناء وكان مغلقاً بمفتاح. حاولت أن أدفعه لكنّه على قِدمه صَمد. فوق الباب كانت نافذة صغيرة. تسلّقتُ معتمدا على قائمتيْ الباب ونفذتُ إلى الداخل. كان يكفي أن أزن كيلوغراميْن زائديْن أو أن يكون لي إستُ بَربرا ليتعذّر عليّ المرور.

وجدتُ نفسي في الغرفة التي رأيتها وأنا أعبر الجسر. كانت هناك لفائفُ مقرونة وعلبُ طماطم مفتوحة وقواريرُ جِعة فارغة ثمّ بقايا نار وصُحف وحَشيّة وصفيحة مليئة بالماء وسلّة. عاودني الشعور الذي أحسستُ به بالأمس، وهو أنّ أحدا يأتي إلى هنا. لم تكن تلك الغرفة مهجورة مثل بقيّة الدّار.

فوق غطاء رماديّ توجد علبة كبيرة وبداخلها وجدتُ حبلا ينتهي بحديد معقوف.

فكّرت أنّه بإمكاني استعماله للنزول داخل الحفرة.

أخذتُ الحبل ورميته من النافذة ثمّ خرجتُ.

كانت توجد على الأرض ذراعُ رافعة قديمة. ربطتُ فيها الحبل، ولكنّني خشيتُ أن تنفكّ عقدة الرّباط فأبقى داخل الحفرة صحبة الميّت. عقدتُ الحبل ثلاث مرّات مثلما يفعل أبي عندما يربط الغطاء فوق الشاحنة وجذبتُ بكلّ قواي. لا خوف من أن ينفكّ. عند ذلك رميتُ الحبل في الحفرة.

ـ أنا لا أخاف من شيءـ، هكذا همستُ لنفسي لأتشجّع، ولكنّ ساقيّ كانتا لا تحملانني وكان صوتٌ في رأسي يقول لي لا تنزل.

قلت في نفسي إنّ الأموات لا يفعلون شيئاً. رسمتُ علامة الصَّليب ونزلتُ.

كان البرد داخل الحفرة أشدّ.

وكان جلد الميّت متّسخا وملطّخا بالوحل والبراز. كان عارياً، في طول قامتي، ولكن أكثر هزالاً. كان جلداً على عظم، بارز الضّلوع، وكان له تقريباً مثل سنّي.

لمستُ يده بطرف قدمي لكنّها بقيت دون حراك. رفعتُ الغطاء الذي كان يحجب ساقيه. كان عرقوبُه الأيمن مشدودا بسلسلة غليظة مغلقة بقفل. وكانت جلدته مسلوخة وردِيّة اللّون، ينزف من لحمها سائل شفّاف كثيف يسيل فوق حلقات السلسلة المتآكلة بالصَّدإِ والمشدودة إلى حلقة مغروسة في الأرض.

كنتُ أريد رؤية وجهه. ولكنّني لم أكن أرغبُ في لمس رأسه. كان ذلك شيئاً يخيفني.

في نهاية الأمر، وبشيء من التردّد، مددتُ يدي وأمسكتُ بإصبعيْن طرف الغطاء. وبينما كنت أحاول الكشف عن وجهه ثنى الميّت ساقه.

تيبّست قبضتاي وانفغر فمي وعصر الرّعبُ خصيتيّ بقبضة من جليد.

ثمّ رفع الميّت صدره كما لو كان حيّا وبعينيْن مغمضتيْن مدّ ذراعه نحوي.

وقف شعري فوق رأسي. أطلقتُ صرخة وقفزتُ إلى الوراء فتعثرتُ في السّطل وسال البراز في كلّ النواحي. وأخيراً وجدتُني ملقًى على ظهري وأنا أصرخ.

والميّت بدأ يصرخ أيضاً.

تخبّطت في البراز. وبقفزة يائس أمسكتُ أخيراً بالحبل وخرجت من تلك الحفرة مثل نحلةً مجنونة.

انطلقتُ على درّاجتي بين الحُفر والقنوات مجازفا بكسر عظم رقبتي، ولكن دون أن أتوقّف. كان قلبي يكاد ينفجر في صدري وكانت رئتاي تحرقانني. اصطدمت الدرّاجةُ بحدبة ووجدتُ نفسي طائرا في الهواء. ثمّ حطّت الدرّاجة على الأرض. ولكي لا أسقط جررتُ قدمي على الأرض وشددتُ على الفرامل، إلاّ أنّ ذلك كان أسوأ إذ تسمرّت العجلة الأماميّة وانزلقتُ في الخندق بجانب الطريق. استقمتُ واقفا مرتعش السّاقين وتمعّنتُ في نفسي. انسلختْ جلدة ركبتي حتّى الدّم واتّسخ قميصي بالبراز وتقطّع شريط الجلد الذي كان يربط نعلي.

تنفّسْ. هكذا قلتُ لنفسي.

تنفّستُ وأحسستُ بقلبي يهدأ وبأنفاسي تصبح عاديّة. وفجأة شعرتُ بحاجة ملحّة إلى النوم. تمدّدتُ على الأرض وأغمضتُ عينيّ. تحت جفنيّ كان كلّ شيء أحمر. كان الخوف لا يزال متمكّنا منّي، ولكنّه كان مثل حرق في معدتي. وكانت الشمس تدفئ ذراعيّ المثلجيْن والزيزان تملأ أذنيّ بصريرها. وكانت ركبتي تنبض. لمّا فتحتُ عينيّ كان جمع من النملُ الكبير الأسود يسري فوق جسمي.

كم مضى من الوقت وأنا نائم؟ قد تكون مرّت خمس دقائق أو ساعتان.

امتطيتُ الدرّاجة واتّجهتُ نحو المنزل. وبينما كنتُ أدير المداس كانت تعاودني رؤية الطفل الميّت وهو ينهض ويمدّ يده نحوي. كانت صورة ذلك الوجه المحفور وتلك العينيْن المغمضتيْن وذلك الفم الفاغر تلاحقني.

كان يبدو الآن مثل حلم. مثل كابوس فقد قواه.

كان حيّاً. إنّه تظاهر بالموت. لماذا؟

ربّما كان مريضا أو لعلّه وحش.

أو إنسان ذئب.

في الليل يتحوّل إلى ذئب. ويشدّونه إلى تلك السلسلة لأنّه خَطِرٌ. رأيتُ في التلفزيون شريطا عن رجل يتحوّل في الليالي المُقمرة إلى ذئب ويهاجم الناس. فأعدّ الفلاحون فخّا أوقعوه فيه ثمّ أطلق عليه أحد الصيّادين النّار فمات الذئب وعاد إنساناً. واكتشفوا أنّه الصّيدليّ. وكان الصيّاد ابنه.

كانوا يحبسون ذلك الطفل مشدودا إلى السّلاسل تحت صفيحة مغطّاة بالتراب لكي لا يتعرّض لأشعّة القمر.

لا يُوجد علاج للإنسان الذئب. ولقتله يجب استعمالُ رصاصة مصنوعة من الفضّة.

ولكنّ الإنسان الذئب غير موجود.

«ميكيلي، كُفّ عن الحديث عن هذه الوحوش. الوحوش غير موجودة. الأشباح والإنسان الذئب والسّاحرات جميعُها خرافات لتخويف الأغبياء مثلك. ينبغي أن تخاف من العباد لا من الوحوش». هذا ما قال لي أبي ذات يوم عندما سألته إن كانت الوحوش تستطيع التنفّس تحت الماء.

ولكن، إنْ أخفاه أحد في تلك الحفرة فلا بدّ من سبب.

سيشرح لي أبي كلّ شيء.

بابا! بابا... دفعت الباب واندفعت إلى الداخل. ـ بابا! أريد أن أقول لك... ـ ولكنّ الكلمات ماتت بين شفتيّ.

كان جالسا على الكرسي والجريدةُ بين يديه وهو ينظر إليّ بعينيْ ضفدع، بأفظع عينيْ ضفدع رأيتهما منذ ذلك اليوم الذي شربتُ فيه ماء لورد[6] معتقدا أنّه ماء معدنيّ. أطفأ السيجارة في فنجان القهوة.

---

(6) – ماء مقدّس ونفيس يُجلب من مدينة لورد، مثل ماء زمزم عند المسلمين (المترجم).

كانت أمي جالسة على الأريكة تخيط. رفعتْ رأسها ثمّ خفضته.

جذب أبي نفساً طويلاً بأنفه ثمّ قال:

- أين كنت طول اليوم؟ - ونظر إليّ من أعلى إلى أسفل. - هل رأيتَ نفسك؟ أين تمرّغت هكذا؟ - وارتسم التقزّز على وجهه. - في البراز؟ رائحتك مثل الخنزير! وقطعتَ أيضاً نعليْك! - ونظر إلى ساعته. - هل تعرف كم السّاعة الآن؟

بقيتُ صامتا.

- سأقول لك أنا كم السّاعة. الثالثة وعشرون دقيقة. لم نَرَ وجهك ساعة الغداء. لا أحد كان يعرف أين كنت. ذهبت للبحث عنك حتّى في لوتشينيانو. نجوتَ بالأمس من العقوبة. أمّا اليوم فلا.

عندما يغضب أبي بتلك الصّفة لا يصيح بل يتحدّث بصوت منخفض. وكان ذلك يُخيفني خوفا شديداً. وحتّى اليوم، لا أحتمل الأشخاص الذين لا يطلقون عنان غضبهم.

أشار إلى الباب قائلاً:

- إذا كنت تريد أن تفعل ما تريد فمن الأفضل أن تترك هذا البيت. لا حاجة لي بك. اذهب وشأنك.

- انتظر. أريد أن أقول لك شيئاً.

- لن تقول لي أيّ شيء. ستخرج حالا من ذلك الباب.

توسّلت إليه:

ـ بابا، إنّها مسألة هامّة...

ـ إن لم تخرج في ظرف ثلاث ثوان سأقوم من هذا الكرسي وسأصاحبك بالرّكل حتّى اللّافتة المكتوب عليها «أكوا ترافَرسي»ـ.وفجأة دوّى صوته. ـ اذهب من أمامي!

حرّكتُ رأسي بالموافقة والبكاءُ يخنقني. اْغرورقت عيناي بالدّموع. فتحت الباب ونزلت السلّم. أخذت الدراجة وذهبتُ إلى الوادي.

كان الوادي دائماً جافّا ما عدا في الشتاء عندما ينزل المطر غزيرا. وكان ينساب بين الحقول المصفرّة مثل ثعبان طويل أبيض. كان المجرى متكوّنا من حصى أبيض ومدبّب ومن صخور ملتهبة ونُتف من الأعشاب. بعد مرحلة وعرة بين هضبتيْن، كان يتّسع مشكّلا بركة من الماء الرّاكد تَصيرُ في الصّيف مستنقعاً مسودّا.

كنّا نسمّيه البحيْرة.

ليس فيها سمك ولا حتّى صغار الضفادع. ليس فيها إلاّ يسروع البعوض والحشرات المتزحلقة. وعندما تضع فيها قدمك تخرج مغطّاة بوحل داكن اللّون كريه الرّائحة.

كنّا نرتاد ذلك المكان لأنّ فيه شجرةَ خرّوب.

كانت شجرة عظيمة، قديمة السنّ ومتيسّرة التسلّق. كنّا نحلم بصنع دار فوقها، دار لها بابها وسقفها وسلّم من

الحبال وكلّ ما يلزم. ولكنّنا لم نقدر أبداً على الحصول على الألواح والمسامير ولا على الكيفيّة لصنعها. ذات مرّة حشر فيها جُمجمة شبكة سرير قديمة. ولكنّها لم تكن مريحة بالمرّة. كانت تخدش وتمزّق الأثواب. وإذا تحرّكتَ كثيراً وَجَدْتَ نفسك على الأرض.

ولكن، منذ فترة، لم يعد أحد يتسلّق الخرّوب إلاّ أنا. فـقد كنتُ أحبّ دائماً الصّعود فوقه. كنتُ أجد متعة في البقاء فوقه متظلّلاً ومختفياً بين أوراقه. من هنالك كنت أرى بعيداً كَمَنْ ينظر من فوق الصّاري في السفينة. كانت أكوا ترافَرسي تظهر مثل بقعة صغيرة، نقطة تائهة وسط حقول القمح. وبإمكانك من هناك أن تراقب الطريق المؤدّية إلى لوتشينيانو. وكنت أرى من ذلك الارتفاع غطاء شاحنة أبي الأخضر قبل أيّ أحد آخر.

تسلّقت إلى أن وصلت مكاني المعهود، فوق جذع كبير يتفرّع، وقرّرت أن لا أعود أبداً إلى المنزل.

إن كان أبي لا يريدني ويكرهني فلا يهمّ. سأبقى هنا. بإمكاني أن أعيش دون عائلة مثل اليتامى.

«لا حاجة لي بك. اذهب وشأنك!»

قلت في نفسي: حسنا، ولكن عندما لن أعود فستتألّم كثيراً. وعند ها ستأتي إلى هنا لتطلب مني أن أعود، ولكنّي لن أعود. وستتوسّل إليّ ولكنّي لن أعود. وستفهم أنّك أخطأتَ وأنّ ابنك لن يعود وسيعيش فوق شجرة الخرّوب.

نزعت قميصي. أسندت ظهري إلى الجذع ووضعتُ رأسي على راحتيّ ونظرتُ إلى هضبة الطّفل. كانت بعيدة، في آخر السّهل، وكانت الشّمس تغرب بجانبها مثل إِسطوانة برتقاليّة يسيل لونها الورديّ على السّحب وعلى السّماء.

- ميكيلي، انزل!

استفقتُ وفتحتُ عينيّ.

أين أنا؟

مضى بعض الوقت قبل أن أدركَ أنّني فوق شجرة الخرّوب.

- ميكيلي!

كانت ماريا فوق درّاجتها الصغيرة، تحت الخرّوب. تثاءبتُ. ـ ماذا تريدين؟ ـ تمطّيت. كان ظهري منكسراً.

نزلت ماريا من درّاجتها. ـ قالت ماما إنّه يجب أن تعود إلى المنزل.

ارتديتُ قميصي. بدأ الجوّ يبرد. ـ كلاّ لن أعود. قولي لها ذلك. سأبقى هنا!

- قالت ماما إنّ العشاء جاهز.

كان الوقت متأخّراً ولا يزال نهاراً. ولكن سيجنّ اللّيل بعد نصف ساعة. وهو شيء لا يُعجبني كثيراً.

- قولي لها إنّني لم أعد ابنهما وأنّك أنتِ فقط ابنتهما.

قطّبت أختي حاجبيْها:

ـ ولم تعدْ أيضاً أخي؟

ـ لا.

ـ الغرفة إذاً كلّها لي ويُمكنني أن آخذ أيضاً المجلاّت؟

ـ لا، هذا غير داخل في الحساب.

ـ قالت ماما إن لم تأتِ من تلقاء نفسك فستأتي هي وتبرّحك ضربا بالعصا ـ.وأشارت إليّ بالنزول.

ـ لا يهمّني. على كلّ حال لن تقدر على الصعود فوق الشجرة.

ـ بل تقدر. ماما تتسلّق جيّدا.

ـ سأقذفها بالحجارة.

صعدت ماريا فوق درّاجتها. ـ حذارِ. إنّها ستغضب.

ـ وبابا، أين هو؟

ـ إنّه غير موجود.

ـ أين هو؟

ـ خرج وسيعود متأخّرًا.

ـ أين ذهب؟

ـ لست أدري. هل ستأتي؟

كانت أحسّ بجوع شديد. ـ ماذا أعدّت ماما؟

أجابت ماريا وهي تبتعد:

ـ عصيدة البطاطس والبيْض.

عصيدة البطاطس والبيْض. شيئان أحبّهما كثيراً، خصوصاً عندما أمزجهما فيصبحان حساء لذيذا.

قفزت من على شجرة الخرّوب إلى الأرض. ـ حسنا، سآتي. ولكن هذه المرّة فقط.

تعشّينا صامتيْن.

كما لو كان في البيت شخص ميّت. كنّا جالسيْن أنا وأختي إلى المائدة نتناول العشاء.

وكانت أمّي تغسل الأطباق. ـ حينما تنتهيان اذهبا إلى فراشيْكما ولا أريد سماع كلمة واحدة.

فسألتها ماريا:

ـ والتلفزيون؟

ـ ليس هناك تلفزيون. بعد قليل سيعود أبوكما وإنْ وجدكما مستيقظيْن فالويلُ لكما.

سألتُها:

ـ ما زال حانقاً؟

ـ نعم.

ـ ماذا قال؟

ـ قال إن تماديتَ على هذا المنوال فسيرسلك في العام المقبل إلى الرهبان.

كلَّما فعلتُ شيئاً غير مناسب هدّدني أبي بإرسالي إلى الرهبان.

كان سلفاتوري يصطحب أمّه أحياناً إلى دير سان بياجيو لأنّ خاله كان راهبا حارسا هناك. وذات يوم سألتُ سلفاتوري كيف يعيش الرهبان.

ـ عِيشة الكلاب ـ أجابني. ـ النهار كلُّه في الصّلاة.وفي المساء يحبسونك في حجرة لا تخرج منها حتّى لو شعرتَ بحاجة إلى التبوّل ويشترطون أن تلبس النّعل حتّى في البرد القارص.

كنتُ أكره الرهبان، ولكنّي كنتُ أعرف أنّني لن أذهب إليهم أبداً لأنّ أبي كان يكرههم أكثر منّي ويقول إنّهم خنازير.

وضعتُ الطبق في الحوض. ـ لن يهدأ غضب أبي أبداً؟

فأجابتني أمّي:

ـ قد يزول غضبه إنْ وجدك نائماً.

كانت أمّي لا تجلس أبداً إلى المائدة معنا.

تقدّم لنا الأكل وتضع طبقها فوق الثلاجة ثمّ تتناول فطورها واقفة. كانت لا تتحدّث كثيراً، وتبقى واقفة. كانت دائماً واقفة عندما تطبخ، عندما تغسل، عندما تكوي الثياب. إمّا واقفة أو نائمة. كان التلفزيون يُضجرها. وعندما تكون منهكةً ترتمي على الفراش وتنام نوما عميقا.

كانت أمّي زمن هذه القصّة في الثلاثة والثلاثين من عمرها. وكانت لا تزال ذات حسن وجمال، بشعرها الأسود الطويل الذي تتركه منساباً إلى منتصف ظهرها، وبعينيْها السَّوْداويْن الواسعتيْن كأنّهما لوزتان، وبفمها المتّسع وأسنانها القويّة والنّاصعة وبذقنها المدبّب. كانت تبدو عربيّة طويلة القامة، مكتنزة، ممتلئة الصّدر، نحيفة الخصر بأرداف تودّ لو أطلتَ يدك للمسها، عريضة الجانبيْن.

عندما نذهب إلى سوق لوتشينيانو كنت ألاحظ كيف كانت أنظار الرّجال تلاحقها. وكنت أشاهد بائع الغلال وهو يهمز صاحب النّصبة المحاذية. ثمّ ينظران إلى عجيزتها رافعيْن بعد ذلك أنظارهما إلى السماء. وكنت أنا أشدّ بقوّة على يدها وأتعلّق بثوبها.

كنت أريد أن أصيح: إنّها لي، اتركوها في راحة.

وكان سفيرينو، سائق شاحنة صهريج الماء، يقول لها:

- تريزا، إنّكِ تثيرين في الرّجال أفكارا آثمة.

كانت أمّي لا تعبأ بهذه الأشياء. كانت لا تراها. تلك النظرات النهمة كانت تنساب فوقها دون أن تمسّها. تلك

النظرات الخاطفة داخل فتحة الصدّر كانت لا تثير فيها شيئاً.

لم تكن مغرورة.

كان الحرّ خانقا، وكنّا في الفراش، في الظلام.

سألتني ماريا:

- هل تعرف حيوانا يبدأ اسمه باسم جزء من جسم الإنسان؟

- كيف؟

- حيوان يبدأ اسمه باسم جزء من جسم الإنسان.

بدأت أفكّر:

- وأنتِ هل تعرفينه؟

- نعم.

- من قال لكِ ذلك؟

- بَرْبرا.

لم يخطر ببالي شيء. ـ غير موجود.

- بلى، موجود.

فحاولت. ـ اللّحام.

- ليس حيوانا.

كان رأسي فارغا. وكنت أَسْتَعْرِضُ جميع أجزاء الجسم التي أعرفها وأضيف إليها قطعاً من حيوانات دون نتيجة.

القلبوب؟

- لا.

- الشّعرور؟

- لا.

- لست أدري. أعطني الحلّ. ما هو؟

- لن أقوله لك.

- الآن يجب أن تعطيني الحلّ.

- حسنا، سأعطيك الحلّ. السّنجاب.

ضربت جبهتي بكفّ يدي. ـ صحيح! السنّ جاب! كان متيسّرا جدا. يا للمغفّل...

عندئذ قالت ماريا:

- تصبح على خير.

وأجبتها:

- تصبحين على خير.

حاولت أن أنام، ولكنّ النوم هجرني وبقيت أتقلّب في الفراش.

وقفت إلى النافذة. لم يعد القمر كرة مستديرة كاملة. وكانت النجوم من حوله متناثرة في كلّ النواحي. لن يمكن للطّفل هذه اللّيلة أن يتحوّل إلى ذئب. نظرت نحو الهضبة. وبدا لي لحظة أنّ نورا ضعيفا لمع فوق قمّتها.

تُرى ماذا يقع في الدار المهجورة؟

لعلّهن السّاحرات. عجائز عاريات يطفن حول الحفرة ويضحكن بأفواههنّ الخالية من الأسنان وربّما يُخرجن الطفل من الحفرة ويُرقصنه ويجذبنه من عصفوره، أو لعلّه الغول أو الدراويش يشوون لحمه فوق النّار.

لن أذهب في الليل إلى ذلك المكان حتّى ولو أعطوني كنوز الدنيا. كان بودّي أن أتحوّل إلى خفّاش وأن أحلّق فوق الدّار، أو أن ألبس الشكّة القديمة التي يحتفظ بها أب سلفاتوري في بيته وأصعد فوق الهضبة. بتلك الشكّة فوق جسمي لن تستطيع السّاحرات شيئاً.

3

أفقت في الصباح مرتاح البال. لم تعاودني أحلام مخيفة. بقيت مدّة في الفراش مغمض العينيْن أستمع إلى العصافير. ثمّ عادت إليّ رؤية الطفل وهو ينهض ويمدّ نحوي ذراعيه.

ـ النجدة!

يا لي من مغفّل! لذلك نهض. كان يطلب مني النجدة وأنا عوضا عن ذلك هربت.

خرجت من الغرفة في سَليب. كان أبي يُحكم غلق ماكينة القهوة بينما كان أب بَرْبَرا جالسا إلى الطاولة.

قال أبي:

ـ صباح الخير، ـ زال عنه الغضب إذاً.

وقال أب بربرا:

ـ تشاو، ميكيلي. كيف حالك؟

ـ لا بأس.

كان بيترو مورا رجلاً قصير القامة وسمينا، ذا شاربيْن أسوديْن كبيريْن يغطّيان فمه، ورأس كبير مربّع. كان يلبس بدلة سوداء بخطوط صغيرة بيضاء وتحتها قميص داخليّ. كان قد عَمِل حلاّقا طيلة سنوات في لوتشينيانو، ولكنّه لم ينجح أبداً في هذه الحرفة. وعندما فتحوا صالوناً جديداً فيه عناية بالأظافر وحلاقة عصريّة أغلق دكّانه وعاد ليشتغل فلاّحاً. ولكن بقي الجميعُ في أكوا ترافرسي يدعونه بالحلاّق.

عندما تريد قصّ شعرك تقصد بيته فيجلسك في المطبخ تحت أشعّة الشمس بجانب قفص الحسّون ثمّ يفتح دُرجا ويُخرج منه لفافة من الكتّان بداخلها الأمشاط والمقصّ المزيّت دائماً تزييتاً جيّداً.

كانت أصابع بيترو مورا سمينة وقصيرة مثل السّيجار التوسكانيّ وتدخل بصعوبة في فتحتيْ المقصّ. قبل أن يشرع في الحلاقة يفتح شفرتيْ المقصّ ويمرّرهما فوق رأسك، إلى الخلف وإلى الأمام، مثل السّاحر. كان يقول إنّه يقدر بتلك الطريقة على قراءة أفكارك وعلى معرفة إن كانت أفكارا طيّبة أم شرّيرة.

وكنتُ، عندما يفعل ذلك، أحاول التفكير فقط في أشياء طيّبة مثل المثلّجات والنّجوم السيّارة أو حبّي الكبير لأمّي.

نظر إليّ ثم قال:

- هل تريد إطالة شعرك؟

أشرت برأسي علامة على النفي.

صبّ أبي القهوة في فناجين جميلة.

ـ لقد أغضبني بالأمس. إن واصل على هذا النّحو فسأرسله إلى الرّهبان.

عند ذلك سألني الحلاّق:

ـ هل تعرف كيف يحلق الرّهبان الشّعر؟

ـ يتركون دائرة وسط الرأس.

ـ برافو. لذا من الأفضل أن تسمع الكلام.

قال أبي:

ـ هيّا، البس ثيابك وأَفطر. أعدّت لك ماما الخبز والحليب.

ـ أين ذهبتْ؟

ـ إلى لوتشينيانو. إلى السّوق.

ـ بابا، أريد أن أقول لك شيئا، شيئاً مهمّاً.

لبس أبي سترته. ـ ليس الآن. هذا المساء. الآن سأخرج. أَيقظْ أختك وسَخِّن الحليب ـ.وبشفطة واحدة أنهى قهوته.

شرب الحلاّق أيضاً قهوته وخرج الاثنان معاً من المنزل.

بعد أن أعددتُ الفطور لماريا نزلتُ إلى الشارع.

كان جُمجمة والآخرون يلعبون الكرة في الشمس.

وكان توقو، وهو كلبٌ صغير أبيض وأسود، يجري وراء الكرة ويتعثّر بين أقدامهم.

ظهر توقو في أكوا ترافرسي في بداية الصّيف وتبنّاه الجميع. اتّخذ مرقده في مستودع أب جُمجمة. وكان الجميع يُلقي إليه ببقايا الأكل حتّى صار سمينا وانتفخت بطنُه مثل الطبلة. كان كلباً صغيراً وديعاً. عندما تُمسّح على شعره أو تحمله داخل البيت يتأثّر فيتمدّد على الأرض ويبول.

صاح بي سلفاتوري:

- احرس المرمى!

أخذتُ مكاني في المرمى. لا أحد كان يريد حراسة المرمى، إلاّ أنا. ربّما لأنّني كنتُ أفْضَل اللّعب بيديّ وليس بقدميّ. وكان يُعجبني أن أقفز وأن أرتمي على الكرة وأن أتمرّغ في التراب وأن أتصدّى لضربات الجزاء.

أمّا الآخرون فكانوا يُحبّون تسديد الأهداف فقط.

ذلك الصّباح تقبّلتُ أهدافاً كثيرة. كانت الكرة تفلتُ من يديّ أو أصل بعد فوات الأوان. كنتُ مشغولَ البالِ.

اقترب سلفاتوري مني قائلاً:

- ميكيلي، ماذا جرى لك؟

- ماذا جرى لي؟

- إنّك تلعب كأسْوَإِ ما يكون.

بصقتُ في يديّ وفتحتُ ذراعيّ وساقيّ وضيّقت عينيّ مثلما يفعل دزوفّ[7].

- لن تمرّ كرة واحدة. سأوقفها كلّها.

انفلت جُمجمة من ريمو وقذف الكرة بقوّة وسط المرمى. كانت رمية قويّة، لكنّها سهلة، من تلك التي يُمكن صدّها بجُمع اليد أو شدّها بقوّة على البطن. حاولتُ الإمساك بالكرة ولكنّها أفلتت منّي.

صاح جُمجمة:

- هدف!ـ، ورفع جمع يده إلى السّماء كما لو سجّل هدفاً ضدّ «يوفانتوس».

كانت الهضبة تدعوني. بإمكاني أن أذهب إليها. أمّي وأبي ليسا في المنزل. يكفي أن أعود قبل الغداء.

قلتُ لهم:

- لا رغبة لي في اللّعب ـ، وذهبتُ لحالي.

التحق بي سلفاتوري وسألني:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لستُ ذاهباً إلى أيّ مكان.

---

(7) – Dino Zoff حارس مرمى الفريق الإيطالي بطل العالم سنة 1982 (المترجم).

ـ هيّا نقوم بجولة؟

ـ من بعد. هناك شيء أريد القيام به.

كنتُ قد هربتُ تاركاً كلّ شيء على حاله.

الصفيحة ملقاة جانباً مع الحشيّة والحفرة عارية والحبل يتدلّى داخلها.

إن جاء حرّاس الحفرة فسوف يتفطّنون إلى أنّ سرّهم افتضح وسوف أدفع الثمن غاليا.

وإذا لم يعد الطفل هناك؟

يجب أن أتشجّع وأن أتحقّق من ذلك.

نظرت داخل الحفرة.

كان ملفوفاً في البطانية.

تنحنحتُ ثمّ قلتُ:

ـ تشاو... تشاو... تشاو... أنا الذي جئتُ بالأمس ونزلتُ. هل تذكر؟

لم يُجب.

ـ هل تسمع؟ هل أنت أَصمّ؟ ـ، كان سؤالاً عبيطا. ـ هل أنت مريض؟ هل أنت حيّ؟

ثنى ذراعه ورفع يده وهمس بكلمة.

ـ كيف؟ لم أفهم.

ـ ماء.

ـ ماء؟ أنت عطشان؟

رفع ذراعه.

ـ انتظر.

أين سأجد الماء؟ كانت هناك حاويتان للدّهن ولكنهما فارغتان. كان هناك قليل من الماء في المغسل ولكنّه كان مخضرّ اللّون ومليئا بيَرقان البعوض.

تذكّرت أنّني عندما دخلتُ للبحث عن حبل رأيتُ صفيحة مليئة بالماء.

قلت له:

ـ سأعود فوراً ـ. ودخلت من الفتحة الصغيرة فوق الباب.

كانت الصفيحة ممتلئة إلى النّصف. وكان الماء صافياً دون رائحة. كان يبدو جيّداً.

في زاوية مظلمة، على رفّ من الخشب، كانت هناك علبٌ وبقايا شموع وقدرٌ وقواريرٌ فارغة. أخذتُ واحدة منها. قمتُ بخطوتيْن ثم توقّفتُ. عدت إلى الوراء وأخذتُ القدر في يدي.

كانت قدرا قليلة العُمق مطلية بالأبيض وحافتها ويدها بالأزرق ودائرتها مزدانة برسوم تفّاحات حمراء. كانت شبيهة تماماً بالقدر التي في بيتنا. كنّا قد اشتريْناها مع أمّي من سوق

لوتشينيانو، واختارتها ماريا من كوم قدور فوق نصبة لأنّ التفاحات أعجبتها.

كانت هذه تبدو أكثر قدما. ولم تُغسل غسلاً جيّداً لأنّ شيئاً ما بقي ملتصقاً بقاعها. مرّرت سبّابتي فوقه وقرّبتها من أنفي.

صلصة طماطم.

أعدتها إلى مكانها وملأتُ القارورة بالماء وأغلقتها بسدّاد من الخفّاف وأخذت معي السلّة ثمّ خرجت.

أخذت الحبل وربطتُ السلّة في طرفه ثمّ وضعت فيها القارورة.

قلتُ له:

ـ سأنزل إليك السلّة. خذها.

نهض وهو ملتفّ بالبطانية وتحسّس مكان القارورة في السلّة. نزع السدّادَ وأفرغها في قدر صغيرة دون أن يُضيع منها قطرة واحدة. ثمّ أعادها إلى السلّة وخضّ الحبل.

كما لو كان شيئاً اعتاد على فعله دائماً، كلّ يوم. وبما أنّني لم أجذب الحبل خضّه مرّة أخرى وغمغم شيئاً غاضباً.

ما إن جذبتُ الحبل حتّى أحنى رأسه دون أن يرفع القدر إليه وأخذ يشرب على أربع قوائم مثل الكلب. وعندما ارتوى انزوى في ركن ولم يتحرّك بعد ذلك.

كان الوقت متأخّرا.

- الآن... تشاو- .غطّيت الحفرة وذهبتُ.

بينما كنتُ أدير مداس الدرّاجة عائدا إلى أكوا ترافَرسي كنتُ أفكّر في القدر التي وجدتها في المطبخ.

كان يبدو لي غريبا أن تكون مشابهة تماماً لقدرنا. لست أدري لماذا. ربّما لأنّ ماريا اختارتها هي بالذات من بين كلّ تلك القدور كما لو أنّها كانت مختلفة عن الأخرى، وأجمل من الأخرى، مع كلّ تلك التفاحات الحمراء.

وصلتُ المنزل ساعة الغداء بالضبط.

قال أبي:

- أسرع، اغسل يديْك - .كان جالسا إلى المائدة بجانب أختي وكانا ينتظران أن تخرج أمّي المقرونة من الماء.

أسرعت إلى غرفة الاستحمام وفركت يديّ بالصّابون. مشطتُ شعري جاعلا المفرق على اليمين والتحقتُ بهما بينما كانت أمّي تملأ الأطباق بالمقرونة.

لم تكن تستعمل القدر ذات التفّاحات. نظرتُ إلى الأواني التي كانت تجفّ فوق المغسل ولكنّني لم أرها. لعلّها في الصّوان.

قال أبي والمضغة في فمه:

- بعد يوميْن، سيأتي شخص ليقيم بيننا بعض الوقت. كونا عاقليْن. لا أريد بكاءً أو صياحاً. لا تُحْرِجانَنِي بحضوره..

فسألته:

ـ من هو هذا الشخص؟

صبّ لنفسه كأسا من الخمر. ـ صديق لي.

فسألته أختي:

ـ ما اسمه؟

ـ سارجيو.

فأعادت ماريا:

ـ سارجيو. يا له من اسم مضحك.

إنّها المرّة الأولى التي يأتي فيها أحد ليقيم عندنا. كان يزورنا في عيد المولد أعمامي ولكنّهم لا يقضّون الليل عندنا. المكان غير كاف. سألته:

ـ كم سيبقى؟

ملأ أبي من جديد طبقه. ـ بعض الوقت.

وضعت أمّي أمامنا شريحة اللّحم.

كانتْ الأربعاء. ويوم الأربعاء هو يوم الشريحة.

الشريحة التي تنفع الصّغار والتي كنتُ أنا وأختي نبغضها. كنتُ أنا، بجُهد لا يوصف، أسقط في جوفي تلك القطعة من النّعل اليابسة العديمة الطّعم. أمّا أختي فلا. كانت ماريا تمضغها ساعات وساعات إلى أن تصبح كرة صغيرة بيضاء ليفيّة تنتفخ في فمها. وعندما تنفد طاقتها تلصقها تحت المائدة. وكان اللّحم يتعفّن وأمّي تتعجّب. ـ مِن أين تأتي هذه الرّائحة

الكريهة؟ تُرى ماذا يكون؟ ـ.إلى أن جاء يوم سحبت فيه دُرج الملاعق فوجدت كلّ تلك الكُرات المتعفّنة ملتصقة بالألواح مثل بيوت النّحل.

الآن اكتُشفت الحيلة.

بدأت ماريا تتذمّر. ـ لا أريدها! لا أحبّها!

غضبت أمّي على الفور:

ـ ماريا، كُلِي شريحتك!

فقالت أختي وكأنّما ناولوها السمّ لتأكله:

ـ لا أَستطيع. إنّها تسبّب لي الصّداع.

فضَربتها أمّي على رأسها، وبدأت ماريا تبكي.

قلت في نفسي: الآن سترسلها إلى الفراش.

ولكنّ أبي أخذ الطّبق ونظر إلى أمّي قائلاً:

ـ تِريزا، اُتركيها لحالها. لن تأكلها. لا بأس. احتفظي بها.

بعد الغداء ذهب والداي ليرتاحا قليلا. كان المنزل مثل الفرن، ولكنّهما كانا مع ذلك يستطيعان النوم.

إنّها الفرصة الملائمة للبحث عن القدر. فتحتُ الصّوان وفتّشت بين الأواني. ثم نظرت في الصندوق الكبير حيث توضع الأشياء التي لم تعد صالحة للاستعمال. وبعد ذلك خرجت وذهبت وراء المنزل حيث يوجد حوض الغسيل

والمبقلة والحبال بالأثواب المنشورة. كانت أمّي تغسل أحياناً الأواني هناك ثمّ تتركها تجفّ في الشمس.

لا شيء. اختفت قدر التفّاحات.

كنّا جالسيْن تحت العريشة نلعب لعبة «البصق في المحيط» في انتظار أن تخفّ حرارة الشمس لنلعب بالكرة عندما رأيتُ أبي يَنزل السلّم ببنطلونه الأنيق وقميصه النظيف. كان يُمسك في يده حقيبة زرقاء لم أرها من قبل.

نهضنا أنا وأختي والتحقنا به بينما كان يركب الشاحنة.

سألته وأنا متشبّث بباب الشاحنة:

- بابا، بابا، إلى أين أنت ذاهب؟ ستسافر؟

وتوسّلتْ إليه أختي:

- هل نستطيع أن نأتي معك؟

كنّا حقيقة بحاجة إلى جولة فوق الشاحنة. كان ذلك يذكّرنا باليوم الذي حملنا فيه معه لأكل الفطائر والحلويات بالكريمة.

أدار أبي المحرّك:

- آسف، يا أولاد. اليوم لا.

حاولت أن اندسّ داخل الشاحنة. ـ ولكنّك قلت إنّك لن تسافر بعد الآن وستبقى في المنزل...

ـ سأعود سريعا. غدا أو بعد غد. انزلا، هيّا ـ كان مستعجلاً، وكان لا يريد أيّ نقاش.

حاولت أختي أن تلحّ أكثر. أمّا أنا فقد فهمتُ أنّه لا فائدة من ذلك.

وبقينا ننظر إليه وهو يبتعد وسط الغبار جالساً إلى مقود علبته الخضراء الكبيرة.

أفقتُ أثناء اللّيل.

ليس من جرّاء حلم، بل أيقظتني ضجّة.

بقيت هكذا، مغمض العينيْن. أنصتُ.

كان يبدو لي أنّني في بحر. كنتُ أسمعه، إلاّ أنّه كان بحراً من الحديد أو مُحيطاً كسولاً من القضبان واللّوالب والمسامير تلامس مياهه سواحل شاطئ. وأمواج بطيئة من الحديد تتكسّر في حركة ثقيلة تارة تغطّي شاطئ ذلك البحر وتارة تكشفه.

ومع هذه الأصوات كان يصل أيضاً نباح جمع من الكلاب وعَويلها، مثل مجموعة صوتيّة كئيبة ومتنافرة. كانت لا تخفّف من ضجّة الحديد بل تضخّمها.

نظرت من النافذة. كانت حاصدة دارِسة تتقدّم بضجّتها الحديديّة على منحدر هضبة بلّلتها أشعّة القمر مثل جرادة عملاقة من الحديد، بعينيْن صغيرتيْن مستديرتيْن لامعتيْن

وفم واسع من الشفرات والأسنان. حشرة ميكانيكيّة تلتهم السنابل وتتغوّط التّبن. كانت تعمل باللّيل لأنّ الحرّ شديد أثناء النّهار. وهي التي كانت تُحدث صوت البحر.

وكنتُ أعرف من أين يأتي النّباح.

من مربض كلاب والد جُمجمة. كان إيطلو نطَالي قد صنع وراء المنزل مستودعا من الصفائح يحفظ فيه كلاب الصّيد. كانت دائماً محبوسة هناك صيفًا وشتاءً وراء شبكة حديديّة. في الصّباح عندما يحمل إليها أبُ جُمجمة الأكل كانت تلقاه بالنّباح.

تلك اللّيلة، لا أدري لأيّ سبب، أخذت تُعول جميعها في نفس الوقت.

نظرت نحو الهضبة.

أبي هناك. لقد حمل الشريحة التي تركتها أختي إلى الطفل ولهذا السّبب تظاهر بالسّفر. ولهذا السّبب كانت معه حقيبة ليخفيها بداخلها.

قبل العشاء، فتحتُ الثلاّجة فلم أجد فيها قطعة اللّحم.

- ماما، أين الشريحة؟

نظرت إليّ أمّي مستغربة:

- الآن صرت تحبّ اللّحم؟

- نعم.

- لقد أكلها أبوك.

لم يكن ذلك صحيحاً. لقد حملها إلى الطفل.

لأنّ ذلك الطفل هو أخي.

مثل نونتسيو سكرداتشوني، شقيق سلفاتوري الأكبر. لم يكن نونتسيو مجنونا شرّيرا ولكنّني كنتُ لا أستطيع النظر إليه. كنتُ أخاف أن يمسّني جنونُه. كان نونتسيو ينتّف شعره بيديه ثمّ يأكله. وكان رأسه مليئا بالحفر والدّمل ولعابه يسيل. وكانت أمّه تغطّي رأسه بقبّعة وتلبسه القفّاز لكي لا ينتف شعره، ولكنّه بدأ يُدمي ساعديْه عضّا حتّى يسيلا دماً. في نهاية الأمر، أخذوه وحملوه إلى مستشفى المجانين. وكنتُ أنا سعيدا بهذا.

قد يكون الطّفل الذي في الحفرة أخي. وُلد مجنوناً مثل نونتسيو فأخفاه أبي هناك حتّى لا ننزعج أنا وأختي وحتىّ لا ينزعج أطفال أكوا ترافرسي.

ولعلّه توأمي. كنّا تقريباً في نفس القامة والعمر.

عندما وُلدنا أخذتنا أمّي معاً من المهد وجلست على كرسيّ ومدّت لنا حلمتيْها لتُرضعنا. وبدأتُ أنا أرضع ولكنّه، على عكس ذلك، عضّها وحاول أن يقطع الحلمة بينما كان الدّم والحليب يسيلان وهي تصيح عبر المنزل:

- إنّه مجنون! إنّه مجنون! خذه، واحمله بعيداً! احمله بعيداً! اقتله. إنّه مجنون.

وضعه أبي في كيس وحمله إلى الهضبة لقتله. وضعه على الأرض وسط القمح. وكان عليه أن يطعنه ولكنّه لم

يقدر، فهو على كلّ حال ابنه. عند ذلك حفر حفرة وشدّه بسلسلة داخلها وكبُر الطفل فيها.

كانت أمّي تجهل أنّه ما زال على قيد الحياة.

أمّا أنا فكنتُ أعرف ذلك.

4

أفقتُ مبكّرًا. بقيت في الفراش وقد بدأ قرص الشمس يشتعل. ثمّ نفد صبري من الانتظار. كانت أمّي وأختي نائمتيْن. نهضتُ، نَظَّفت أسناني. مَلأتُ محفظتي بالخبز والجبن ثمّ خرجتُ.

تقرّر في ذهني أنّ الهضبة أثناء النّهار خالية من الخطر. في اللّيل فقط تقع أشياء مرعبة.

في ذلك الصّباح ظهرت السّحب. كانت تسري سريعة وسط سماء فاقدة اللّون، تُلقي على حقول القمح بقعاً داكنة، وكانتْ شحيحة علينا بأمطارها تحملها لا أدري إلى أين.

كنتُ أمضي كالسّهم وسط الحقول الخالية على متن «الخُردة»، متّجهاً إلى الهضبة.

إنْ وجدت في الحفرة ولو قطعة صغيرة جدّا من الشريحة فذلك يعني أنّ الطفل هو أخي.

كنت على وشك الوصول عندما ظهرت في الأفق سحابة من الغبار الأحمر، قريبة من الأرض، تجري بسرعة،

سحابة تتقدّم وسط القمح. كان غباراً مشابهًا لما تحدثه سيّارة على طريق ترابيّة حرقتها الشمس. كان الغبار بعيداً ولكنّه سيلحق بي سريعا. بدأ يصل إلى سمعي هديرُ المحرّك.

كان قادماً من الدار المهجورة. تلك الطريق تؤدّي إلى هناك فحسب. انعرجت السيّارة قليلاً وجاءت قبالتي.

لم أعد أدري ماذا يجب أن أفعل. إنْ رجعت إلى الوراء فسوف يلحق بي سائقها. وإنْ واصلت فسوف يراني. كان عليّ أن اتّخذ قراراً بسرعة لأنّه كان يقترب. ولعلّه رآني. وإنْ لم يشاهدني بعدُ فذلك لأنّ سحابة الغبار الأحمر تحجبني.

أدرتُ الدرّاجة محاولاً الابتعاد بأكثر سرعة ممكنة، دون جدوى. كلّما أدرتّ أكثر مداس الدّراجة تعثّرت وانعدم توازنها ورفضت التقدّم أكثر. كنتُ أنظر ورائي وأشاهد الغبار وهو يتكاثف.

قلت في نفسي: يجب أن أختفي.

أدرتُ المقود فتعثّرت عجلة الدرّاجة في حجر ووجدتني طائراً مثل صليب وسط القمح. كانت السيارة على أقلّ من مائتيْ متر.

بقيت «الخُردة» ملقاة على حافة الطريق. أمسكتُ العجلة الأماميّة وجذبتها إليّ ثمّ التصقتُ بالأرض وكتمتُ أنفاسي، دون أن أحرّك عضلة واحدة، راجيا يسوع الرّضيع أن لا يراني أحد.

استجاب يسوع الرّضيع إلى دعائي.

كنت متمددّا بين السنابل، وذباب البغال يلتهم جلدي ويداي منغمستان في الطّوب المحترق، ورأيتُ سيّارة «فيات 127» بنيّة اللّون تمرّ سريعا أمامي.

كانت سيّارة فليتشي نطالي.

كان فليتشي نطالي شقيق جُمجمة الأكبر. وإذا كان جُمجمة شرّيرا فقد كان فليتشي أشرّ منه ألف مرّة.

كان فليتشي في العشرين من عمره. وعندما كان يقطن في أكوا ترافرسي كانت الحياة بالنسبة إليّ وإلى الأطفال الآخرين جحيماً لا يُطاق. كان يضربنا ويثقب الكرة التي نلعب بها ويسرق أشياءنا.

كان إنساناً شقيّاً، لا صديق له ولا امرأة. كان ممّن يشفون غليلهم في مَنْ هم أصغر سنّا. كان نفساً تعيسة. وليس هذا بالغريب. لا يستطيع أحد في العشرين من عمره أن يعيش في أكوا ترافرسي، إلاّ إذا أراد أن يُصبح مثل نونتسيو سكرداتشوني المجنون. كان فليتشي يعيش في أكوا ترافرسي مثل نِمر في قفص. يحوم بين تلك البيوت الأربعة ثائراً، مهتاجاً، مستعدّا دائماً للتنكيل بك. من حسن الحظّ أنّه كان يذهب بين الحين والآخر إلى لوتشينيانو. ولكن حتّى هناك لم يكن له أصدقاء. وعندما أخرجُ من المدرسة كنتُ أراه جالساً وحيداً على مقعد في السّاحة العموميّة.

كانت موضةُ تلك السنة لبس بنطلون «ساق الفيل» والمراويلَ الضيّقة والملوّنة وفروَ الخروف والشعر الطويل. أمّا

موضة فليتشي فقد كانت عكس ذلك. كان يقصّ شعره قصيرا، يمشطه إلى الوراء ويدهنه بالزّيت الملمّع. وكان يحلق ذقنه بعناية ويلبس سترة عسكريّة وبنطلونا يُحاكي لون النّبات، ويربط في عنقه منديلا. كان يتجوّل في تلك الفيات 127، ويحبّ الأسلحة. وقصّ علينا أنّه تمرّن في بيزا على النزول بالمظلاّت وأنّه ارتمى من الطائرات. ولكن هذا غير صحيح. كان الجميع يعرف أنّه قضّى الخدمة العسكريّة في برندِزي. كان وجهه مستطيلاً مثل البرّاكودا وأسنانه صغيرة ومتباعدة مثل أسنان تمساح حديث السنّ. قال لنا مرّة إنّ أسنانه على ذلك الشّكل لأنّه لا يزال يملك أسنان الحليب. لم يغيّرها أبداً. كان عندما يُغلق فمه يكاد يكون فتى جميلا، ولكنّه ما إن يفتح تلك المغارة، عندما يضحك، حتّى تقفز خطوتيْن إلى الوراء. وإذا فاجأك وأنت تحدّق في أسنانه فالويل لك.

وذات يوم مبارك، رحل دون أن يقول شيئاً.

كنّا نسأل جُمجمة عن أخيه فيجيب:

- ذهب إلى الشمال للعمل.

وكان هذا يكفينا وزيادة.

ولكنّه ظهر الآن من جديد مثل النبتة السّامة، فوق تلك الفيات 127 في لون البراز السّائل. وها هو الآن ينزل الهضبة قادماً من الدّار المهجورة.

كان هو الذي وضع الطفل في الحفرة. الآن عرفتُ مَنْ وضعه فيها.

اختفيْتُ وراء الأشجار وتحقّقتُ من أنّه لا يوجد أحد في الوادي.

و لمّا تأكّد لي أنّني وحيد خرجتُ من الغابة ودخلتُ الدّار مرورا من تلك الفتحة الصغيرة المعتادة. إضافة إلى لفائف المقرونة وقوارير الجعة والقدر ذات التفاحات، وجدتُ على الأرض علبتيْن من التنّ فارغتيْن، وفي إحدى الزوايا كيس نوم عسكريّ مكوّر.

فليتشي. إنّه كيسه. أتصوّره تماماً وهو ملتفّ في كيسه، راض كلّ الرضا، يأكل التنّ.

ملأتُ قارورة بالماء ثمّ أخذت الحبل من صندوق كبير وحملته إلى الخارج. ربطت الحبل إلى ذراع الرّافعة. زحزحتُ الصفيحة والحشيّة ونظرتُ إلى القاع.

كان الطفل منكمشا على نفسه مثل القنفذ داخل البطانية البنيّة.

لم أكن أرغب في النزول، ولكنّني كنتُ أريد التحقّق من وجود بقايا الشريحة التي لم تأكلها أختي. لم يكن باستطاعتي، حتّى بعد مشاهدة فليتشي قادماً من الهضبة، أن أتحرّر من فكرة أنّ ذلك الطفل يمكن أن يكون أخي.

أخرجتُ قطعة الجبن وسألته:

- هل يُمكن أن أنزل؟ إنّني الولد الذي سقاك الماء. هل تتذكّر؟ لقد حملت إليك بعض الأكل. جُبن. الجبن لذيذ. ألذُّ ألف مرّة من الشريحة. إن لم تهاجمني فسأعطيك إيّاه.

لم يُجبني.

- إذاً، يمكن أن أنزل؟

لعلّ فليتشي قطع رقبته.

- سأرمي إليك بالجبن. خذه-.ثمّ قذفت قطعة الجبن.

سقطت بالقرب منه.

برزت من البطانية يد مسودّة وخاطفة كأنّها عنكبوت، أخذت تتحسّس الأرض إلى أن عثرت على قطعة الجبن فأخذتها وأخفتها داخل البطانيّة. التهم الطفل الجبن وساقاه ترتعشان مثلما تفعل تلك الكلاب المتشرّدة حين تجد أمامها بقيّة طعام بعد أيّام من الصّوم.

- جئتك بالماء... هل تريده؟

أشار بالإيجاب بحركة من ذراعه.

نزلتُ إليه.

ما إن أحسّ أنّي قريب منه حتّى انكمش على نفسه ملتصقاً بالجدار.

نظرتُ حواليّ. لا أثر للشريحة.

ـ لن أمسّك بسوء. هل أنت عطشان؟ ـ وقدّمت له القارورة:

ـ اشرب. إنّه ماء عذب.

استقام جالساً دون أن يخلع عنه البطانية. كان يبدو شبحاً صغيراً متشرّدا. تبرز ساقاه النحيفتان مثل غصنيْن صغيريْن أبيضيْن وهزيليْن، إحداهما مشدودة إلى السّلسلة. أخرج ذراعه وانتزع منّي القارورة ومثلما فعل بالجبن أخفاها تحت البطانية.

صار الآن للشبح أنف طويل مثل خرطوم الفيل. كان يشرب.

أفرغ القارورة في عشرين ثانية. وعندما شربها كلّها تجشّأ.

سألته:

ـ ما اسمك؟

انزوى من جديد دون أن يجيب.

ـ ما اسم أبيك؟

انتظرتُ الجواب دون جدوى.

ـ أبي يُدعى بينو، وأنت؟ أبوك أيضاً يُدعى بينو؟

كان يبدو نائماً.

بقيتُ أنظر إليه ثمّ قلتُ:

ـ فليتشي! تعرفه، أليس كذلك؟ لقد رأيته. كان نازلا من الهضبة على سيّارته... ـ لم أعد أدري ماذا أقول. ـ تريد أن أتركك؟ إنْ أردت ذلك فسوف أتركك ـ.لاشيء. ـ حسناً، سأذهب ـ.أمسكت الحبل ـ مع السلامة إذاً، تشاو...

سمعتُ همساً أو نفَساً أو شيئاً خرج من البطانية.

اقتربتُ منه. ـ هل قلتَ شيئا؟

همس من جديد.

ـ لا أفهم. ارفع صوتك.

صاح:

ـ الدّببة...!

قفزت إلى الوراء:

ـ الدِّببة؟ كيف الدِّببة؟

خفّض من صوته. ـ الدِّببة الغسّالة...

ـ الدِّببة الغسّالة؟

ـ الدِّببة الغسّالة. إنْ تركت نافذة المطبخ مفتوحة تدخل الدِّببة الغسّالة وتسرق الكعك أو البسكويت، حسب ما هو موجود ذلك اليوم، ـ ثمّ أضاف وهو على غاية من الجدّ.

ـ وإنْ تركتَ البقايا مثلاً أمام المنزل تأتي الدّببة الغسّالة أثناء اللّيل وتأكل كلّ شيء.

كان مثل راديو معطّب عاد فجأة إلى الإرسال.

- من الهامّ جدّا غلق حاوية الفضلات غلقاً مُحكماً وإلاّ ألقت بكلّ شيء خارجها.

عمّ كان يتحدّث؟ حاولتُ مقاطعته:

- هنا لا توجد دببة. ولا حتّى الذئاب. توجد فقط الثعالب. ثمّ سألته:

- هل أكلتَ بالأمس شريحة من اللحم؟

- الدّببة الغسّالة تعضّ لأنّها تخاف من البشر.

تُرى من تكون هذه الدّببة الغسّالة؟ وماذا تغسل؟ الثياب؟ الدّببة تتكلّم فقط في الصّور المتحرّكة. لا تعجبني حكاية الدّببة الغسّالة هذه.

كرّرتُ بإلحاح:

- هل بإمكانك أن تجيبني من فضلك، هل أكلتَ الشريحة؟ إنّه أمر هامّ جدّا.

و لكنّه أجابني:

- قالت لي الدّببة الغسّالة إنّك لا تخاف من سيّد الدّيدان.

كان صوت ضعيف في دخيلتي يقول لي إنّه لا ينبغي أن أستمع إليه وإنّه من الأفضل أن أهرب.

تشبّثت بالحبل، ولكنّني تجمّدتُ وبقيتُ أنظر إليه كالمسحور.

أعاد بإلحاح: ـ أنت لا تخاف من سيّد الدّيدان.

ـ سيّد الدّيدان؟ من يكون؟

ـ يقول سيّد الدّيدان: «هيّا، أيّها المغفّل. الآن سأُنزل إليك القوت. خذه وارجع لي السّطل وإلاّ نزلتُ ورفستك مثل الدّودة. نعم، أرفسك مثل الدّودة». هل أنت الملاك الحارس؟

ـ كيف؟

ـ هل أنتَ الملاك الحارس؟

تلعثمتُ. ـ أنا... أنا، كلاّ... لستُ الملاك...

ـ إنّك الملاك. صوتك هو صوت الملاك.

ـ أيّ ملاك؟

ـ الملاك الذي يتكلّم ويحدّثني عن أشياء.

ـ أليست الدّبية الغسّالة هي التي تتكلّم؟ ـ لم أكن أجد معنى لذلك الهذيان. ـ أنت الذي قلت لي ذلك...

ـ الدّبية الغسّالة تتكلّم، ولكنّها أحياناً تكذب. الملاك يقول دائماً الحقيقة. أنت هو الملاك الحارس ـ.ثمّ رفع صوته. ـ بإمكانك أن تصارحني.

أحسستُ بنفسي دون قوّة. كانت نَتانة البراز تخنق فمي وأنفي وعقلي. ـ أنا لست ملاكاً... أنا ميكيلي، ميكيلي أميترانو. لستُ... ـ همستُ بذلك واتّكأت على الجدار وانزلقت على الأرض فقام هو، ومدّ ذراعيْه نحوي مثل الأبرص

الذي يطلب الصّدقة وبقي واقفا بضع ثوان. ثمّ خَطَا خطوةً إلى الوراء وسقط على ركبتيْه، تحت البطانية، عند قدميّ.

لمسَ أحد أصابعي هامساً بشيء.

أطلقتُ صرخة. كما لو لمسني كائن هلاميّ مُقزّز أو عنكبوت كريه، بتلك اليد الصغيرة العظميّة، وبتلك الأظافر السوداء الطويلة والمعوجّة.

كان يتكلّم ببطء كبير. ـ ماذا، ماذا قلت؟

أجاب. ـ ماذا قلتَ؟ أنا ميّت!

ـ ماذا؟

ـ ماذا؟ أنا ميّت؟ أنا ميّت؟ أنا ميّت. ماذا؟

ـ تكلّم بصوت مرتفع. ارفع صوتك أكثر... أرجوك...

صاح، بصوت أبحّ دون نطق، بصفير يشبه فِعل الأظافر على السّبورة. ـ أنا ميّت؟ أنا ميّت؟ أنا ميّت؟

بحثتُ عن الحبل وتسلّقته وأنا أركل بساقيّ مُسقطاً فوقه التراب.

ولكنّه واصل صياحه. ـ أنا ميّت؟ أنا ميّت؟ أنا ميّت؟

كنتُ أعدو على الدرّاجة وذباب البغال يلاحقني.

وكنتُ أقسم بأغلظ الأيمان أنّني لن أعود أبداً إلى تلك الهضبة، أبداً. وحتّى إنْ قتلوني فلن أتحادث من جديد مع ذلك المجنون.

كيف يُمكن أن يظنّ نفسه ميّتاً؟

لا أحد من الأحياء يُمكن أن يظنّ أنّه ميّت. عندما يموت أحد فهو ميّت وكفى. يذهب إلى الفردوس أو على أقصى تقدير إلى الجحيم.

وإذا كان، على العكس، يقول الحقيقة؟

وإذا كان بالفعل ميّتا؟ وإذا أعاده أحد إلى الحياة؟ مَنْ؟ لا يستطيع ذلك إلاّ يسوعُ المسيح. لا أحد غيره. ولكن عندما تستفيق، هل تدرك أنّك ميّت؟ هل تتذكّر الفردوس؟ هل تتذكّر مَن كنتَ قبل ذلك؟ تُصبح مجنوناً لأنّ المخّ تعفّن وإذا بك تتحدّث عن الدّببة الغسّالة؟

إنّه ليس توأمي بل ليس أخي بالمرّة. ولا دخل لأبي فيه. لا أثر للشريحة. والقدر ليست قدرنا. ألقت أمّي بالقدر في حاوية الفضلات.

ما إن يرجع أبي حتّى أقصّ عليه كلّ شيء مثلما علّمني دائماً. وسيقوم هو بما يلزم.

كنتُ على وشك الوصول إلى البيت عندما تذكّرت الصفيحة. لقد هربتُ تاركاً الحفرة عارية.

لو عاد فِليتشي فسيفهم على الفور أنّ أحداً جاء وتدخّل فيما لا يعنيه. يجب أن لا يُفتضح أمري فقط لأنّني أخاف من

مجنون مشدود إلى سلسلة في حفرة. إن اكتشف فليتشي أنّني كنت هنالك فسيجرّني من أذني.

صعدنا ذات مرّة أنا وجُمجمة في سيّارة فليتشي. كنّا نتخيّل الفيات 127 مركبة فضائيّة. كان جمجمة قائد المركبة وكنتُ أنا أطلق الرّصاص على المرّيخيّين. ولكن فليتشي فاجأنا فأخرجنا من السيارة، وسط الطريق، وهو يجرّنا من أذنيْنا مثل الأرانب. وكنّا نبكي يائسيْن ولكنّه لم يتركنا. لحسن الحظّ أنّ أمّي خرجت من البيت وانهالت عليه بالعصا.

كان بودّي أن أترك كلّ شيء على حاله وأن أعود إلى البيت وأغلق على نفسي في غرفتي وأقرأ مجلاّتي، ولكنّني قفلتُ راجعا وأنا ألعن نفسي. كانت السحب قد اختفت وصار الحرّ محرقاً. خلعت قميصي وعصبته على رأسي مثل الهنود ثمّ أخذتُ عصا غليظة. إنْ اعترضني فليتشي فسوف أدافع عن نفسي.

حاولت أن أقترب أقلّ ما يُمكن من الحفرة، ولكنّني لم أتمالك نفسي من إلقاء نظرة.

كان الطفل جاثيا على ركبتيْه تحت البطانية وذراعه ممدودة، في الوضعيّة نفسها التي تركته عليها.

شدّتني رغبة شديدة في القفز فوق تلك الصفيحة الملعونة وفي تحطيمها إلى ألف قطعة، ولكنّني على عكس ذلك، جذبتها وغطّيت الحفرة.

عندما وصلتُ البيتَ وجدتُ أمّي تنظّف الأواني. ألقت بالمقلاة في الحوض. ـ لقد عدتَ أخيراً!

كان فكّها يرتعد من الغضب.

ـ هل يُمكن أن أعرف إلى أين تذهب؟ لقد متّ من الخوف... أبوك لم يضربك في المرّة السّابقة. ولكنّك لن تفلت هذه المرّة.

لم أجد الوقت حتّى لاختلاق عذر من الأعذار لأنّها بدأت تطاردني. قفزت من جانب إلى آخر في المطبخ مثل الماعز بينما كانت أختي جالسة إلى الطاولة تنظر إليّ وتهزّ رأسها.

ـ إلى أين ستهرب؟ سأمسكك.

قفزت وراء الأريكة ثمّ مررتُ من تحت الطاولة وتجاوزتُ الكرسي ثمّ زحفتُ على الأرض حتّى وصلت إلى غرفتي واختفيتُ تحت الفراش.

ـ اخرج!

ـ لا. ستضربينني!

ـ صحيح. سأضربك. ولكن إذا خرجتَ من تلقاء نفسك فسأضربك ضَرْبا خفيفًا.

ـ لا، لن أخرج!

ـ طيّب.

انغلق كلاّب قويّ على عرقوب ساقي. تشبّثت بساق السّرير بيديّ الاثنتيْن، دون جدوى. كانت أمّي أقوى من

«ماسيست». وكانت ساق السّرير الملعونة تفلت من أصابعي. فككتُ قبضتي ووجدتُ نفسي بين ساقيْها. حاولت أن أدخل من جديد تحت السّرير لكنّها لم تترك لي مفرّا. جذبتني من بنطلوني وحملتني تحت ذراعها كما لو كنتُ حقيبة.

كنتُ أصيح:

- اتركيني! أرجوك! اتركيني!

جلست أمّي على الأريكة ومدّدتني على ركبتيْها ثمّ نزعت بنطلونني وسّليبي وأنا أثغو مثل الحمل. وبعد أن ألقت بشعرها إلى الوراء انهالت ضربا على إستي.

كانت أمّي دائماً ثقيلة اليد عندما تضرب. وكانت ضرباتها تسقط على الأرداف بطيئة ومُحكمة محدثة صوتا مكتوماً مثل ضربات العصا فوق بساط.

- لقد بحثتُ عنك في كلّ مكان-.خُذ هذه. - لا أحد كان يعرف عنك شيئا-.خُذ هذه. - إنك ستقتلني، أين ذهبتَ كامل اليوم؟- خُذ هذه. - سيظنّون أنّي أمّ لا تصلح لشيء-.خُذ هذه. - وأنّي لا أعرف كيف أربّي أولادي.

وكنتُ أنا أصيح:

- كفى! كفى! أرجوك، أرجوك يا ماما!

وكان الرّاديو يرسل أغنية تقول: «عذاب. عذاب عذب. عذب على القلب».

أذكر هذا كما لو كان بالأمس. وطيلة حياتي، عندما أستمع إلى أوبرا «ترافياتا»، تعود إليّ صورتي وأنا عاري الأرداف، فوق ركبتيْ أمّي، وهي جالسة بكلّ جدّية على الأريكة تُلهب جلدي بالضرب.

سألني سلفاتوري:

ـ ماذا نفعل؟

كنّا جالسيْن على المقعد نرمي بالحجارة سخّان ماء ملقى وسط القمح. ومن يصيبه يحصل على نقطة. وكان الآخرون، في طرف الشارع، يلعبون لعبة التخبئة.

كان اليوم عاصفا. ولكنّ الآن، عند الأصيل، سكنت الرّيح وصار الحرّ خانقا. خلف الحقول، استقرّ شريط من السّحب الشاحبة والمُنهكة.

رميت الحجارة فسقطت أبعد بكثير. ـ لست أدري. لا أستطيع الرّكوب على الدرّاجة لأنّ إستي يؤلمني. ضربتني أمّي.

ـ لماذا؟

ـ لأنّني أعود متأخّرا إلى المنزل. وأنت، هل تضربك أمّك؟

رمى سلفاتوري حجرة وأصاب السخّان محدثا صوتا واضحا. ـ نقطة! ثلاثة مقابل واحد. ثمّ حرّك رأسه. ـ لا. لا تستطيع. إنّها سمينة جدّا.

- إنّك محظوظ. أمّا أمّي فهي على العكس قويّة جدّا وتستطيع أن تعدو أسرع من الدرّاجة.

أخذ يضحك قائلاً:

- مستحيل!

أخذتُ حجارة أصغر ورميتها.في هذه المرّة كدت أنْ أصيب. ـ أقسم لك. ذات مرّة، في لوتشينيانو، كنّا سنركب الحافلة للعودة إلى المنزل، ولكن لما وصلنا كانت الحافلة قد انطلقت فأخذت أمّي تجري بسرعة ولحقتها وأخذت تضرب الباب بجمع يديها إلى أن توقّفتْ.

- لو جرت أمّي لَلَفظتْ أنفاسها في الحين.

قلت له:

- اسمع. هل تذكر عندما قصّت علينا الآنسة دوستاني حكاية معجزة لعازر؟

- نعم.

- حسب رأيك، عندما عاد لعازر إلى الحياة هل كان يعرف أنّه ميّت؟

فكّر سلفاتوري قليلا. ـ حسب رأيي، لا يعرف. كان يظنّ أنّه مريض.

- ولكن كيف فعل لكي يمشي؟ جسم الموتى صلب. هل تذكر ذلك القطّ الذي وجدناه كيف كان صلبا؟

ـ أيّ قطّ؟ ـ رمى الحجارة وأصاب السخّان مرّة أخرى. كان ماهرا في التسديد.

ـ القطّ الأسود، بالقرب من الوادي... هل تذكر؟

ـ نعم، أذكر ذلك. قَسَمَهُ جُمجمة إلى نصفيْن.

ـ عندما يموت أحد ثم يستفيق لا يمشي بصفة عادية ويصير مجنونا لأنّ دماغَه تعفّن ويقول أشياء غريبة، أليس كذلك؟

ـ أظنّ ذلك.

ـ هل يُمكن حسب رأيك أن يُعيد أحد ميّتاً إلى الحياة أم إنّ يسوع المسيح هو الوحيد القادر على ذلك؟

حكّ سلفاتوري رأسه. ـ لا أدري. قصّت عليّ خالتي قصّة واقعية. حدث مرّة أنَّ شخصاً فقد ابنه. صدمته سيّارة وتهشّمت عظامه. ولم يقدر الأب على تحمّل الحياة بعده، صار مريضا يبكي طوال اليوم فذهب إلى ساحر وأعطاه جميع أمواله ليعيد إليه ابنه. فقال له السّاحر: «عد إلى بيتك وانتظر. سيعود ابنك هذه اللّيلة». انتظر الأب ولكن ابنه لم يعد. وفي نهاية الأمر ذهب إلى فراشه. كان على وشك الاستسلام للنوم عندما سمع وقع خطوات في المطبخ. نهض مبتهجاً وشاهد ابنه. كان كلّه مهشّماً، دون ذراع، قد شُجّ رأسه وسال مخّه. وكان يقول لأبيه إنّه حاقد عليه لأنّه، من فرط وَلَعِه بالنّساء، تركه وحيدا وسط الطريق وإنّه كان هو السّبب في هلاكه.

ـ وماذا حدث؟

ـ حدث أنّ الأب أخذ البنزين وأشعل فيه النّار.

ـ حسنا فعل ـ.رميتُ حصاة وأصبت أخيراً السخّان. ـ نقطة! أربعة مقابل اثنتيْنِ.

انحنى سلفاتوري للبحث عن حصاة. ـ هذا أكيد. حسناً فعل.

ـ ولكن هل هي، في رأيك حكاية واقعيّة؟

ـ لا.

ـ وهو رأيي أيضاً.

أفقتُ لأنّني شعرت بحاجة ماسّة إلى التبوّل. كان أبي قد عاد. سمعتُ صوته في المطبخ.

كان هناك أشخاص يتناقشون ويقاطع أحدهم الآخر ويتشاتمون. وكان أبي غاضباً جدّا.

ذلك المساء ذهبنا إلى الفراش فوراً بعد العشاء.

حُمتُ حوالي أمّي مثل فراشة اللّيل لنيل رضاها. بل ساعدتها أيضاً في تقشير البطاطس، ولكنّ وجهها بقي عابسا طول العشيّة. وعند العشاء، ألقت أمامنا الأطباق وأكلنا في صمت بينما كانت هي تتجوّل في المطبخ وتنظر إلى الطريق.

كانت أختي نائمة. جثوتُ على ركبتيّ في الفراش ونظرتُ من النافذة.

كانت الشّاحنة واقفة بالقرب من سيارة كبيرة داكنة اللّون خيشومُها في لون الفضّة. كانت سيّارة مُوسِرين.

كنتُ بحاجة ماسّة إلى التبوّل، ولكن، للوصول إلى غرفة الاستحمام، كان عليّ أن أجتاز المطبخ. وكان وجود كلّ أولئك الأشخاص يُحرجني. كنتُ على وشك أن أبول في سروالي.

نهضتُ واقتربتُ من الباب. أمسكتُ بقبضة الباب وحسبتُ. ـ واحد، اثنان، ثلاثة... أربعة، خمسة وستّة ـ.ثمّ فتحتُ الباب.

كانوا جالسين إلى الطاولة.

إيطلو نطالي أب جُمجمة. بيترو مورا الحلاّق. أنجيلا مورا. فِليتشي. أبي. وعجوز لم يسبق أن رأيته. لعلّه سارجيو صديق أبي.

كانوا يدخّنون. وكانت وجوههم محمّرة ومتعبة وأعينهم ضيّقة جدّا.

وكانت الطاولة مغطّاة بالقوارير الفارغة ومنفضاتِ سجائر مليئة بالأعقاب وعلب سجائر «نتسيونالي» و«ميلد سورتي» وفتات الخبز. وكانت المروحة تدور ولكنْ دون جدوى. كان الحرّ خانقاً والتلفزيون يعمل دون صوت. وكانت هناك رائحة طماطم وعرق ومبيد النّاموس.

وأمّي تعدّ القهوة.

نظرتُ إلى العجوز الذي كان يتناول سيجارة من علبة «دنهيل».

عرفتُ من بعد أنّه يُدعى سارجيو ماتيريا. في ذلك الوقت كان يبلغ من السنّ سبعة وستّين عاماً، وكان قادما من روما حيث عُرف قبل ذلك بعشرين سنة بعمليّة سطو على مغازة لبيع الفرو في مونتي ماريو، وبسرقة أخرى في المقرّ المركزيّ للبنك الفلاحيّ. وبعد السرقة بأسبوع اشترى دكّان «مصلي-أكلة خفيفة» في ساحة بولونيا. كان يريد تبييض النقود التي سرقها، ولكن الشرطة قَبَضَتْهُ يوم التدشين بالذات.ظلّ وقتا طويلا في السّجن، وعندما مُنِحَ السّراح الشرطيّ لحسن سلوكه هاجر إلى جنوب أمريكا.

كان سارجيو ماتيريا هزيلاً أصلع. وكان شعره القليل فوق أذنيه مصفرّا ومشدودا إلى الخلف في شكل ذيل. كان طويل الأنف غائر العينيْن. وكانت لحيته مبيضّة لم تُحلق منذ يوميْن وتلطّخ وجنتيْه المحفورتيْن. كان حاجباه الطويلان الأشقران يبدوان نُتفاً من الشّعر ألصقت فوق جبينه. وكان عنقه مجعّدا ومبقّعا كما لو أنّ أحدا بيّضه بماء «جافيل». كان يرتدي بذْلة زرقاء وقميصا من الحرير بنيّ اللّون بينما استقرّت نظّارتان ذهبيّتان على صلعته اللامّعة. وعلى صدره المشعرّ تظهر سلسلة من الذهب تتوسّطها شمس ويحمل في معصمه ساعة من الذهب الخالص.

كان ثائراً ـ من البداية وأنتم تضيفون الهفوة إلى الهفوة ـ. كان يتكلّم بصفة غريبة. ـ وهذا، ليس إلاّ أحمق... ـ ونظر

إلى فِليتشي كمن ينظر إلى وسخة كلب. ثمّ أخذ مسواكاً وبدأ ينظّف أسنانه المصفرّة.

كان فليتشي منحنياً على الطاولة يرسم بالفرشاة رسوما على السّماط. كان مثل أخيه بالضبط عندما توبّخه أمّه.

حكّ العجوز رقبته. ـ لقد قلت لهم في الشمال إنّه لا يُمكن أن نثق بكم. كانت فكرة مجنونة. وزدتم حماقة على حماقة. أنتم تلعبون بالنّار ـ.ألقى بالمسواك في الطبق. ـ أنا هو المغفّل! إنّني أضيع هنا وقتي... لو سارت الأمور كما ينبغي لكنتُ الآن في البرازيل وليس في هذا المكان الملعون.

حاول أبي أن يتدخّل. ـ سارجيو، اسمع... كن مطمئنّا... الأمور ليست بهذه...

ولكنّ العجوز أسكته. ـ عن أيّ أمور تَتحدَّث؟ عليك أن تصمت لأنّك أتعس من الآخرين. هل تعرف لماذا؟ لأنّك لا تدري شيئاً. إنّك عاجز. كلّ شيء على ما يُرام. أكيد. لقد قمتَ بالحماقة تلو الأخرى. إنّك أحمق.

حاول أبي أن يعارض ثمّ ابتلع الغصّة وخفّض عينيْه.

لقد نعته بالأحمق!

أحسستُ كأنّ شخصا طعنني بخنجر في جنبي. لم يتحدّث أحد أبداً إلى أبي بتلك الطريقة. كان الزعيم في أكوا ترافرسي. وعلى عكس ذلك، ها إنّ ذلك العجوز القذر القادم لا أدري من أين يشتمه وأمام الجميع.

لماذا لا يُطرده أبي؟

وفجأة سكتَ الجميع. صمتوا جميعهم بينما كان العجوز ينظّف من جديد أسنانه وينظر إلى المصباح.

كان مثل الإمبراطور. عندما يغضب الإمبراطور يصمت الجميع. بِمنْ فيهم أبي.

- نشرة الأخبار! إنّها نشرة الأخبار، ـ قال أبُ بربرا ذلك وهو يتقلّب على كرسيّه. ـ ستبدأ النشرة!

قال أبي لأمّي. ـ تِريزا، رفِّعِي في الصوت! رفِّعِي في الصوت! وأطفئي النّور.

في بيتنا، عندما نشاهد التلفزيون، نطفئ دائماً النّور. كان أمراً ضروريّاً. اندفعت أمّي نحو قرص الصوت ومنه إلى زرّ الكهرباء.

انتشرت العتمة في القاعة والتفت الجميع نحو التلفاز، كما يحدث عندما تلعب إيطاليا.

ومن مخبئي وراء الباب، رأيتهم يتحوّلون إلى أشباح داكنة لوّنتها الشّاشة بالأزرق.

كان الصّحفي يتحدّث عن اصطدام بين قطارَيْن وقع بالقرب من فيرانتسي أسفر عن ضحايا، ولكن ذلك كان لا يهمّ أحدا.

كانت أمي تضع السّكر في القهوة. وهم يقولون:

- أنا ملعقة، أنا ملعقتيْن، أنا بِلا سكّر.

قالت أمّ بربرا:

ـ قد لا يتحدّثون عنه. يوم أمس لم يقولوا شيئاً. ربّما لا يهمّ أحداً.

غمغم العجوز. ـ اخرسي أنت!

كانت الفرصة سانحة لكي أذهب للتبوّل. يكفي أن أصل إلى غرفة والديّ، ومن هناك أدخل إلى غرفة الاستحمام وأبول في الظلام.

تخيَّلتُ نفسي نمراً أسود. خرجتُ من القاعة أمشي على أربع قوائم. كنت على بضعة أمتار من النجاة عندما نهض أب جُمجمة من الأريكة وجاء نحوي.

التصقت بالأرضية. أخذ إيطَلو نطالي السجائر من الطاولة وعاد إلى الجلوس على الأريكة. تنفّست الصعداء وواصلت الزّحف. كان الباب قريباً. لقد نجحتُ. وصلتُ. بدأت أهدأ عندما صاح الجميع في نفس اللحظة. ـ ها هو! ها هو! ـ اسكتوا! ـ اسكتوا!

أطَلتُ عنقي من وراء الأريكة وكاد قلبي أن يتوقّف.

كانت تظهر وراء الصّحفيّ صورة طفل.

الطفل الذي في الحفرة.

كان أشقر نظيفاً ممشوط الشعر جميلاً يرتدي قميصاً رُسمت عليه مربّعات. وكان يبتسم ويُمسك بين يديْه قاطرة كهربائيّة صغيرة.

واصل الصّحفيّ قائلاً:

- تتواصل الأبحاث للعثور على الطفل الصغير فِليبّو كَرْدوتشي، ابن المصنِّع لومباردو جيوفاني كردوتشي، الذي وقع اختطافه قبل الآن بشهريْن في بافيا. وتتابع الشرطة الآن والمحقّقون أثرا جديدا يبدو أنّه يحمل إلى...

لم أعد أسمع شيئاً.

كانوا يصرخون ونهض أبي والعجوز واقفيْن.

الطفل يُدعى فِليبّو. فِليبّو كردوتشي.

- ونذيع الآن نداءَ السيّدة لويزا كردوتشي إلى المختطفين تمّ تسجيله هذا الصّباح.

قال أبي:

- والآن ماذا تريد هذه الملعونة؟

وزمجر فِليتشي:

- عاهرة! عاهرة قذرة!

فصفعه أبوه:

- اخرس!

وأضافت أمّ بربرا:

- أحمق!

فصاح العجوز:

- اللّعنة عليكم! كفّوا! أريد أن أسمع!

ظهرت على الشاشة سيّدة أنيقة شقراء في متوسّط العمر، لكنّها جميلة. كانت جالسة على كرسيّ كبير من الجلد في قاعة مليئة بالكتب. كانت لامعة العينيْن، تشدّ على يديْها كما لو خافت أن تفلتا منها. تنفّست بعمق وقالت وهي تنظر إلينا:

- أنا أمّ فِليبّو كردوتشي. أتوجّه إلى مختطفي ابني. أتوسّل إليكم، لا تمسّوه بأذى. إنّه طفل طيّب مهذّب وخجول. أرجو أن تعاملوه بلطف. إنّني متأكّدة من أنّكم تعرفون الحبّ والعطف. حتّى وإن كنتم من غير أطفال، فإنّني متأكّدة أنّكم تتصوّرون ماذا يعني عندما يُبعدهم أحد عنكم. المبلغ الذي طلبتموه مرتفع جدا، ولكنّنا أنا وزوجي مستعدّان لتسليمكم كلّ ما لدينا مقابل عودة ابننا. لقد هدّدتم بقطع أذنه. أرجوكم، أتوسّل إليكم ألاّ تفعلوا ذلك... - جفّفت عينيْها، تنفّست من جديد ثمّ واصلت. - إنّنا سنفعل المستحيل. أرجوكم. سيجازيكم الربّ إذا أنتم تصرّفتم برحمة. قولوا لفِليبّو إنّ أباه وأمّه لم ينسياه وأنّهما يحبّانه.

رسم أبي بيده شكل مقصّ:

- سنقطع أذنيْه الاثنتيْن. الاثنتيْن.

وأضاف العجوز:

- هكذا تتعلّمين، أيتها العاهرة، أن تتحدّثي في التلفزيون!

وعاد الجميع إلى الصياح من جديد.

انسللتُ إلى الغرفة. أغلقت الباب ثمّ صعدتُ على حافة النافذة وتبوّلتُ.

كان أبي والآخرون هم الذين اختطفوا ابن تلك السيّدة في التلفزيون.

كان البول يسقط مدراراً على غطاء الشاحنة وكانت القطرات تلمع تحت نور المصباح الكهربائيّ.

كانت أمّي تقول لي «حذارِ، ميكيلي، لا تخرج في اللّيل. في اللّيل يخرج الرّجل الأسود ويأخذ الأطفال ثمّ يبيعهم للغجر».

أبي هو الرّجل الأسود.

أثناء النهار هو رجل طيّب، لكنّه أثناء اللّيل يتحوّل إلى شرّير.

والآخرون كلّهم غجر. غجر متنكّرون. وذلك العجوز هو ملك الغجر وأبي خادمه. إلاّ أمّي، فهي ليست مثلهم.

كنتُ أتصوّر الغجر نوعاً من الأقزام سريعي الحركة، آذانهم مثل آذان الثعالب وقوائمهم مثل قوائم الدجاج. ولكنّهم على العكس كانوا بشراً عاديين.

لماذا لا يعيدونه إليها؟ ماذا يفعلون بطفل مجنون؟ كانت أمّ فِليبّو كأتعس ما يكون. كان ذلك واضحاً. وإنْ هي

طلبت ابنها بواسطة التلفزيون فذلك لأنّها تحبّه دون شكّ حبّا جمّا، بينما يريد أبي قطع أذنيْه.

ـ ماذا تفعل؟ ـ انتفضتُ. استدرتُ وكدتُ أبولُ على الفراش.

استفاقت ماريا.

أرجعتُ العصفورَ إلى مكانه.

ـ لا شيء.

ـ كنتَ تبول. إنّي رأيتك.

ـ لم أقدر على إمساك نفسي.

ـ ماذا يحدث هناك؟

إن قلتُ لماريا إنّ أبي هو الرّجل الأسود فسوف تُجنّ. هززتُ كتفيّ.

ـ لا شيء.

ـ لماذا يتشاجرون؟

ـ هكذا.

ـ كيف هكذا؟

ارتميتُ على الفراش. ـ إنّهم يلعبون اليانصيب.

ـ اليانصيب؟

ـ نعم. يتشاجرون على من سيسحب الأرقام.

- من الرّابح؟

- سارجيو، صديق أبي.

- جاء؟

- نعم.

- كيف هو؟

- عجوز. هيّا، نامي الآن.

- لا أستطيع. الحرّ شديد. وهناك ضجّة. متى سيذهبون؟

في الطرف الآخر، كان الصّراخ متواصلا.

نزلتُ من النافذة. ـ لا أدري.

- ميكيلي، لماذا لا تقصّ عليّ حكاية، هكذا يأتيني النّوم؟

كان أبي يقصّ علينا حكايات أنيولوتّو في إفريقيا. كان أنيولوتّو كلبا صغيراً متعوّدا على الحياة في المدينة. اختبأ يوما في حقيبة فوجد نفسه خطأ في إفريقيا بين الأسُود والفيلة. كانت هذه الحكاية تعجبنا كثيراً. كان أنيولوتّو قادرا على مواجهة ابن آوى. وكانت صديقته أنثى مرموطا. وفي العادة، عندما يعود أبي من السّفر كان يقصّ علينا حلقة جديدة.

كانت المرّة الأولى التي طلبتني فيها ماريا أن أقصّ عليها حكاية وكان ذلك شرفا كبيراً بالنسبة إليّ. المشكلة هي أنّني لا أعرف حكايات. واعترفتُ لها بذلك:

- إنّني... لا أعرف.

- هذا غير صحيح. تعرف.

- ماذا أعرف؟

- ألا تذكر تلك الحكاية التي قصّتها علينا مرّة أمّ بربرا؟ حكاية صغيّر صغرون.

- آه، صحيح!

- اِحْكِها لي.

- طيّب، لكنّي لا أذكرها جيّدا.

- هل تريد أن تحكيها لي تحت الخيمة؟

- نعم ـ.بهذه الطريقة على الأقلّ لن نسمع الصّياح القادم من المطبخ. تحوّلتُ إلى فراش أختي وجذبنا الغطاء فوق رأسيْنا.

همست أختي في أذني:

- ابدأ.

- إذاً، كان صغيّر صغرون يتسلّق دائماً الأشجار ليأكل الثّمار. ذات مرّة كان فوق الشجرة عندما جاءت السّاحرة

السحّارة وقالت له: «صغيّر صغرون، أعطني إجّاصة لأنّني أموت جوعا». فرمى إليها صغيّر صغرون إجّاصة.

قاطعتني أختي:

ـ لم تقل كيف كانت السّاحرة السحّارة.

ـ صحيح. كانت قبيحة جدّا. رأسها خال من الشعر. لها ذَنَبُ حصان وأنفٌ طويل. وهي طويلة وتأكل الأطفال الصّغار. وزوجها هو الرّجل الأسود...

بينما كنتُ أقصّ عليها ذلك كنتُ أتخيّل أبي وهو يقطع أذنيْ فِليبّو ويضعهما في جيبه. ثمّ يعلّقهما في المرآة العاكسة في الشاحنة مثلما تُعلّق ذنبة الفرو.

ـ هذا غير صحيح. إنّها ليست متزوّجة. قُصّ الحكاية كما ينبغي. إنّي أعرفها.

ـ رمى إليها صغيّر صغرون الإجّاصة فسقطت في روث بقرة.

بدأت ماريا تضحك. كانت تحبّ الحكايات التي تتحدّث عن البراز.

ـ قالت السّاحرة السحّارة مرّة أخرى: «صغيّر صغرون، أعطني إجّاصة لأنّي أموت جوعا». «خذي هذه!» ورمى لها بإجّاصة سقطت في بول البقرة ووسّختها كلّها.

ضحكات أخرى.

ـ طلبت السّاحرة إجاصّة أخرى، وهذه المرّة سقطت في قيء البقرة.

ضربتني أختي بمرفقها. ـ هذا غير موجود في الحكاية. لا يصحّ. لا تكن أبله.

لا يُمكن مع أختي أن تغيّر قليلا في الحكاية. ـ إذاً...

ولكن ماذا يحدث هناك؟ كأنّهم كسروا طبقاً. رفعتُ صوتي. ـ إذاً، نزل صغيّر صغرون من الشجرة وأعطاها الإجاصّة. عند ذلك أمسكته السّاحرة السحّارة ووضعته في كيس مغلق ورمته على كتفها. وبما أنّ صغيّر صغرون كان يأكل الفلفل وهو ثقيل الهضم، كانت السّاحرة تحمله بصعوبة وتتوقّف كلّ خمس دقائق. وعندما أحسّت بحاجة إلى التبوّل تركت الكيس واختبأت وراء شجرة. عند ذلك قطع صغيّر صغرون الرّباط بأسنانه وخرج ثم وضع في الكيس دبّا غسّالاً...

ـ دبّا غسّالاً؟

قلت ذلك عن قصد لأرى إن كانت ماريا تعرفه.

ـ نعم، دبّا غسّالاً.

ـ وما هو؟

ـ نوع من الدّببة. عندما تتركين الأثواب بالقرب من النهر تأتي وتغسلها.

ـ وأين تعيش؟

ـ في الشمال.

ـ وبعد؟ ـ كانت ماريا تعرف أنّ صغيّر صغرون وضع في الكيس حجرة، ولكنّها لم تقل شيئاً.

ـ أخذت السّاحرة السحّارة من جديد كيسَها ورمته على كتفها. وعندما وصلت البيتَ قالت لابنتها: «مرغريتا مرغيريتون، افتحي الباب وهيّئي الماعون لنطبخ صغيّر صغرون». وضعت مرغريتا مرغيرتون الماء فوق النّار وأفرغت فيه السّاحرة السحّارة الكيس فقفز منه الدبّ الغسّال وأخذ يعضّهما، ثمّ خرج إلى السّاحة وأكل الدجاج وبعثر ما يوجد في حاوية الفضلات في كلّ مكان. عند ذلك غضبت السّاحرة غضبا شديدا وخرجت مرّة أخرى للبحث عن صغيّر صغرون. وجدته ورمته في الكيسِ وهذه المرّة لم تتوقّف في أيّ مكان. عندما وصلت المنزلَ قالت لمرغريتا مرغريتون: «خذيه واحبسيه في القبو وغدا سنأكله...»

توقّفت.

استسلمت ماريا للنوم. كانت تلك الحكاية غير جميلة.

5

في الصباح الموالي، وجدتُ العجوز أمامي في قاعة الاستحمام.

فتحتُ الباب وإذا به هناك يحلق ذقنه، منحنياً بكامل طوله على الحوض، ورأسُه ملتصق بالمرآة وعقب السيجارة يتدلّى من شفته. كان يرتدي قميصا داخليّا بالياً وقلصونا كبيرا مصفرّا يبرز منه عودان يابسان دون شعر. وكان يحتذي جزمة قصيرة سوداء مفتوحة السحّاب.

كانت رائحته حامضة يُغطّيها عطر مسحوق «التالك» وغَسول ما بعد الحلاقة.

التفتَ نحوي وحدّق فيّ من رأسي إلى قدمي بعينيْه المُنتفختيْن وأحد خدّيه مغطّى برغوة الحلاقة والموسى في يده. ـ وأنت من تكون؟

وجّهتُ سبّابتي نحو صدري. ـ أنا؟

- نعم، أنت.

- ميكلي... ميكيلي أميترانو.

ـ وأنا سارجيو. صباح الخير.

مدّ يده نحوي. ـ تشرّفنا ـ .هكذا علّموني أن أجيب في المدرسة.

غسل العجوز الموسى في الماء. ـ ألاَ تعرف أنّه يجب أن تدقّ الباب قبل الدخول إلى قاعة الاستحمام؟ لم يعلّمك أبوك ذلك؟

ـ إنّي أعتذر ـ .كنتُ أريد الابتعاد ولكني بقيتُ هناك واقفا كالعمود مثلما يقع أحياناً عندما تُشاهد إنسانا مشوّها وتحاول أن تَتَحاشَى النظر إليه ولكنّك لا تستطيع.

بدأ يحلق رقبته. ـ أنت ابن بينو؟

ـ نعم.

تأمّلَ فيّ من خلال المرآة. ـ هل أنت طفل كتوم؟

ـ نعم.

ـ أحب الأطفال الكتومين. برافو. هذا يعني أنّك لم تأخذ عن أبيك. وهل أنت طفل مطيع؟

ـ نعم.

ـ إذاً اْخرج وأغلق الباب.

هرعتُ إلى أمّي. كانت في غرفتي تنزع الأغطية عن فراش ماريا. جذبتها من ثوبها. ـ ماما! ماما، من هو ذلك العجوز في قاعة الاستحمام؟

ـ ميكيلي، اتركني، ورائي شغل كثير. إنّه سارجيو صديق أبيك. لقد قال لك إنّه سيأتي. سيبقى بضعة أيّام عندنا.

ـ لماذا؟

رفعت الحشيّة ثم قلبتها. ـ لأنّ أباك قرّر ذلك.

ـ وأين ينام؟

ـ في فراش أختك.

ـ وأختي؟

ـ معنا.

ـ وأنا؟

ـ في فراشك.

ـ يعني أنّ العجوز ينام في الغرفة معي؟

تنفّست أمّي بعمق. ـ نعم.

ـ أثناء اللّيل؟

ـ هل أنت أبله؟ ماذا تظنّ، في النهار؟

ـ ألا يُمكن أن تبقى معه ماريا؟ وأنا أنام معكِ.

ـ لا تتفوّه بحماقات ـ.بدأت تفرش الأغطية النظيفة. ـ اذهب خارج البيت. ورائي شغل.

ارتميتُ على الأرض وتشبّثت بساقيْها. ـ ماما، أرجوك. أتوسّل إليك. لا أريد أن أنام مع ذلك الرّجل. أرجوك. أريد البقاء معك، في فراشكِ.

تأفّفت من الضيق. ـ لا يسعُنا الفراش. إنّك كبير.

ـ ماما، أرجوك. سأنزوي في ركن وسأنكمش حتّى أصبح صغيراً جدّا.

ـ قلت لك لا.

ـ أرجوكِ ـ.بدأتُ أتضرّع إليها. ـ أرجوك. سأكون عاقلا. سترَيْن.

ـ كفى ـ.أنهضتني على ساقيّ ثمّ حدّقت في وجهي. ـ ميكيلي، لا أدري ماذا يجب أن أفعل معك. لماذا لا تسمع الكلام أبدا؟ أنا لم أعد أتحمّل. إنّنا نواجه الكثير من المشاكل وأنت تعقّدها أكثر. أنت لا تفهم. أرجوك...

حرّكت رأسي. ـ لا أريد. لا أريد أن أنام مع ذلك الرّجل. أنا لن أنام معه.

نزعت أمّي غلاف الوسادة. ـ الأمور على هذا الحال. إذا كنت غير راض، قُلْ ذلك لأبيك.

ـ ولكنّه سيأخذني معه...

توقّفت أمّي عن إعداد الفراش والتفتت نحوي. ـ ماذا قلت؟ أعد عليّ ذلك.

همستُ. ـ سيأخذني...

حدّقت فيّ بعينيْها السّوداويْن. ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أنتما تريدان أن يأخذني معه... أنتِ تكرهينني. أنتِ شرّيرة. أنت وأبي تكرهانني. أنا أعرف ذلك.

ـ من أخبرك بهذه الأشياء؟- شدّتني من ذراعي ولكنّي تحرّرتُ منها وهربتُ.

نزلت الدّرج وأنا أسمع صوتها يناديني.

ـ ميكيلي! ميكيلي، عد إلى هنا!

ـ أنا لن أنام معه. كلاّ، لن أنام مع ذلك العجوز.

هربتُ إلى الوادي وتسلّقت شجرة الخرّوب.

لن أنام أبداً مع ذلك العجوز. لقد اختطف فِليبّو. وما إن أستسلم للنّوم حتّى يخطفني أنا أيضاً. سيضعني في كيس ويحملني معه.

ثمّ يقطع أذنيّ.

هل يُمكن للإنسان أن يعيش دُون أذنيْن أم إنّه يموت؟ أُذناي عزيزتان عليّ. لا شكّ أنّ أبي والعجوز قد قطعا الآن أذنيْ فِليبّو. وبينما أنا فوق الشجرة صار هو، في حفرته، دُونَ أذنيْن.

تُرى هل وضعوا على رأسه عصابة؟

يجب أن أذهب إليه ويجب أن أحدّثه عن أمّه وأن أقول له إنّها لا تزال تحبّه وإنّها قالت ذلك في التلفزيون حتّى يعرف الجميع ذلك.

لكنّي كنت خائفاً. وإن وجدتُ هناك أبي والعجوز؟

نظرتُ إلى الأفق. كانت السّماء مسطّحة رماديّة تَزن بكلّ ثقلها على حقول القمح. وكانت الهضبة هناك عملاقة مغلّفة بضباب من الحرّ.

قلتُ في نفسي إذا توخَّيْتُ الحَذرَ فلن يتفطّنوا لي.

سمعت صوتا يغنّي. - «أيّها المقاوم، خذني معك ليدفنوني. يا جميلتي، تشاو، تشاو، تشاو».

نظرتُ إلى أسفل. كانت بربرا مورا تجرّ وراءها توقو. ربطتْ في عنقه حبلا وجذبته نحو الماء. - ماما ستغسلك وستصبح نظيفا. هل أنت سعيد؟ نعم، أنت سعيد-.ولكن توقو كان لا يبدو سعيداً. جلس على مؤخّرته وغرس قوائمه وحرّك رأسه محاولا التحرّر من الحبل. - ستصبح جميلا جدّا. وسأحملك إلى لوتشينيانو. سنذهب لشراء المثلّجات وسأشتري لك طوقا-.أخذته وقبّلته ثم نزعت نعليْها وتقدّمت خطوتيْن في الماء الرّاكد وغطّسته في ذلك الطين المتعفّن.

بدأ توقو يتخبّط للتخلّص منها ولكن بربرا كانت تشدّه شدّا محكما من رقبته ومن ذيله. وغطّسته تحت الماء. رأيته وهو يختفي وسط الطّين.

أخذت تغنّي من جديد. ـ «أفقت ذات صباح. يا جميلتي، تشاو! يا جميلتي، تشاو! ياجميلتي تشاو تشاو تشاو».

لم تُخرجه من الماء.

كانت تريد قتله.

صِحتُ بها. ـ ماذا تفعلين؟ اتركيه!

قفزت بربرا وكادت تسقط في الماء. تركت الكلب فظَهرَ من تحت الماء وزحف حتّى وصل حافةَ الغدير.

نزلتُ بقفزة من الشجرة.

سألتني بربرا مغتاظة. ـ وأنت ماذا تفعل هنا؟

ـ ماذا كنتِ تفعلين للكلب؟

ـ لا شيء. كنت أغسله.

ـ هذا غير صحيح. كنت تريدين قتله.

ـ لا!

ـ أَقسمي.

ـ أقسم بالإله وبكلّ القدّيسيّن! ـ وضعت يدها على قلبها. ـ القراد والبرغوث يلتهم لحمه. لذا أردتُ غسله.

كنتُ لا أعرف إنْ كان ينبغي تصديقها.

أمسكتْ توقو الذي كان قابعاً فوق حجرة يحرّك ذنبه سعيدا. لقد نسي المغامرة التعيسة. ـ انظر إن كنت لا تصدّق كلامي ـ.ورفعت أذنه.

ـ يا إلهي، ما أبشع هذا!

حول أذنه وداخل الصّوان كان مليئا بالقراد. كان شيئاً مقزّزا. كانت رؤوسها الصغيرة مغروسة في الجلد، بقوائمها الصغيرة السوداء وكانت بطونها داكنة منتفخة ومستديرة مثل بيضة من الشكلاطة.

ـ أرأيت؟ إنّها تمصّ دمه.

عوّجت أنفي من التقزّز. ـ وهل ينزعها الطّين؟

ـ سمعت طرزان في التلفزيون يقول إنّ الفيلة تتمرّغ في الطّين لتنزع عنها الحيوانات الصغيرة التي تعيش فوق جلدها.

ـ ولكن توقو ليس فيلا.

ـ وما الفارق؟ إنّه على كلّ حال حيوان.

قلت. ـ حسب رأيي يجب انتزاعها. لن يخلعها الطّين.

ـ وكيف؟

ـ باليديْن.

ـ ومن يفعل ذلك؟ أنا لا أتحمّل.

ـ سأحاول أنا ـ.وبإصبعيْن قبضتُ قرادة ضخمة منتفخة. أغمضت عينيّ وجذبت بقوّة. عوى توقو، ولكنّني تمكّنت من اقتلاع الوحش. وضعته على حجرة وتأمّلنا فيه. كان يحرّك قوائمه الصغيرة دون أن يقدر على الحراك لكثرة انتفاخه بالدّم.

ـ مُت، أيّها الهامّة! مُت! ـ سحقته بربرا بحجرة وحوّلته إلى بقعة حمراء.

انتزعتُ منه على الأقلّ عشرين قرادة. كانت بربرا تمسك الكلب كي لا يتحرّك. وبعد قليل ضجرتُ من هذا العمل. وحتّى توقو لم يعد يتحمّل. كان كلّما لمسته يعوي. ـ سننزع عنه البقيّة يوما آخر. ما رأيكِ؟

ـ حسنا ـ.نظرت بربرا حولها. ـ أنا سأمضي وأنت ماذا ستفعل؟

ـ سأبقى هنا قليلا.

ما إن تبتعد حتّى أمتطي درّاجتي وأذهب إلى فِليبّو.

ربطت بربرا الحبل حول عنق توقو.

قالت وهي تبتعد:

ـ إذاً ستقابل فيما بعد؟

ـ نعم.

توقّفت: ـ يقيم غريب في بيتكم، بتلك السيارة الرماديّة. هل هو قريبكم؟

ـ لا.

ـ اليوم جاء أيضاً إلى منزلنا.

ـ ماذا كان يريد؟

ـ لا أدري. تحادث مع أبي ثم ذهبا. يبدو لي أنّ أباك كان معه، في السيارة الكبيرة.

أكيد. لقد ذهبوا لقطع أذنيْ فِليبّو.

قطّبت وجهها ثم سألتني. ـ هل يُعجبك ذلك الرّجل؟

ـ لا.

ـ أنا أيضاً لا يعجبني.

بَقيتْ صامتة. كان يبدولي أنّها لا تريد الذهاب. استدارت نحوي ثم همست بكلمة شكر.

ـ شكرا لماذا؟

ـ ذلك اليوم... لّما تحمّلتَ العقوبة مكاني.

هززتُ كتفيّ. ـ لا عليكِ.

ـ اسمع... ـ احمرّ وجهها. ونظرت إليّ لحظة ثمّ قالت:

ـ هل تريد أن تصبح خطيبي؟

أحسستُ بوجهي وكأنّه يغلي. ـ كيف؟

انحنت تمسّح على توقو. ـ أن نكون خطيبيْن.

ـ أنا وأنت؟

ـ نعم.

طأطأتُ ونظرت إلى طرف قدمي. ـ في الواقع... لا يُعجبني كثيراً.

أطلقت زفيرا كان محبوسا. ـ لا بأس. لسنا حتّى في نفس السنّ ـ.ثمّ مرّرت يدها في شعرها. ـ إذاً، تشاو.

ـ تشاو.

وذهبت تجرّ وراءها توقو.

انتابني خوف شديد من الحيّات، هكذا، على حين غرّة.

لم أفكّر أبداً قبل ذلك اليوم في الحيّات وأنا أتسلّق الهضبة.

عادت إلى ذهني صورة كلب الصّيد الذي عضّته في أبريل حيّة من أنفه. كان المسكين متَمدّدا في ركن من المستودع، يلهث ونظره زائغ ورغوةٌ بيضاء على لثّته ولسانُه خارج فمه.

قال أب جُمجمة. ـ لا نستطيع له شيئاً. لقد نفذ السمّ إلى قلبه.

كنّا جميعا حوله ننظر إليه.

قلتُ:

ـ لِنَحملْه إلى لوتشينيانو، إلى البيطريّ.

ـ خسارة نقود. إنّه لصّ. سيحقنه بالماء ثمّ يعطيك الكلبَ ميّتا. اُخرجوا، هيّا، اُتركوه يموت في راحة ـ.دفعنا إلى الخارج وبدأتْ ماريا تبكي.

كنتُ أشقّ القمح وأتخيّل الحيّات وهي تزحف في كلّ النواحي. كنتُ أقفز مثل السمّان وأضرب الأرض بعصا ضربات قويّة، فيفرّ الصراصير والجراد من كلّ ناحية. كانت الشمس تحرق الرأس والرقبة، والهواءُ ساكنا. وبعيداً، كان السّهل غارقا في ضباب من الحرّ.

عندما وصلت إلى حافة الوادي كنتُ منهكَ القوى. ما يلزمني هو قليل من الظلّ وجرعةٌ من الماء. اتّجهت نحو الغاب الصغير.

إلاّ أنّ شيئاً غير معتاد لفت انتباهي. توقّفت.

كان يصلني خلف زقزقة العصافير وصوت الصراصير وقعُ موسيقى.

أسرعت للاختفاء وراء جذع شجرة.

كنت لا أرى شيئا، ولكنّ الموسيقى كانت تبدو آتية من الدّار.

كان من الأفضل أن أترك المكان بكلّ سرعة، ولكنَّ حبّ الاطّلاع دفعني إلى إلقاء نظرة. وإن توَخَّيْتُ الحَذرَ وبقيت بين الأشجار فلن يَراني أحد. اقتربتُ من السّاحة متوارياً بين أشجار البلّوط.

كان صوت الموسيقى أكثر ارتفاعاً. أغنية مشهورة، سمعتها عديد المرّات، تغنّيها امرأة شقراء صحبة رجل أنيق. رأيتهما في التلفزيون. أغنية تُعجبني.

في أحد أطراف الساحة توجد صخرة مغطّاة بنتف خضراء من الطحلب. بدت لي مخبأً ملائماً وتسلّلت وراءها.

أطلتُ عنقي وألقيتُ نظرة.

كانت الفيات 127 أمام الدّار، سيّارة فيليتشي، أبوابُها مفتوحة وكذلك صندوق الأمتعة. وكانت الموسيقى آتية من راديو السيّارة، بصوت رديء كأنّه نعيق.

خرج فيليتشي من الإسطبل. كان في سليب، ويحْتَذِي جزمة من البلاستيك وحول عنقه منديله الأسود المعهود. كان يرقص مفتوح الذراعيْن ويتلوّى مثل راقصة شرقيّة.

كان يغنّي بصوت أنثويٍّ مع الرّاديو. ـ «لا تتغيّري أبداً. لا تتغيّري أبداً. لا تتغيّري أبداً...»

ثمّ يتوقّف ليواصل بصوت خشن. ـ «أنت أمسي، وأنت يومي، وأنت ديمومتي. وقلقي».

وبصوت أنثوي. ـ «الآن، وبعد الآن، حاول معي. سمّني عذاب، هيّا. ماذا تنتظر»؟

ثمّ أشار إلى أحد. ـ «أنت مثل الرّيح الذي يحمل الكمان والورود».

ـ «كلمات، كلمات، كلمات...»

ـ «اسمع».

ـ «كلمات، كلمات، كلمات...»

ـ «أرجوك».

كان بارعاً. يقوم بكلّ الأدوار. دور الرجل ودور المرأة. وعندما يلعب دور الرّجل كان يتقمّص الخشونة. العينان نصفُ مغمضتيْن والفمُ نصف مفتوح.

- «كلمات، كلمات، كلمات...»

- «أقسم لك».

ثم ارتمى على الأرض وسط الغبار وبدأ يقوم بتمرين بدني: ثني على اليدين الاثنتيْن ثمّ بيد واحدة ثمّ بصفعة، ويغنّي وهو منقبض.

- «كلمات، كلمات، كلمات، كلمات، كلمات، ليست إلاّ كلمات، كلمات بيننا».

تركته وذهبت في حال سبيلي.

في أكوا ترافَرسي وجدتُ الآخرين يلعبون لعبة «واحد، اثنيْن، ثلاثة، نجمة».

كان جُمجمة وبربرا وريمو واقفين تحت الشمس في وضعيات غريبة.

صاح سلفاتوري ووجهُه إلى الحائط. ـ واحد، اثنيْن، ثلاثة، نجمة! ـ واستدار فرأى جُمجمة.

كان جُمجمة يغالي دائماً. عوض القيام بثلاث خطوات، يخطو خمس عشرة خطوة ويخسر. ثمّ يرفض ذلك. تقول له إنّك رأيته، ولكنّه لا يسمع. بالنسبة إليه الجميعُ يغشّ إلاّ

هو فهو قدّيس. وإذا قلت له شيئاً ما يأخذ في تعنيفك. كان بطريقة أو بأخرى يربح دائماً. كان يجد طريقة للرّبح حتى ولو لعب بالدّمى.

مررتُ بين المنازل وأنا أدير مداس الدراجة ببطء. كنت متعباً وغاضباً. لم أتمكّن من إعلام فِليبّو بما قالت أمّه.

كانت شاحنة أبي واقفة حِذْوَ المنزل بجانب سيّارة العجوز الضخمة الرّمادية.

كنتُ جائعا. خرجتُ دون أن أتناول فطور الصباح. ولكنّني كنت لا أرغب كثيراً في الصّعود.

اقترب مني جُمجمة. ـ أين اختفيت؟

- قمت بجولة.

- تريد أن تبقى دائماً وحدك. أين تذهب؟- كان لا يعجبه أن تبقى وحدك تهتمّ بشؤونك.

- إلى الوادي.

حدّق فيّ بريبة. ـ لماذا؟

هززت كتفيّ. ـ لا شيء. تسلّقت الشجرة.

ارتسمت على وجهه علامة اشمئزاز كمَنْ تناول تفّاحة متعفّنة.

أقبل توقو وبدأ يعضّ.عجلتيْ الدرّاجة.

طرده جُمجمة بركلة. ـ اذهب، أيّها الكلب القذر. إنّه يثقب العجلات بأنيابه الملعونة.

هرب توقو إلى بَربرا التي كانت جالسة على الحائط القصير وقفز بين ذراعيْها. حيّتني بربرا ورفعتُ يدي ردّا على التحيّة.

تابع جُمجمة المشهد. ـ لا تقل لي إنّك صِرت صديق الدبّة؟

ـ لا...

حدّق فيّ لِيعرفَ إنْ كنت أقول الحقيقة.

ـ لا، أقسم لك!

تليّن وقال ـ حسناً. هل تريد أن تلعب معنا الكرة؟

لم أكن أرغب في اللعب ولكنّني لو رفضت فسوف يغضب.

ـ ألا ترى أنّ الحرّ شديد؟

أمسك بمقود الدراجة. ـ إنّك تتصرّف مثل الأحمق، هل تعرف ذلك؟

تملّكني الخوف. ـ لماذا؟ ـ بإمكان جُمجمة أن يتغيّر بصفة مفاجئة وأن يقرّر إسقاطك من الدرّاجة وإشباعك بالرّكل.

ـ هكذا.

لحسن الحظ أنْ ظهر سلفاتوري: كان يضرب الكرة برأسه ثمّ أوقفها بقدمه ووضعها تحت ذراعه. ـ تشاو، ميكيلي.

ـ تشاو.

سأله جُمجمة. ـ هل تريد أن تلعب؟

ـ لا.

غضب جُمجمة. ـ إنّكما ملعونان قذران! إذاً، هل تعرفان ماذا سأفعل؟ سأذهب إلى لوتشينيانو ـ.وذهب وهو يستشيط غضباً.

انفجرنا ضاحكيْن ثمّ قال لي سلفاتوري:

ـ أنا ذاهب إلى المنزل. هل تريد أن تأتي معي لنلعب لعبة السبّوتيو[8]؟

ـ لا رغبة لي في اللعب.

ضربني ضربة خفيفة على كتفي. ـ حسنا. سنلتقي من بعد. تشاو ـ.وابتعد وهو يدفع الكرة أمامه بقدمه.

كان سلفاتوري يُعجبني. وما يُعجبني فيه هو أنّه يبقى دائماً هادئا ولا يغضب كلّ خمس دقائق بينما مع جُمجمة يجب أن تفكّر سبع مرّات قبل أن تتفوّه بكلمة.

عدوتُ بالدرّاجة إلى أن وصلت إلى الحنفيّة.

---

(8) – لعبة Subbuteo، وهي عبارة عن مقابلة كرة قدم مصغّرة بلاعبين من البلاستيك يحرّكهم لاعبان بالأصابع (المترجم).

وجدتُ ماريا قد أخذت دستا مطليا تستعمله حوض سباحة لدميتيْها «باربي».

كانت لها دميتان، واحدة عادية والأخرى مسودّة دون شعر وبذراع مبتور.

وكنتُ أنا الذي جعلها في تلك الحالة. ذات مساء شاهدت في التلفزيون قصّة جان دارك فأمسكتُ بالدمية وألقيتها في النّار صائحا:

ـ احترقي أيّتها السّاحرة! احترقي!- وعندما رأيتُ أنّها تحترق بالفعل أخذتها من ساقها ورميتُها في قدر الحساء.

حرمتني أمّي أسبوعاً من الدرّاجة وأرغمتني على أكل الحساء كلّه وحدي. وتوسّلت ماريا أن يشتروا لها باربي أخرى. ـ في عيد ميلادك. إلى أن يحين ذلك آلعبي بهذه. وإنْ غضبتِ من أحد فاغضبي على أخيك الأحمق ـ. ورضخت ماريا للأمر. كانت باربي الجميلة تُدعى «باولا» وباربي المحروقة «مسكينة».

نزلت من الدرّاجة. ـ تشاو، ماريا.

وضعت يدها على جبينها اتّقاء من الشمس. ـ بابا سأل عنك... وماما غاضبة.

ـ أعرف ذلك.

أخذت «مسكينة» ووضعتها في حوض السباحة. ـ إنّك تغضبها دائماً.

- إنّي ذاهب إلى المنزل.

- قال بابا إنّه مشغول بالحديث مع سارجيو ولا يريدنا حوله.

- ولكنّي جائع...

أخذت مشمشة من جيب البنطلون. ـ هل تريدها؟

- نعم ـ.كانت ساخنة وغير طازجة، ولكنّني التهمتها وقذفت بالنواة بعيدًا.

خرج أبي إلى الشرفة وعندما رآني ناداني. ـ ميكيلي، تعال ـ.كان في قميص وبنطلون قصير.

لم أكن أريد التحادث معه. ـ لا أستطيع، إنّي مشغول!

أشار إِليَّ بيده أن أصعد. ـ تعالَ هنا.

أسندتُ الدرّاجة إلى الحائط وصعدت السلّم مطأطِئ الرأس مسلّما أمري لله.

كان أبي جالسا على الدّرجة الأخيرة. ـ اجلس هنا، بالقرب منّي ـ.أخرج من جيب قميصه علبة سجائر «ناتسيونالي». أخذ منها سيجارة. حشرها في المبسم وأشعلها.

- يجب أن نتحادث أنا وأنت.

لم يَبْدُ لي غاضبا جدّا.

بقينا صامتيْن ننظر وراء السطوح إلى الحقول الصفراء.

سألني. ـ الحرّ شديد، أليس كذلك؟

ـ شديد.

بعث سحابة من الدخان. ـ أين تذهب كامل اليوم؟ هل يُمكن أن أعرف ذلك؟

ـ لا أذهب إلى أيّ مكان.

ـ هذا غير صحيح. هناك أماكن تذهب إليها.

ـ أتجوّل هنا وهناك حول المنزل.

ـ وحدك؟

ـ نعم.

ـ ماذا جرى؟ لم تُعدْ تحبّ البقاء مع أصدقائك؟

ـ كلاّ، أحبّ ذلك. ولكنّني أحبّ أيضاً الانْفرادَ.

هزّ رأسه بالموافقة وأنظاره تائهة في الفراغ. نظرتُ إليه. كان يبدو أكبر سنّا. بين شعره الأسود، ظهرت بعضُ الشعرات البيضاء وغارت وجنتاه وبدا كأنّه لم ينم منذ أسبوع.

ـ لقد أغضبت أمّك.

قطفتُ غصنا صغيراً من الإكليل من المزهريّة وبدأت أديره بين يديّ. ـ لم أفعل ذلك عن قصد.

ـ قالت لي إنّك لا تريد أن تنام مع سارجيو.

ـ لا يعجبني ذلك...

ـ ولماذا؟

ـ لأنّي أريد أن أنام معكما في فراشكما. كلّنا معاً. إذا تلاصقنا فإنّ الفراش يسعنا.

ـ وماذا سيظنّ سارجيو لو رفضت أن تنام معه؟

ـ لا يعنيني.

ـ لا يُعامل الضيوف بهذه الطريقة. تخيّل أن تذهب ضيفا عند عائلة ولا يريد أحد أن ينام معك. ماذا ستظنّ؟

ـ لن يعنيني ذلك. أنا أريد غرفة لي وحدي مثل النزل.

بدت عليه شبه ابتسامة وبإصبعيْن رمى بالعقب في الشارع.

سألته:

ـ سارجيو رئيسُك؟ لهذا تريده أن يُقيمَ عندنا؟

نظر إليّ وقد فوجئ. ـ كيف رئيسي؟

ـ نعم، هو يقرّر كلّ شيء.

ـ لا، لا يقرّر شيئاً. إنّه صديقي.

لم يكن ذلك صحيحاً. لم يكن العجوز صديقه. كان رئيسه. كنت أعرف ذلك. كان بإمكان العجوز أن ينعته بعبارات لاذعة.

ـ بابا، وأنت، أين تنام عندما تذهب إلى الشمال؟

ـ لماذا؟

ـ هكذا.

- في النزل، حيث أمكن، في الشاحنة أحياناً.

- ولكن في الشمال، ماذا يحدث أثناء اللّيل؟

نظر إليّ وتنفّس طويلا ثم سألني:

- ماذا جرى؟ لست سعيدا أنّي عدت إلى المنزل؟

- بلى.

- قل الحقيقة.

- بلى، إنّي سعيد.

ضمّني بين ذراعيه بقوّة. ووصلتني منه رائحة العرق. همس في أذني:

- ضُمّني إليك، ميكيلي، ضُمّني بقوّة! أريد أن أشعر بقوّتك.

ضممته بكلّ ما لديّ من قوّة وأوشكتُ على البكاء. سالت دموعي وانقبض حلقي.

- ماذا تفعل، تبكي؟

شهقتُ. ـ كلاّ، لست أبكي.

أخرج من جيبه منديلاً منكمشا. ـ امسح تلك الدّموع، وإلاّ رآك أحد وظهرت بمظهر الأنثى. ميكيلي، في هذه الأيّام لديّ شغل كثير. لذا يجب أن تكون مطيعا. أمّك متعبة. كفّ عن هذه الرغبات الصبيانيّة. كن عاقلا، وما إن أَنتهي من شغلي أحملك إلى البحر. وسنركب البيدَلو.

سألته وأنا أزفر:

ـ ما البيدَلو هذا؟

ـ إنّه مركب صغير. عوضا عن المجدافيْن، يعمل بواسطة دوّاستيْن مثل الدرّاجة.

جفّفت دموعي. ـ هل يُمكن أن نصل به إلى إفريقيا؟

ـ يجب أن تدوّس كثيراً للوصول إلى إفريقيا.

ـ إنّني أريد الرّحيل عن أكوا ترافَرسي.

ـ ماذا جرى، لم تعد تَرُوقُكَ؟

أرجعت له منديله. ـ لنذهبْ إلى الشمال.

ـ لماذا تريد أن ترحل؟

ـ لست أدري... لم أعد أحبّ الإقامةَ هنا.

نظر بعيداً. ـ سنذهب إلى الشمال.

اقتلعت غصنا صغيراً آخر من الإكليل. كان طيّب الرّائحة. ـ هل تعرف الدّببة الغسّالة؟

قطّب حاجبيْه. ـ الدّببة الغسّالة؟

ـ نعم.

ـ لا، ما هي؟

ـ لا شيء... هي دِببة تغسل الأثواب...، لعلّها غير موجودة.

استقام أبي واقفاً وتكسّل لتليين ظهره. ـ آه! اسمع، إنّي عائد إلى المنزل. يجب أن أتحادث مع سارجيو. لماذا لا تلعب الآن وبعد قليل نفطر؟- فتح الباب وتأهّب للدخول، ثمّ توقّف. ـ ماما أعدّت طبقا من التّاليَتيلّي[9]. بعد الأكل، اطلب منها العفو.

في تلك اللحظة وصل فِليتشي. أوقف الفيات 127 بضغطة قويّة على الفرامل وسط سحابة من الغبار ونزل منها كما لو كان فيها جيش من الزنابير.

صاح به أبي:

ـ فليتشي! اصعد لحظة.

أشار فليتشي بالإيجاب. ولما مرّ قريبا منّي ضربني على رقبتي قائلاً:

ـ كيف حالك، يا مغفّل؟

الآن لا يوجد أحد مع فِليبّو.

كان سطل البراز مليئاً والقدر الصغيرة فارغة من الماء.

وكان فِليبّو يُخفي رأسه تحت البطانية ولم يتفطّن حتّى إلى نزولي في الحفرة.

(9) – نوع من المقرونة يُصنع عادة في البيت في المناسبات أو يوم الأحد يحبّه الصّغار كثيرًا (المترجم).

بدا لي عرقوبه أسوأ حالا، زاد في الانتفاخ وأصبح بنفسجيّ اللّون. وكان الذباب يتجمّع فوقه.

اقتربتُ منه. ـ يا؟ ـ لم يبدُ أنّه سمعني. ـ يا؟ هل تسمع؟- اقتربتُ منه أكثر. ـ هل تسمعني؟

زفر قائلاً: ـ نعم.

إذاً، لم يقطع أبي أذنيْه.

ـ اسمك فِليبّو، أليس كذلك؟

ـ نعم.

كنتُ قد أعددتُ الخطاب أثناء الطريق. ـ جئتُ لأقول لك شيئاً هامّا. إذاً... قالت أمّك إنّها تحبّك. وقالت إنّها مشتاقة إليك. قالت ذلك أمس في التلفزيون، في نشرة الأنباء. وقالت إنّه لا ينبغي أن تنشغل... وإنّها لا تريد فقط أذنيْك بل تريدك كاملا.

لم يجب.

ـ هل سمعتني؟

لم يجب.

كرّرتُ قولي. ـ إذا... قالت أمّك إنّها تحبّك. وإنّها مشتاقة إليك. قالت ذلك أمس في التلفزيون. وقالت لك لا تنشغل... وإنّها لا تريد أذنيْك فحسب.

ـ ماما ماتت.

ـ كيف ماتت؟

أجاب من تحت البطانية. ـ ماما ماتت.

ـ ماذا تقول؟ إنّها حيّة. رأيتها بعيْني في التلفزيون...

ـ لا، إنّها ماتت.

وضعت كفّي على صدري. ـ أقسم برأس أختي ماريا أنّها على قيد الحياة. رأيتها ليلة أمس. كانت في التلفزيون. وهي بصحّة جيّدة. إنّها شقراء نحيفة متقدّمة قليلا في السنّ... ولكنّها جميلة. كانت جالسة على كرسيّ كبير بذراعين بنيّ اللون، كبيرٍ مثل كرسيّ الملوك. وخلفها لوحة فيها رسمٌ لسفينة. صحيح أم لا؟

ـ نعم. اللوحة بالسفينة... ـ كان يتكلّم ببطء وكانت الكلمات مخنوقة تحت الغطاء.

ـ وعندك قطار كهربائيّ صغير. ومعه قاطرة بمدخنتها. لقد رأيته.

ـ لم يعد لي قطار. انكسر وألقت به طاطا في الفضلات.

ـ طاطا؟ من هي طاطا؟

ـ ليليانا. ماتت هي الأخرى. وبيبّينو أيضاً مات. وبابا مات. وجدّتي ماريانّا ماتت. وأخي مات. ماتوا كلّهم. ماتوا كلّهم وصاروا يعيشون في حُفر مثل هذه. وأنا في واحدة من هذه الحُفر. جميعنا في الحُفر. العالم مكان مملوء بالحفر بداخلها

يوجد الموتى. والقمر أيضاً كرة مملوءة بالحُفر وبداخلها أموات آخرون.

-ليس صحيحاً-.ربّتُّ بيدي على ظهره. - لا نرى شيئاً. القمر عادي، وأمّك لم تمت. لقد رأيتها بعيْني. يجب أن تصغي إليّ.

ظلَّ بعض الوقت صامتا، ثمّ سألني:

-لماذا لا تأتي إذاً إلى هنا؟

حرّكتُ رأسي. - لستُ أدري.

-لماذا لا تأتي لتأخذني معها؟

-لستُ أدري.

-ولماذا أنا هنا؟

-لست أدري-.ثمّ أضفت بصوت خافت لا يصل إلى سمعه:

-بابا وضعك هنا.

ركلني بساقه. - أنت لا تعرف شيئاً. اتركني وحالي. أنت لست الملاك الحارس. أنت شرّير. اذهب من هنا-. وبدأ يبكي.

لم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل. - أنا لستُ شرّيرا. أنا لا دخل لي بهذا. لا تبْكِ، أرجوك.

واصل الرّكل برجليه. - اذهب عنّي. اذهب عنّي.

- اسمع...

- اذهب!

استقمتُ واقفاً. - إنّني جئتُ إلى هنا من أجلك وقطعت كلّ هذا الطريق مرّتيْن وأنت تطردني. حسنا، سأذهب، ولكنّني إن ذهبتُ فلن أعود. أبداً. ستبقى هنا وحدك للأبد وسيقطعون أذنيْك الاثنتيْن-.أمسكتُ بالحبل وبدأتُ أصعد. كنتُ أسمعه يبكي. كان يبدو كأنّه يختنق.

خرجتُ من الحفرة وقلتُ له:

- وأنا لستُ ملاكك الحارس!

- انتظر...

- ماذا تريد؟

- ابق...

- لا. لقد أمرتني بالذهاب والآن سأذهب.

- أرجوك. ابق.

- لا!

- أرجوك. خمس دقائق فقط.

- حسنا. خمس دقائق. ولكن، إذا تصرّفت من جديد كالمجنون فسأذهب.

- لن أتصرّف كالمجنون.

نزلتُ في الحفرة. لمسَ قدمي.

سألته:

ـ لماذا لا تخرج من تحت البطانية؟ ـ ثمّ التصقتُ بجانبه.

ـ لا أستطيع، إنّي أعمى...

ـ كيف أعمى؟

ـ عيناي لا تنفتحان. أريد فتحهما لكنهما تبقيان مغلقتيْن. أرى في الظلام. في الظلام لستُ أعمى ـ.تردّد قليلا وأضاف:

ـ هل تعرف، لقد قالوا لي إنّك ستعود.

ـ مَن؟

ـ الدِّببة الغسّالة.

ـ كفانا من الدِّببة الغسّالة هذه! لقد قال لي بابا إنّها غير موجودة. أنت عطشان؟

ـ نعم.

ـ فتحتُ المحفظة وأخرجتُ القارورة. ـ خذ.

رفع البطانية. ـ تعال.

تقزّزت من ذلك. ـ تحت البطانية؟- كنتُ أشعر بنفور، لكنْ بهذه الطريقة سيكون بإمكاني أن أرى إن كانت أذناه في مكانيْهما.

بدأ يتحسّسني. ـ كم عمرك؟- كان يمرّر أصابعه على أنفي وعلى فمي وعلى عينيّ.

بقيتُ كالمُصاب بالشّلل. ـ تسع سنوات. وأنت؟

ـ تسع سنوات.

ـ متى وُلدت؟

ـ في 12 سبتمبر. وأنت؟

ـ في 20 نوفمبر.

ـ ما اسمك؟

ـ ميكيلي. ميكيلي أميترانو. في أيّ قسم أنت؟

ـ في السنة الرّابعة. وأنت؟

ـ في السنة الرابعة.

ـ مثلي تماماً.

ـ مثلي تماماً.

ـ أنا عطشان.

أعطيته القارورة.

شرب. ـ ماء لذيذ. تريد أن تشرب؟

شربتُ أنا أيضاً. ـ هل أستطيع أن أرفع قليلا البطانية؟ ـ كنتُ أختنق من الحرّ ومن الرّائحة الكريهة.

ـ قليلا.

جذبتها ما يكفي لأخذ بعض الهواء ولِرُؤْيَةِ وجهه.

كان وجهه مسودًّا. متّسخا. وكان شعره الأشقر النحيف ملتصقا بالتراب حتّى صار عجينة يابسة وجافّة وألصق الدّم المتجمّد شفرتيْه. وكانت شفتاه مسودّتيْن ومشقّقتيْن ومنخراه مسدوديْن بالمخاط والأوساخ.

سألته:

- هل يُمكن أن أغسل وجهك؟

مدّ عنقه ورفع رأسه وانفتحت شفتاه الدّاميتان على ابتسامة. لقد صارت أسنانه كلّها مسودّة.

خلعتُ قميصي وبلّلته بالماء وبدأت أنظّف وجهه. وحيث أمرّر القميص تظهر بشرته البيضاء ناصعة كما لو كانت شفافة، مثل لحم السمك المسلوق. في البداية على الجبين ثمّ على خدّيه.

وعندما بلّلت عينيْه قال:

- بلطف. إنّهما تؤلمانني.

- سأفعل بلطف.

لم يكن من السّهل تليين الجُلط. كانت يابسة وسميكة. ولكنّني كنتُ أعرف أنّها مثل جُلط الكلاب. عندما تنتزعها تعود الرؤية للكلاب. واصلت بلّها وتليينها إلى أن انفتحت شفرةٌ سرعان ما انغلقت من جديد. لحظة واحدة كانت كافية لكي يجرح شعاع النّور عينه.

صاح:

ـ آه آه آه آيا!- وأخفى وجهه تحت البطانية مثل النعامة.

هززته بعنف. ـ أرأيتَ؟ أرأيت؟ لست أعمى! لست أعمى بالمرّة!

ـ لا أستطيع تركهما مفتوحتيْن.

ـ لأنّك ظللت دائماً في العتمة. ولكنّك تُبْصِرُ، أليس كذلك؟

ـ نعم! إنّك صغير.

ـ لست صغيراً. لي تسع سنوات.

ـ شعرك أسود.

ـ نعم.

كان الوقت متأخّراً. وكان ينبغي أن أعود إلى المنزل.
ـ الآن، يجب أن أَمضي. سأعود غدا.

أجاب ورأسه تحت البطانية:

ـ تعدني بأن تعود؟

ـ أعدك

عندما دخل العجوز غرفتي كنتُ استعدّ لنصب الفخّ للوحوش.

عندما كنتُ صغيراً كنتُ أحلم دائماً بالوحوش. وحتّى الآن، وأنا كبير، يحدث لي ذلك، ولكنّني لم أعد أنجح في التحايل عليها.

كانوا ينتظرون فقط أن أنام ليخيفوني.

إلى أن جاءتني ذات ليلة حيلة للتحرّر من الأحلام المخيفة.

وجدت مكانا أسجن فيه تلك المخلوقات المشوّهة والمُرعبة وأنام مطمئنّا.

أرتخي وأنتظر أن يداعب النّوم أجفاني. وفي اللحظة التي أوشك فيها على الاستسلام للنوم، في تلك اللحظة بالذات، أَتَخَيَّلُهُمْ يمشون كلّهم، معاً، في درب يصعد مثل موكب العذراء في لوتشينيانو.

السّاحرة السحّارة محدودبة ومجعّدة. والإنسان الذئب على قوائمه الأربع، بملابسه الممزّقة وأنيابه الناصعة. والرجل الأسود، ظلّ ينساب كالثعبان بين الأحجار. ولعازر، آكل جُثث تلتهمه الحشرات وتغطيه سحابة من الذباب. والغول، عملاق بعينيْه الضيّقتيْن وحوصلته، وحذائه الضخم وعلى كتفيْه كيس مملوء بالأطفال. والغجر، أشباه ثعالب تمشي على قوائم دجاج. وصاحب الإسطوانة، رجل يرتدي بزّة عمل زرقاء ومعه إسطوانة يرميها بعيداً. والرجل السّمكة الذي يعيش في أعماق البحر ويحمل أمّه على كتفيه. والطفل الأخطبوط المولود بمجسّات عوضًا عن الساقيْن والذراعيْن.

كانوا يتقدّمون جميعًا في صفّ نحو مكان غير محدّد. كانوا مريعين. وبالفعل، لا يتوقّف أحد للنظر إليهم.

وفجأة تظهر حافلة كلّها مذهّبة ومزيّنة بالأجراس والأضواء الملوّنة. وفوق الحافلة مضخّمُ صوت يصيح «سيداتي سادتي، اركبوا حافلة الأماني! اركبوا هذه الحافلة الرائعة التي ستحملكم إلى السّيرك دون أن تدفعوا فلسا واحدا! اليوم، السّيرك مجاني! اصعدوا! اصعدوا!»

وهؤلاء الوحوش، سعداء بهذه الفرصة غير المنتظرة، يركبون الحافلة. وعند هذا الحدّ أتخيّل بطني وهو ينفتح، جرح طويل يتّسع ويدخلون فيه مطمئنّين.

يظنّ أولئك الأغبياء أنّه السّيرك. عند ذلك أغلق الجرح ويسقطون في الفخّ. الآن يكفي أن أنام وراحتاي على بطني لكي لا تزورني الأحلام المخيفة.

لم ألبث أن أوقعتهم في الفخّ حين دخل العجوز. سهوتُ ونحّيتُ يديّ فهربوا. أغمضت عينيّ وتظاهرتُ بالنّوم.

كان العجوز كثير الضجّة يفتّش داخل حقيبته، يسعل ويتمخّط.

أخفيتُ رأسي تحت ذراعي ونظرتُ لأرى ما يفعل.

كان شعاع من النور يضيء جانبا من الغرفة. وكان العجوز جالسا على فراش ماريا، يابسا، محدودبا وقاتما. كان يدخّن. وعندما يجذب نفسا كنتُ أرى ذلك الأنفَ المعقوف وتَيْنِك العينيْن الغارقتيْن تتلوّنان بالأحمر. كنتُ

أشمّ رائحة الدخان مختلطة برائحة عطر الكولونيا. وكان من حين إلى آخر يحرّك رأسه يمينا وشمالا بالنفي. ثمّ ينفخ كما لو كان يتخاصم مع أحد.

ثم بدأ يخلع أثوابه. نزع الحذاء والجوارب، والبنطلون والقميص، وبقي في سليب. كان جلده مرتخيا ومعلّقا فوق عظامه الطويلة كما لو أنّه خيط فوقها. ألقى بعقب السيجارة من النافذة فغاب في الظلام مثل قبس مشتعل. حلّ شعره وبدا مثل طرزان شيخًا مريضًا. ثمّ تمدّد على الفراش.

الآن لم أعد أراه، ولكنّه كان قريباً منّي، على أقلّ من نصف متر من قدميّ. لو مدّ ذراعه فَسيمسكني من عرقوب ساقي. تكوّرتُ على نفسي مثل القنفذ.

لا يجب أن أنام. إن نمتُ فسوف يأخذني. يجب أن أجد حيلة مثل أن أضع المسامير في فراشي لأبقى صاحيا.

تنحنح ثمّ قال:

- أختنق من الحرّ هنا. كيف تفعل لتحمّل هذا؟

توقّفت عن التنفّس.

- أعرف أنّك لست نائماً.

إنّه يريد خداعي.

- أنت طفل ماكر...، لا أعجبك، أليس كذلك؟

كان بودّي أن أجيبه «كلاّ، إنّك لا تعجبني!». ولكنّني لا أستطيع. أنا نائم. وحتّى لو كنتُ مستيْقظا فلن أجد الشجاعة لقول ذلك.

- حتّى ابناي كانا لا يحبّانني-.رفع من الأرض قارورة وضعتْها أمّي خصّيصا له وشرب منها جرعتيْن. - هذا الماء ساخن مثل البول. كان لي ولدان. أحدهما على قيد الحياة، لكنّه كما لو كان ميّتا. والآخر ميّت، لكنّه كما لو كان على قيد الحياة. الحيّ يُدعى جيوليانو. إنّه أكبر منك، ولا يعيش في إيطاليا. رحل. ذهب إلى الهند... منذ خمس سنوات. يعيش الآن مع طائفة مَلأوا دماغه بالخزعبلات. حلق رأسه ولبس إزارا برتقالي اللّون وحَسِبَ نفسه هنديّا هو الآخر. يظنّ أنّ الإنسان يعيش مرّات عديدة. يخدّر نفسه مثل الكلب وسيموت مثل الكلب هنالك. والأكيد أنّني لن أذهب للعودة به...

شدّته نوبة من السّعال جافّة، تشقّ الرئتيْن. استعاد أنفاسه ثمّ واصل. - فرانشسكو مات منذ خمس سنوات. في أكتوبر يكون عمره اثنتيْن وثلاثين سنة. ابني ذاك كان حقيقة طيّبا، وكنتُ أحبّه-.أشعل سيجارة أخرى. - تعرّف يوما على واحدة. رأيتها ولم ترق لي، من اللحظة الأولى. كانت تقول إنّها مدرّسة رياضة. عاهر... شقراء هزيلة... نصف سلافيّة. السلافيّون أتعس عباد الله. لقد أوقعتْه في الفخّ. كانت فقيرة ورأت فرانشسكو فتشبّثت به لأنّ فرانشسكو كان فتى طيّبا، سخيّا. وفي النهاية كانوا كلّهم يسخرون منه. من يدري ماذا

فعلت له للاستحواذ على عقله على ذاك النحوِ؟ بعد ذلك قصّوا عليّ أنّ تلك البغيّ كانت تتعامل مع شبه ساحر. وذلك الملعون القذر رماه بسحر. والاثنان أهلكاه. أضعفاه وصار هزيلا. كان شابّا قويّا وأصبح هيكلا عظميّا لا يقف على ساقيْه. ذات يوم جاءني وقال إنّه سيتزوّج. ولم ينفع شيء. حاولت أن أشرح له أنّ تلك العاهر ستهلكه، ولكنْ في نهاية الأمر الحياة حياته. تزوّجا. وذهبا في رحلة شهر العسل على متن سيّارة. ذهبا إلى بوزيتانو وأمالفي، على السّاحل. مرّ يومان ولم يطلبني. طبيعيّ قلت في نفسي، إنّهما في شهر العسل. سيطلبني. وعلى عكس ذلك، تعرف مَن طلبني؟ مخفر شرطة سورّانتو. قالوا لي إنّه يجب أن أذهب إليهم في الحال. أسألهم لماذا. لا يُمكن أن يقولوا لي ذلك بالهاتف. ينبغي أن أذهب إلى هناك إن أردت أن أعرف. قالوا لي إنّ الأمر يتعلّق بابني. وكيف أفعل أنا للذهاب إلى هنالك؟ لا أستطيع أن أتحرّك. لو قاموا بمراقبة لانتهى أمري. كانوا يَبْحثُونَ عنّي لأنّني لم أتقدّم لمراقبة العفو الشَّرطيّ. لو وجدوني لأعادوني إلى السّجن. طلبتهم بواسطة شخص أعرفه. واحد متواطئ معهم. ذلك الشخص قال لي إنّ ابني مات. كيف مات؟ قال لي إنّه انتحر. ألقى بنفسه في هاوية. ارتمى من ارتفاع مائتيْ متر وتهشّم على الصّخور. ابني؟ فرانشسكو انتحر؟ هل يسخرون منّي؟ لكنّني لا أستطيع أن أتحرّك. عند ذلك أرسلتُ تلك الغبيّة أمّه لترى ماذا حدث.

سألته دون أن أشعر:

- ماذا حدث؟

- حسب قولهم توقّف فرانشسكو في الطريق للتأمّل في المشهد الطبيعي، وبقيت هي في السيارة. التقط لها صورة ثمّ قفز فوق الجدار القصير وهوى إلى أسفل. هل يُعقل أن يلتقط شخص صورة زوجته ثمّ يلقي بنفسه في الفراغ؟ قال لي إنّهم وجدوه مهشّما، قضيبه خارج بنطلونه وآلة التصوير في عنقه. في رأيك، عندما يريد واحد أن ينتحر، يلتقط صورة، ويُخرج قضيبه من بنطلونه ثمّ يلقي بنفسه في المنحدر؟ ما هذا الغباء؟ أنا أعرف أنّ الأمور لم تقع على هذا النحو... القصّة ليست قصّة مشهدٍ طبيعيّ. فرانشسكو توقّف ليتبوّل. كان لا يريد أن يفعل ذلك وسط الطريق. كان شابّا مؤدّبا. قفز وراء الجدار القصير وبدأ يبول وتلك العاهر دفعته في قاع المنحدر. ولكن لم يصدّقني أحد. دفعة صغيرة وقُضي الأمر. قتلته.

- لماذا؟

- أحسنتَ السؤال. لماذا؟ لا أدري. لم يكن يملك فلساً. حقا لا أدري. هرب عنّي النوم من طول التفكير في ذلك. ولكنّ البغيّ دفعت الثمن... لقد... لا علينا، تأخّر الوقت. تصبح على خير.

رمى بالسيجارة من النافذة واستسلم للنوم. بعد دقيقتيْن غرق في النوم وبعد ثلاثٍ بدأ يشخر.

6

عندما أفقتُ لم أجد العجوز. ترك الفراش في فوضى وعلبةَ «دنهيل» مكوّرة على حافة النافذة، والسليب على الأرض وقارورة الماء نصف فارغة.

كان الحرّ شديدًا والزيزان تصدح.

نهضتُ وألقيتُ نظرة على المطبخ. أمّي تكوي وتستمع إلى الراديو. وأختي ماريا تلعب فوق الأرضيّة. أغلقتُ الباب.

كانت حقيبة العجوز تحت الفراش. فتحتها ونظرت بداخلها.

أثواب. قنّينة عطر. قارورة «ستوك 84». خرطوشة سجائر. محفظة صغيرة بداخلها مجموعة من الصور. الأولى لشابّ طويل ونحيف يرتدي بزّة ميكانيكيّ زرقاء اللون. كان يبتسم. تشبه ملامحه ملامح العجوز. إنّه فرانشسكو، ذلك الذي ألقى بنفسه في المنحدر وعصفوره خارج بنطلونه.

في المحفظة أيضاً قصاصات من جرائد تتحدّث عن موت فرانشسكو. وفيها أيضاً صورة لزوجته. كانت تبدو راقصة تلفزيون. وجدتُ أيضاً كرّاسا مدرسيّا بغلاف من البلاستيك الملوّن. فتحته. في الصفحة الأولى وجدت مكتوبا: كرّاس فِليبّو كاردوتشي، السنة الرابعة ج.

الكراس انتُزعت منه الصفحات الأولى. ورّقته. فيه تمارين إملاء وملخّصات وإنشاء.

قصّ ما فعلت يوم الأحد.

يوم الأحد عاد بابا. يعيش بابا أكثر الوقت في أمريكا ويعود إلى المنزل من حين إلى آخر. هنالك في أمريكا يملك فيلاّ فيها حوض سباحة بلوحة غطس وفيها دببة غسّالة تعيش في الحديقة. أنا سأذهب إلى هناك. يقيم بابا في أمريكا من أجل العمل وعندما يعود يحمل إليّ دائماً الهدايا. أهداني في هذه المرّة شيئاً يشبه مضرب التّنس ولكنه يوضع في القدميْن للسّير على الجليد. من دونها تغرق الساق في الثلج وقد يموت الإنسان. عندما سأذهب إلى الجبال سوف أضعهما عند السّير فوق الثلوج. قال لي أبي إنّ الإسكيمو يستعملون هذا الخفّ. يعيش الإسكيمو وسط جليد القطب الشمالي وبيوتهم أيضاً من الجليد. بداخلها لا توجد الثلاجة لأنّهم لا يحتاجون إليها. يأكلون الكثير من عجول البحر وأحياناً طيور البطريق. قال لي إنّه سيحملني يوما هنالك. سألته إن كان يُمكنُ أن يأتي معنا أيضاً بيبّينو. بيبّينو هو الجنّان، وهو يشذّب كلّ الأشجار. وعندما يحلّ الشتاء ينظّف الفضاء المعشّب من

الأوراق. بيبّينو يكاد يبلغ من السنّ مائة سنة. ومإإن يرى نبتة حتّى يشذّبها. وكان هذا ينهكه حتّى أنّه في المساء يضع قدميه في طشت ماء ساخن. لو جاء معنا إلى القطب الشماليّ فلن يفعل شيئاً لأنّ هناك لا يوجد نبات وإنّما جليد فقط، وسوف يستريح. قال بابا إنّه سيفكّر في شأن بيبّينو، إنْ كان بالإمكان أن يأتي معنا. وبعد المطار ذهبنا إلى مطعم، أنا وبابا وماما. وهناك تحادثنا عن المدرسة الإعدادية التي سأزاولها. إن كنتُ سأبقى في بافيا أو سأذهب إلى أمريكا. أنا لم أقل شيئاً ولكنّي أفضّل بافيا حيث يدرس كلّ زملائي. في أمريكا بإمكاني أن ألعب مع الدِّببة الغسّالة. بعد الغداء عدنا إلى المنزل وأفطرتُ مرّة أخرى ثمّ ذهبتُ إلى فراشي. هذا ما فعلتُ يوم الأحد. أمّا دروسي فقد أعددتها يوم السّبت.

أغلقتُ كرّاس فِليبّو وأعدته إلى المحفظة.

كانت توجد في قاع الحقيبة منشفة مطوية. فتحتها فوجدتُ بداخلها مسدّسًا. بقيتُ أحدّق فيه. كان ضخما، مقبضه من الخشب، وكلّه أسود. رفعته. كان ثقيلاً جدّا. لعلّه معبّأ. أعدته إلى مكانه.

كان الراديو يغنّي: «لاحقت فراشة في الرياض يوم قطعت الصلة بالماضي».

وكانت أمّي ترقص وهي تكوي وتغنّي معه. ـ وعندما كدتُ أمسكها وقعتُ.على الأرض.

كانت مبسوطة. منذ أسبوع، ومزاجها أتعس من مزاج كلبٍ مصاب بداء الكلَب. والآن تغنّي فَرِحة بصوتها الأجشّ والرّجوليّ. ـ جملة غبيّة، كلام تافه ذو وجهين، نبّهني...

خرجتُ من غرفتي وأنا أقفل أزرار بنطلوني. ابتسمت لي.

ـ هو ذا الطفل الذي لا يريد أن ينام مع الضيوف... صباح الخير! تعال وقبّلني. أريدها قبلة كبيرة. أكبر قبلة تستطيعها.

ـ هل تلقفينني؟

ـ نعم، ألقفك.

تراجعتُ مسافة ثمّ ركضت وارتميْتُ في أحضانها فلقفتني بين ذراعيْها وقبّلتني على خدّي. ثمّ ضمّتني بقوّة وبدأت تدور. وأنا أيضاً قبّلتها عديد المرّات.

ـ أنا أيضاً! أنا أيضاً!ـ صاحت ماريا وألقت بدميتيْها وتشبّثت بنا.

قلتُ لها. ـ إنّه دوري. إنّه دوري. اتركينا!

ـ ميكيلي، لا تفعل هكذا.

أخذت ماما ماريا أيضاً.

ـ الاثنان معاً! وبدأت تدور وسط القاعة وتغنّي بأعلى صوتها. ـ المخزن بصناديقه الكثيرة، بعضها سوداء وبعضها صفراء وبعضها حمراء...

وتدور من جهة إلى أخرى. من جهة إلى أخرى، إلى أن سقطنا على الأريكة مُنْهكين.

- استمعا... قلبي. استمعا إلى قلب... أمّكما... وهو يموت... - كانت تلهث. وضعنا أيدينا على صدرها. كان مثل طبل يقرع.

بَقِينا ممدّدين على الوسائد الواحد بقرب الآخر. ثمّ رتّبت أمّي شعرها وسألتني:

- إذاً، سارجيو لم يأكلك هذه اللّيلة؟

- لا.

- تركك تنام؟

- نعم.

هل يشخر؟

- نعم.

- كيف يشخر؟ سمّعني.

حاولتُ أن أقلّد شخيره.

- ولكن، هذا خنزير! هكذا تفعل الخنازير. ماريا، سمّعنا كيف يشخر بابا.

قلّدت ماريا شخير بابا.

- لا، أنتما لا تستطيعان تقليده. سأسمعكما شخير بابا.

قلّدته بالتّمام، مع الصّفير.

ضحكنا طويلا.

نهضت ورتّبت هندامها. ـ سأسخّن الحليب.

سألتها:

ـ وبابا، أين هو؟

ـ خرج مع سارجيو... قال إنّه سيحملنا الأسبوع القادم إلى البحر وسنذهب أيضاً إلى المطعم لأكل بلح البحر.

بدأنا نقفز أنا وماريا فَوقَ الأريكة. ـ إلى البحر! إلى البحر! لأكل بلح البحر!

نظرت أمّي نحو الحقول ثمّ أغلقت مشبّك النافذة. ـ لا خيّب الله أملنا.

تناولتُ فطور الصباح. كانت هناك كعكة حلوى. تناولتُ منها قطعتيْن غطّستهما في الحليب. ودون أن تراني، أمّي أخذت قطعة ثالثة لفتها في المنديل ووضعتُها في جيبي.

سيكون فِليبّو سعيدا.

نظّفت أمّي المائدة. ـ بعد أن تنتهي من فطورك، احملْ هذه الكعكة إلى منزل سلفاتوري والبس قميصك النظيف.

كانت أمّي بارعة في الطبخ. وعندما تعدّ الكعك أو المقرونة في الفرن أو الخبز تصنع ما يزيد على حاجتنا وتبيعه لأمّ سلفاتوري.

نظّفتُ أسناني. لبستُ قميص الألعاب الأولمبيّة وخرجت حاملا بين يديّ طبق الكعكة.

كانت الريح ساكنة وأشعّة الشّمس تسقط عموديّا على المنازل.

كانت ماريا جالسة على السلّم بدميتيْها «باربي» في ركن من الظلّ. ـ هل تستطيع أن تصنع منزلا للدميتيْن؟

ـ أكيد ـ.لم أفعلِ ذلك أبداً من قبل ولكنّه لا يُمكن أن يكون أمراً صعباً. ـ في شاحنة أبي علبة كبيرة. نستطيع أن نقصّها وأن نصنع منها بيتاً ثمّ نلوّنه. ولكنّي الآن مشغول. يجب أن أذهب إلى منزل سلفاتوري ـ.نزلت إلى الشارع.

لم يكن هناك أحد إلاّ دجاجات تنبش وسط الغبار وطيور الخطّاف تتوارى تحت السّقوف.

كانت أصوات تأتي من المستودع. اقتربتُ ورأيتُ سيّارة فِليتشي، الفيات 127. كان غطاء المحرّك مرفوعاً والسيّارة مائلة كلّها إلى جانب، ومن تحتها كانت تبرز جزمة كبيرة من البلاستيك الأسود.

عندما يبقى فِليتشي في أكوا ترافَرسي يكون دائماً منهمكا في العناية بسيّارته. يغسلها ويشحّمها ويزيل عنها الغبار. كان قد رسم فوقها خطّيْن أسوديْن مثل سيّارات الشرطة الأمريكية. وكان يفكّك المحرّك ثمّ يعجز عن إعادة تركيبه أو يضيع منه بعض القطع. وعند ذلك، يرغمنا على الذهاب إلى لوتشينيانو لشرائها.

صاح من تحت السيّارة:

ـ ميكيلي! ميكيلي، تعالَ!

توقّفت. ـ ماذا تريد؟

ـ ساعدني.

ـ لا أستطيع. كلّفتني أمّي بمهمّة يجب أن أؤديها.

كنتُ أريد أن أسلّم الكعكة إلى أمّ سلفاتوري وأن أقفز على درّاجتي للذهاب إلى فِليبّو.

ـ تعال.

ـ لا أستطيع... يجب أن أذهب.

زمجر غاضبا. ـ إنْ لم تأت فسوف أقتلك...

ـ ماذا تريد؟

ـ إنّني مُنْحصِرٌ. لا أستطيع التحرّك. انخلعت العجلة وأنا تحت السيّارة، اللعنة! منذ نصف ساعة، وأنا على هذا الحال!

نظرتُ من فوق داخل الغطاء. وتحت المحرّك، رأيتُ وجه فِليتشي المسودّ من الشّحم وعينيْه المحمرّتين اليائستيْن. ـ هل تريد أن أدعو أباك؟

في شبابه، كان أبوه يشتغل ميكانيكيّا. وعندما يرى فِليتشي يحشر أصابعه في محرّك السيّارة يستشيط من الغضب.

ـ هل أنت أبله؟ سيشبعني لوماً وشتماً... ساعدني.

كان بإمكاني أن أتركه وأذهب في حال سبيلي. نظرت حولي.

ـ إيّاك أن تفكّر في ذلك... مهما كان الأمر سأخرج من هنا. وعندها، سأقسم ظهرك كما لو كان قطعة من الحلوى، ولن يبقى منك إلاّ قبر يحمل إليه أبواك الأزهار.

ـ ماذا يجب أن أفعل؟

ـ خذ الرّافعة من داخل السيارة وضعها قريبا من العجلة.

وضعتها وأدرتُ المقبض، وبدأت السيارة ترتفع.

صاح فِليتشي من الفرحة:

ـ حسناً! هكذا، واصل وسأخرج. برافو!

انسحب خارجاً. كان قميصه متّسخا بالزيت الأسود. مرّر يده على شعره. ـ كنت أظنّ أنّني سوف أموت. ظهري تحطّم. وكلّه بسبب ذلك الرومانيّ القذر!- ثمّ أخذ يقوم بحركات انثناء وهو يسبّ ويشتم.

ـ تعني العجوز؟

ـ نعم. إنّي أمقته ـ.استقام واقفا وبدأ يركل أكياس الذرة. ـ قلت له إنّني لا أستطيع أن أصعد إلى هنالك بالفيات. ستتلف تلك الطريق مُليّنات السيّارة، ولكن هذا لا يعنيه بالمرّة. لماذا لا يذهب بسيّارته المرسيداس الملعونة؟ ولماذا لا يبقى هو هنالك؟ إنّني لم أعد أطيق كل هذا... ولا تفعل هذا، ولا تفعل ذاك... كسر دماغي لأنّني ذهبتُ مرّتيْن إلى البحر. كان كلّ شيء أفضل قبل مجيء هذا الملعون. ولكنّي سأذهب لحالي... ـ وضرب بقبضة يده الجرّار ونفّس عن غضبه بكسر صناديق اللّوح. ـ إنْ نعتني مرّة أخرى

بالأحمق فسوف ألصقه بلكمة على الحائط. والآن كيف سأفعل لأذهب إلى هنالك... - ثمّ توقّف فجأة وقد تذكّر أنّي موجود. أمسكني من القميص ورفعني في الهواء وألصق وجهه في وجهي. - لا تقصّ على أحد ما أخبرتك به، هل فهمت؟ لو اكتشفت أنّك تفوّهت بكلمة واحدة فسأقطع عصفورك وسأطبخه بالكرنب وآكله... - وأخرج من جيبه موسى. وبضغطة برزت الشفرة على بعد سنتمترَيْن من أنفي.
- هل فهمت؟

تمتمتُ:

- فهمتُ.

ألقاني على الأرض. - لا تقل لأحد! والآن غِبْ عن نظري -. وبدأ يطوف في المستودع.

أخذتُ الكعكة وانطلقتُ.

كانت عائلة سكرداتشوني أثرى عائلة في أكوا ترافَرسي.

كان أب سلفاتوري، المحامي إيميليو سكرداتشوني، يملك الكثير من الأراضي. وفي زمن الحصاد كان عدد كبير من الأشخاص يعملون في أراضيه. كانوا يأتون من الخارج، من أماكن بعيدة، على الشاحنات وعلى الأقدام.

وقبل أن يصبح أبي سائق شاحنة اشتغل أيضاً طيلة سنوات حسب المواسم عند المحامي سكرداتشوني.

للدخول إلى منزل سلفاتوري، يجب أن تمرّ عبر سياج من الحديد المطرّق ثم تجتاز ساحة فيها شجيرات مربّعة الشكل ونخلة طويلة جدا وفسقية من الحجارة تسبح فيها سمكات حمراء، ثمّ تصعد سلّما من الرخام بدرجات مرتفعة يؤدّي إلى باب الدخول.

وما إن تدخل حتّى تجد نفسك في رواق معتم خال من النوافذ، طويل حتّى أنّك تستطيع أن تقطعه على الدرّاجة. وفي جهة، كانت توجد مجموعة من الغرف دائماً مغلقة، وفي الجهة الأخرى غرفة الاستقبال. كانت قاعة فسيحة سقفها مزدان بالملائكة المرسومة وفي وسطها طاولة كبيرة ولامعة تحيط بها مجموعة من الكراسي. وبين لوحتيْن مذهّبتيْ الإطار خزانة زجاجيّة حُفظت فيها الفناجين والأكواب النفيسة وبعض الصّور لرجال باللباس العسكريّ. انتصبت قرب باب الدخول شكّة مسلّح من القرون الوسطى يحمل في يده عصا غليظة تتدلّى منها كرة نُبّتت فيها المسامير، كان المحامي قد اشتراها في مدينة غوبّيو. ولا يُمكن لمسها لأنّها قد تسقط.

أثناء النّهار، لا تُفتح مصاريع النوافذ أبداً. حتّى في الشتاء. وكانت تسود رائحة انغلاق وخشب عتيق كأنّكَ في كنيسة.

وكانت السيّدة سكرداتشوني، أمّ سلفاتوري، امرأة سمينة جدّا لا يزيد طولها على متر ونصف، تحمل فوق شعرها شبكة. كانت ساقاها منتفختيْن مثل النقانق وتؤلمانها دائماً. وكانت لا تخرج من المنزل إلاّ في عيدي الميلاد والفِصح

للذّهاب إلى الحلاّق في لوتشينيانو. كانت تقضي حياتها في المطبخ، القاعة الوحيدة التي يدخلها النّور، صحبة شقيقتها، الخالة لوتشيلاّ، وسط البخار ورائحة المرق.

كانتا مثل فقمتيْن. تُحنيان رأسيْهما معا وتضحكان معا وتصفّقان معا. فقمتان سمينتان مروّضتان بشعرهما المتموّج. كانتا تجلسان دائماً على كرسيّيْن متآكليْن تراقبان الخادمة أنطونيا لئلاّ تُخطئ أو تستريح أكثر ممّا ينبغي.

كان يجب أن يكون كلّ شيء في مكانه عندما يعود المحامي سكرداتشوني من المدينة. ولكن المحامي كان لا يعود أبداً. وحتّى عندما يعود كان يرغب في الرّحيل على الفور.

صاحت لِتيتسيا عندما رأتني داخلا إلى المطبخ:

- لوتشيلاّ! لوتشيلاّ! انظري من جاء لزيارتنا!

رفعت الخالة لوتشيلاّ رأسها عن آلة الخياطة وابتسمت. كانت تحمل فوق أنفها نظّارات غليظة مثل قاع قارورة تجعل عينيْها صغيرتيْن مثل حبّتين من الرّصاص. - ميكيلي! ميكيلي العزيز! جئتنا بالكعكة؟

- نعم، يا سيّدتي. هي ذي. - وقدّمت لها الطبق.

- سلّمها إلى أنطونيا.

كانت أنطونيا جالسة إلى الطاولة تحشو الفلفل.

كانت أنطونيا أمّيراتي في الثامنة عشرة من عمرها، نحيفة لكنّها غير هزيلة. وكان شعرها أحمر وعيناها زرقاويْن. توفّي والداها وهي صغيرة في حادث مرور.

قصَدت أنطونيا وسلّمتها الكعكة، فمسّحت على رأسي بظهر يدها.

كانت أنطونيا تعجبني كثيراً. كانت جميلة ووددتُ لو كانت خطيبتي، ولكنّها كانت أكبر سنّا مني ومخطوبة لواحد في لوتشينيانو يركّب هوائيّات التلفزيون.

قالت لِتيتسيا سكرداتشوني:

- يا لها من امرأة نبيهة، أمّك!

وأضافت الخالة لوتشيلاّ:

- وكم هي جميلة!

- وأنت أيضاً طفل جميل بحقّ. أليس كذلك لوتشيلاّ؟

- إنّه بحقّ جميل.

- أنطونيا، ميكيلي جميل أليس كذلك؟ لو كان أكبر سنّا هل تتزوّجينه؟

ضحكت أنطونيا: أتزوّجه على الفور.

قرصتني الخالة لوتشيلاّ من خدّي حتّى كادت تقتلعه.

- وأنتَ، هل تتزوّج أنطونيا؟

احمرّ وجهي وحرّكت رأسي بالنفي.

انفجرت الأختان ضاحكتيْن فرحتيْن، وكان يبدو أنّهما لن تكفّا أبداً عن الضحك.

ثمّ أخذت لِتيتسيا سكرداتشوني كيسا. ـ في هذا الكيس أثواب صارت صغيرة على سلفاتوري، خذها. إذا كان البنطلون طويلا فسوف أقصّره. خذ، سأكون سعيدة بذلك. هل رأيتَ هندامك؟

كان بودّي أن أقبل الهدية. كانت الأثواب تكاد تكون جديدة. ولكنّ أمّي كانت تقول إنّنا لا نقبل الصدقة من أحد، خصوصا من تلك الأختيْن. وكانت تقول إنّ أثوابي لائقة وإنّها هي التي تقرّر متى يجب تغييرها. ـ شكرا، يا سيّدتي. ولكنّي لا أستطيع أن أقبل الهدية.

فتحت الخالة لوتشيلاّ علبة من الألومنيوم وصفّقت بيديْها. ـ انظر ماذا عندي هنا. حلوى بالعسل! هل تحبّ الحلوى بالعسل؟

ـ كثيراً يا سيّدتي.

ـ تفضّل.

هذه بإمكاني أن أقبلها. لن تعرف أمّي شيئاً لأنّني سآكلها كلّها. أخذتُ منها قدرا كافيا ملأتُ منه جيوبي.

أضافت لتيتسيا سكرداتشوني:

ـ خذ منها أيضاً لأختك. والمرّة القادمة، اصطحبها معك هي الأخرى.

كرّرتُ مرارا مثل الببّغاء:

- شكرا، شكرا، شكرا...

- قبل أن تخرج، اذهب لتحيّة سلفاتوري. ستجده في غرفته. ولكن أرجوك لا تبق كثيراً لأنّه يتمرّن على الموسيقى. اليوم هو يوم الدّرس.

خرجتُ من المطبخ واجتزتُ ذلك الرواق المظلم، بذلك الأثاث الأسود الكئيب. مررتُ أمام غرفة نونتسيو. كان الباب مغلقا بالمفتاح.

وجدتها مرّة مفتوحة ودخلتُ.

لم يكن فيها شيء ما عدا فراشًا مرتفعًا، بحاجز من الحديد وأحزمة من الجلد. في وسط الغرفة، كان خزف الأرضية كلّه مجرّحا ومُتلفا. عندما تمرّ تحت البناية كنتَ ترى نونتسيو يمشي ويجيء من الباب إلى الشبّاك.

لم يترك المحامي شيئاً لم يفعله لمداواته، ومرّة حمله إلى الأب بيو[10]، ولكن نونتسيو تشبّث بصنم العذراء وأسقطه على الأرض. وعند ذلك أمسكه الرهبان وأخرجوه من الكنيسة. ومنذ أن أدخلوه مستشفى المجانين لم يعد إلى أكوا ترافرسي.

---

(10) – Padre Pio (1887 - 1968) راهب من نظام الكبّوتشيّين عُرف بأعماله الصالحة وأعلنه البابا يوحنا بولس الثاني قدّيسا سنة 2002.

كان عليّ أن أذهب إلى فِليبّو. لقد وعدته بذلك. يجب أن أعطيه الكعكة والحلوى. ولكن الحرّ شديد. سينتظرني. لن يغيّر هذا شيئاً. ومن ناحية أخرى كنتُ أريد البقاء قليلا مع سلفاتوري.

سمعت صوت البيانو من وراء باب الغرفة. طرقتُ الباب.

ـ من؟

ـ ميكيلي.

ـ ميكيلي؟ ـ فتح الباب ونظر يمنة ويسرة كمن يخشى أن يراه أحد ثمّ دفعني إلى الدّاخل وأغلق الباب بالمفتاح.

كانت غرفة سلفاتوري فسيحة، خالية من الأثاث وسقفها مرتفع. كان بيانو عموديّ يستندُ إلى أحد الجدران، وإلى جدار آخر فراشٌ مرتفع جدّا حتّى أنّه يلزم سلّم للصّعود إليه، ومكتبة طويلة فيها عدد كبير من الكتب مرتّبة حسب لون الغلاف. وفي صندوق كبير كانت اللّعب محفوظة. وكان ستار أبيض وسميك يسمح بدخول شعاع من النور ينفذ إلى الداخل تتراقص فيه ذرّات الغبار.

في وسط الغرفة، على الأرض، يوجد بساط لعبة «السبّوتيو» الأخضر. وفوقه رَصّف سلفاتوري فريقي يوفانتوس وتورينو.

سألني:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ لا شيء. جئتُ بكعكة. هل أستطيع البقاء معك؟ قالت أمّك إنّ عندك درسا...

ـ نعم، ابق- ثمّ خفّض صوته ـ ولكن لو تفطّنتا إلى أنّني لستُ أعزف فلن تتركاني في سلام- أخذ أسطوانة ووضعها على الحاكي. ـ هكذا تظنّان أنّني أعزف ـ.وأضاف على غاية من الجدّة. ـ إنّه شوبان.

ـ من هو شوبان؟

ـ موسيقيّ بارع.

كنتُ وسلفاتوري في نفس السنّ ولكنه كان يبدو أكبر منيّ لأنّه كان من جهة أطول قامة ومن جهة أخرى لأنّه كان يلبس أقمصة ناصعة دائماً نظيفة وبنطلونا طويلا مكويّا دائماً وواضح الثنية. وأيضاً لأنّ نبرته كانت دائماً رزينة. كان أهله يرغمونه على العزف. ومرّة في الأسبوع يأتيه المدرّس من لوتشينيانو ليعلّمه الموسيقى، وهو، مع كرهه للموسيقى، لا يتذمّر أبداً وكان يقول:

ـ عندما أكبر أكفّ عن العزف.

سألته:

ـ هل تريد أن نلعب؟

كان «السبّوتيو» لعبتي المفضّلة. لم أكن بارعا جدّا فيها ولكنّني كنتُ أعشقها إلى حدّ الجنون. في الشتاء، مع سلفاتوري، كنّا نلعب مباريات لا نهاية لها، ونقضّي عشيات بأكملها ندفع بأصابعنا أولئك اللّاعبين الصغار

من البلاستيك. وكان سلفاتوري يلعب أحياناً وحده، ينتقل كلّ مرّة من جهة إلى أخرى. وعندما لا يلعب بالسبّوتيو كان يصفّف الآلاف من الجنود على أرضية الغرفة إلى أن يغطّيها تماماً حتّى أنّه لا يبقى مكان لوضع قدم. وعندما ينتهي من تصفيف الجنود في فيالق هندسيّة يبدأ في نقلهم واحداً بعد الآخر. كان يقضّي ساعات طويلة في صمت يعدّ الجيوش ثمّ، عندما تأتي أنطونيا لتقول له إنّ العشاء جاهز، يعيدهم كلّهم إلى علب الأحذية.

ـ انظر ـ قال لي وهو يُخرج من الصندوق الكبير ثماني علب صغيرة من الكرتونِ الأخضر، تحوي كلّ واحدة فريقا لكرة القدم. ـ انظر ماذا أَهْدَاني أبي. جلبها من روما.

ـ كلّ هذه الفرق؟- أخذتها في يديّ. لا شكّ في أنّ المحامي غنيّ جدّا لكي يُنفق كلّ تلك الأموال.

كلّ سنة، في عيد ميلادي وفي عيد مولد المسيح أطلب من بابا ومن يسوع الرّضيع أن يهدياني «السبّوتيو»، لكن دون جدوى. لا أحد منهما كان يسمعني. كان يكفيني فريق واحد، دون الملعب ودون المرمى. كان يكفيني فريق من الدرجة «ب». كان بودّي أن أذهب إلى منزل سلفاتوري بفريقي لأنّني كنتُ متأكّدا أنّني لو لعبتُ بفريق لي لما خسرتُ بتلك الصفة. وسأحبّ لاعبيّ وسأعتني بهم وسأغلب سلفاتوري.

كان سلفاتوري يملك أربعة فرق. والآن أهداهُ أبوه ثمانية فرق أخرى.

وأنا لا شيء. لماذا؟

لأنّ أبي لا يعنيه من أمري شيء. كان يقول إنّه يُحبّني ولكن هذا غير صحيح. أهداني زورقاً تعيساً مصنوعاً في فينيتسيا ليضعه فوق التلفزيون. ولا يمكنني حتّى لمسه.

كنتُ أريد فريقاً. لو أهداه أبوه أربعة فرق لما قلتُ شيئاً ولكنّها كانت ثمانية. وفي الجملة كان يملك اثني عشر فريقا.

ماذا سيحدث لو نقص منها واحد؟

تنحنحتُ قليلا ثمّ همست إليه:

- هل تهديني فريقاً؟

قطّب سلفاتوري حاجبيْه وبدأ يتجوّل عبر الغرفة. ثمّ قال:

- آسف. لو كان الأمر بيدي لأعطيتك إيّاه، ولكني لا أستطيع. لو علم أبي أنّني أعطيتك فريقا فإنّه سيغضب كثيراً.

ليس صحيحا. منذ متى كان أبوه يراقب الفرق؟ الواقع أنَّ سلفاتوري كان بخيلاً.

- فهمتُ.

- وماذا سيغيّر هذا بالنسبة إليك؟ بإمكانك أن تأتي عندما تريد لتلعب هنا.

لو كان عندي شيء أستبدله فلعلّه يقبل. ولكنّي لا أملك شيئاً.

بلى. لديّ شيء يُمكن أن أستبدله.

ـ لو أفضيتُ إليك بسرّ هل تعطيني فريقا؟

نظر إليّ سلفاتوري من طرف عينه. ـ أيّ سرّ؟

ـ سرّ لا يُصدّق.

ـ لا يوجد سرّ في قيمة فريق.

ـ إلاّ سرّي أنا، ـ ولثمتُ سبّابتيّ. ـ أقسم لك.

ـ وإذا اتّضح أنّه سرّ تافه؟

ـ ليس تافهًا. ولكن إذا رأيتَ أنّه تافه فسأعيد إليك الفريق.

ـ الأسرار لا تعنيني.

ـ أعرف ذلك. ولكن هذا السرّ رائع. لم أَبُحْ به لأحد. لو اطّلع عليه جُمجمة لقفز من الفرحة...

ـ قله لجُمجمة إذاً.

و لكنّني أصبحتُ مستعدّا لكلّ التضحيات. ـ أقبلُ حتّى فريق «لَنيروسّي فيتشانسا».

حملق فيّ سلفاتوريّ بعينيْه. ـ حتّى «لَنيروسّي فيتشانسا»؟

ـ نعم.

كنّا نكره فريق لَنيروسّي فيتشانسا كرها تامّا. كان فريقا مشؤوماً. لو لعبتَ بذلك الفريق لخسرت دائماً. لا أحد منّا لعب مرّة بذلك الفريق وانتصر. وكان أحد لاعبيه مقطوع

الرأس، ولاعب آخر مشدودا باللّصق، وكان حارس المرمى معوجّا كلّه.

فكّر سلفاتوري في الأمر وأخيراً قبِل. ـ حسناً. ولكن إذا كان سرّا لا يصلح فلن أعطيك الفريق.

وهكذا قصصتُ عليه كلّ شيء. كيف إنّي سقطتُ من الشجرة. والحفرة. وفِليبّو. وكيف إنّه مجنون. وعن ساقه المريضة. وعن الرائحة المتعفّنة. وعن فِليتشي الذي يقوم بحراسته. وعن أبي والعجوز اللّذيْن يريدان قطع أذنيْه. وعن فرانشسكو الذي ألقى بنفسه في الهاوية وعصفوره خارج بنطلونه. وعن أمّه في التلفزيون.

كلّ شيء.

كنتُ أحسّ بشعور رائع مثل تلك المرّة التي أكلتُ فيها وعاء مليئا بالخوخ المحفوظ في شراب السكّر. بعد ذلك أحسستُ بنفسي مريضا. كنتُ أشعر أنّي سأنفجر وأنّ في بطني زلزالاً وانتابتني الحمّى. وأمّي، بعد أن انهالت عليّ صفعاً، حشرت رأسي داخل المرحاض وأدخلت إصبعيْها في حلقي فأخرجتُ كميّة هائلة من خليط أصفر حامض الرّائحة. وهكذا عُدت إلى الحياة.

بينما كنتُ أتحدّث كان سلفاتوري صامتاً لا تتحرّك منه شعرة.

وختمتُ قائلاً:

ـ ثمّ إنّه يتحدّث دائماً عن الدّببة الغّسالة تلك الدّببة التي تغسل الأثواب. قلتُ له إنّها غير موجودة، ولكنّه لا يستمع إليّ.

ـ الدّببة الغسّالة موجودة.

بقيتُ فاغر الفم. ـ كيف هي موجودة؟ قال أبي إنّها غير موجودة.

ـ تعيش في أمريكا ـ.أخذ الموسوعة الكبرى للحيوانات وورّقها. ـ ها هو. انظر ـ.وأعطاني الكتاب.

كانت هناك صورة بالألوان لنوع من الثعلب. كان خرطومه الصغير أبيض وعلى عينيْه قناع أسود مثل قناع «زورّو». ولكنّه كان أكثر وبرا من الثعلب وكانت قوائمه أصغر وتمكّنه من الإمساك بالأشياء. وكان يُمسك بين قائمتيْه الأماميّتيْن تفاحة. كان حيواناً طريفاً جدّا. ـ إذاً هو موجود...

قال سلفاتوري:

ـ نعم ـ.ثمّ قرأ. ـ نوع لاحم من الدّببة من فصيلة الجرذان، جسمه قصير، وخرطومه مدبّب ورأسه كبير، وعيناه كبيرتان محاطتان ببقع داكنة سوداء. وَبَره رماديّ وذيله قليل الطول، يعيش في كندا وفي الولايات المتحدة الأمريكيّة. سُمّي عادة بالدبّ الصغير الغسّال لعادته الطريفة في غسل الطعام قبل أكله.

ـ لا يغسل الأثواب، بل الطعام... ـ.كنتُ مندهشا. ـ وأنا الذي قلتُ له إنّه غير موجود...

سألني سلفاتوري:

ـ لماذا وضعوه في تلك الحفرة؟

ـ لأنّهم لا يريدون إرجاعه إلى أمّه ـ.قبضتُ معصمَه. ـ هل تريد أن تراه؟ يُمكن أن نذهب إليه حالا. هل تريد؟ أعرف طريقا مختصراً... سنصل في وقت قصير.

لم يُجبني. أعاد اللّاعبين إلى عُلبهم وطوى ملعب «السبّوتيو».

ـ إذاً ماذا قلت؟ هل تريد؟

أدار المفتاح وفتح الباب. ـ لا أستطيع. سيأتي المدرّس. وإذا لم أقم بالفروض فسيقول لهما والويل لي بعد ذلك.

ـ كيف؟ لا تريد أن تراه؟ لم يُعجبك هذا السرّ؟

ـ لم يُعجبني كثيراً. لا أحبّ المجانين في الحُفر.

ـ هل تعطيني فريقَ فيتشانسا؟

ـ خذه. إنّي أمقته ـ.وضع العلبة بين يديّ ودفعني خارج الغرفة ثمّ أغلق الباب.

كنتُ أدير مداس الدرّاجة وأنا لا أفهم.

كيف يُمكن أن لا يعنيه طفل مشدود بسلسلة وسط حفرة؟ قال سلفاتوري إنّ سرّي لا يُعجبه.

ما كان عليّ أن أطلعه عليه. لقد بذّرتُ سرّي. وماذا ربحتُ؟ فريق «لنيروسّي فيتشانسا»، ويجلب النّحس إضافة إلى ذلك.

كنتُ أتعس من يهوذا الذي باع يسوع بثلاثين درهماً. تُرى كم يُمكن أن أشتري من فريق بثلاثين درهماً؟

حشوتُ العلبة داخل بنطلوني. كانت تضايقني لأنّ زواياها تثقب جلدي. كان بودّي لو ألقيتُها، ولكن خانتني الشجاعة.

كان بودّي لو رجعتُ إلى الوراء في الزمن. أسلّم الكعكة إلى السيّدة سكرداتشوني وأذهب في حال سبيلي دون أن أقابل سلفاتوري.

صعدتُ الهضبة بسرعة كبيرة حتّى أنّي عندما وصلت شعرت بحاجة إلى التقيّؤ.

تركتُ الدرّاجة قبل بداية المرتفع بقليل وقطعتُ القسم الأخير من الطريق على قدميّ جريا وسط القمح. كان يبدو لي أنّ قلبي سيخرج من صدري. كنتُ أريد أن أذهب فوراً إلى فَليبّو، ولكنّني استلقيتُ تحت شجرة وانتظرتُ أن يكفّ اللّهاث.

عندما أحسستُ بنفسي أحسن حالا ألقيتُ نظرة لأرى إنْ كان فِليتشي في الجوار. لم يكن هناك أحد. دخلتُ إلى الدّار وأخذتُ الحبل.

زحزحتُ الصفيحة وناديته. ـ فِليبّو!

ـ ميكيلي!. بدأ يتحرّك بكلّ جسمه. كان ينتظرني.

ـ لقد جئتُ. أرأيت؟ أرأيت أنّني جئتُ؟

ـ كنتُ أعرف ذلك.

ـ أخبرتك به الدّببة الغسّالة؟

ـ كلاّ. كنتُ أعرف ذلك لأنّك وعدتني.

ـ أنت على حقّ. الدببة الغسّالة موجودة. قرأتُ ذلك في كتاب. ورأيتُ الصورة أيضاً.

ـ حيوان جميل. أليس كذلك؟

ـ رائع. هل صادف أن رأيتَ واحدا منها؟

ـ نعم. هل تسمع؟ هل تسمع كيف تصفّر؟

لم أكن أسمع أيّ صفير. لا فائدة. إنّه مجنون.

ـ تعال! ـ وأشار إِليّ بالنزول.

أمسكت بالحبل. ـ ها أنا ـ .ونزلتُ.

نظّفوا المكان. كان السطل فارغا والقدر مليئة بالماء. وكان فِليبّو ملفوفا في بطانيته القذرة، ولكنّهم غسلوه ولفّوا عرقوب ساقه في عصابة ونزعوا عنه السلسلة.

ـ لقد غسلوك!

ابتسم. لم يغسلوا أسنانه.

ـ من فعل ذلك؟

كان يُمسك يده أمام عينيه. ـ سيّد الدّيدان وخدمه الأقزام. لقد نزلوا وغسلوني بالكامل، ولكني قلت لهم إنّهم يستطيعون غسلي قدر ما يريدون ولكنّك في النهاية ستقبض عليهم وأنّهم يستطيعون أن يهربوا إلى أبعد ما يريدون ولكنّك ستلاحقهم كيلومترات طويلة دون أن تتعب.

قبضتُ معصمَه. ـ لا تقل لي إنّك ذكرتَ اسمي؟

ـ أيّ اسم؟

ـ اسمي.

ـ وأنت ما اسمك؟

ـ ميكيلي...

ـ ميكيلي؟ لا!

ـ لقد ناديتني منذ حين...

ـ اسمك ليس ميكيلي.

ـ ما هو اسمي إذاً؟

ـ دُلوراس.

ـ اسمي ليس دلوراس. أنا ميكيلي أميترانو.

ـ لك ذلك إن أردتَ ـ.بدا لي أنّه يسخر منّي.

ـ ولكنْ، ماذا قلت لسيّد الدّيدان؟

ـ قلت له إنّ الملاك الحارس سيقبض عليهم.

تنفّست الصعداء. ـ آه، برافو! قلت إنّي الملاك الحارس ـ. أخذتُ الكعكة من جيبي. ـ انظر بماذا جئتُ إليك. لقد تفتّتت... ـ لم أتمّ بعدُ الجملة حتّى ارتمى عليّ.

افتكّ ما تبقّى من الكعكة وحشرها كلّها في فمه ثمّ أخذ يبحث عن الفتات مغمض العينيْن.

أدخل يديه في كلّ مكان. ـ هاتِ! هاتِ! زِدني قليلا! ـ كان يجرّحني بأظافره.

ـ انتهى. لم يعدْ منها شيء. أُقسم لك. انتظر... ـ في الجيب الخلفيّ، كانت توجد الحلوى. ـ خذ. خذ.

كان يفتحها ويمضغها ثم يبتلعها بسرعة مدهشة.

ـ زدني! زدني!

ـ لقد أعطيتك كلّ شيء.

لم يصدّق أنّه لم يعدْ هناك شيء. كان يواصل البحث عن الفتات.

ـ غدا سأحمل إليك شيئاً آخر. ماذا تريد؟

بدأ يحكّ رأسه. ـ أريد... أريد... الخبز. الخبز بالزبد، بالزبد والـمُربَّى. والجمبون. والجبن والشكلاطة. أريد سندويتشا عظيما.

ـ سأرى ماذا يوجد في المنزل.

جلستُ. لم يكن فِليبّو يتوقّف عن لمس قدميّ وعن فكّ نعليّ.

وفجأة خَامَرَتْنِي فكرة، فكرة عظيمة.

لم يكن مشدودا بالسلسلة. كان حرّا. يُمكن أن أحمله إلى الخارج.

سألته:

ـ هل تريد أن تخرج؟

ـ أن أخرج إلى أين؟

ـ إلى الخارج.

ـ إلى الخارج؟

ـ نعم، إلى الخارج، خارج الحفرة.

بقي صامتا ثمّ سأل:

ـ خارج الحفرة؟ أيّ حفرة؟

ـ هذه الحفرة. الحفرة التي نحن فيها.

حرّك رأسه بالنفي. ـ ليست هناك حُفر.

ـ وهذه ليست حفرة؟

ـ كلاّ.

ـ بل إنّها حفرة وأنت نفسك قلت ذلك.

ـ متى قلت ذلك؟

ـ لقد قلت إنّ العالم كلّه حُفر يوجد فيها الموتى. وحتّى القمر مليءٌ بالحُفر.

ـ أنت مخطئ. لم أقل ذلك.

بدأ صبري ينفد. ـ أين نوجد الآن إذاً؟

ـ في مكان ننتظر فيه.

ـ وماذا ننتظر؟

ـ أن نذهب إلى الجنّة.

صحيح. إنْ بقيتَ في الحفرة طول حياتك فإنّك تموت وتصعد روحك إلى الجنّة. عندما تناقش فِليبّو تختلط أفكارك.

ـ هيّا، سأحملك إلى الخارج. هيّا ـ أمسكتُ به، ولكنّه تصلّب كلّه وبدأ يرتعش. ـ حسناً. حسناً. لن نخرج. اهدأ. لن أفعل شيئاً.

أدخل رأسه تحت الغطاء. ـ في الخارج لا يوجد هواء. في الخارج أختنق. لا أريد أن أخرج.

ـ هذا غير صحيح. في الخارج هواء كثير. أنا دائماً خارج المنزل ولا أختنق. كيف تفسّر هذا؟

ـ أنت ملاك.

كان عليّ أن أقنعه. ـ استمع إليّ جيّداً. بالأمس أقسمت أنّي سأعود وها أنا عدت. والآن أقسم أنّه لن يصيبك أذى لو خرجت من الحفرة. يجب أن تصدّقني.

ـ لماذا يجب أن أخرج؟ أنا مرتاح هنا.

كان يجب أن أكذب. ـ لأنّ الجنّة خارج الحفرة. وأنا سأحملك إلى الجنّة. أنا ملاك وأنت ميّت. وعليّ أن أحملك إلى الجنّة.

فكّر في ذلك قليلا. ـ تقول الحقيقة؟

ـ الحقيقة.

ـ هيّا إذاً ـ وأطلق صيحات حادّة.

حاولتُ أن أوقفه ولكنّه كان يحتفظ بساقيْه مثنيّتيْن. كان لا يستطيع الوقوف. وإنْ لم أسنده سقط. في نهاية الأمر ربطتُ الحبل حول حزامه ولففتُ رأسه في الغطاء ليبقى هادئا. ثمّ صعدتُ وبدأتُ أجذبه إلى فوق. كان ثقيلاً جدّا. كان يتدلّى على بعد عشرين سنتيمتراً من القاع، كلّه متصلّب ومائل وأنا من فوق، والحبل على كتفي وكلّي منحنٍ إلى الأمام دون أن أجد القوة الكافية لجذبه.

ـ فِليبّو، ساعدني. لا أستطيع وحدي.

ولكنّه كان مثل الصّخرة وكان الحبل يفلتُ من يديّ. قمتُ بخطوة إلى الوراء فصار الحبل مرتخياً. لقد لمس الأرض.

نظرتُ داخل الحفرة فوجدته مستلقياً على ظهره والغطاء على وجهه.

ـ فَليبّو، أنت بخير؟

سألني:

- هل وصلتُ؟

- انتظر - .طفتُ حول الدّار بحثاً عن لوحة أو عمود أو شيء يُعينني. وجدتُ في الإسطبل باباً قديماً مقشّر اللّون ونصف مكسّر. جذبته إلى السّاحة. كنتُ أريد إنزاله في الحفرة ليصعد فوقه فِليبّو. أوقفتُ الباب على الحافة، ولكنّه سقط منّي على الأرض وانقسم إلى نصفيْن مليئيْن بالشظايا المدبّبة. كان اللّوح متآكلاً بالسّوس ولا يصلح.

كان فِليبّو ينادي:

- ميكيلي؟

أجبته صائحا:

- لحظة! انتظر لحظة!- أخذتُ نصفا من ذلك الباب الملعون ورفعته فوق رأسي ثمّ ألقيْته على سلّم.

سلّم؟

كان هناك سلّم على مسافة متريْن من الحفرة. سلّم جميل من اللّوح المدهون بالأخضر ملقًى على اللّبلاب الذي يغطّي كومة من الرّدم والتراب. كان هناك منذ البداية لكنّني لم أنتبه إليه. كانوا يستعملونه للنزول.

قلت لفِليبّو:

- وجدتُ سلّما! - ثمّ أخذته وأنزلته داخل الحفرة.

جذبته إلى الغابة الصغيرة تحت شجرة. كانت هناك العصافير والصراصير والظلّ. وكانت هناك رائحة طيّبة، رائحة أرض نديّة وطحلب.

سألته: هل يُمكن أن أنزع الغطاء عن وجهك؟

ـ هل هناك شمس؟

ـ لا.

لم يكن يريد نزع الغطاء. وفي نهاية الأمر أقنعته بأن يعصب عينيْه بقميصي. كان سعيدا وكان ذلك واضحا من الابتسامة التي ارتسمت على وجهه. وكانت هناك نسمة خفيفة تداعب جلده وكان سعيدا بها.

سألته:

ـ لماذا وضعوك هنا؟

ـ لستُ أدري. لا أذكر.

ـ لا تذكر شيئاً البتّة؟

ـ وجدتُ نفسي هنا.

ـ ماذا تذكر؟

ـ أذكر أنّني كنتُ في المدرسة.ـ كان يتمايل برأسه. ـ هذا أذكره جيّداً. كنتُ في درس الرياضة البدنيّة ثمّ خرجتُ. توقّفتْ سيّارة بيضاء ووجدتُ نفسي هنا.

ـ ولكن، أين تسكن؟

- شارع موديلياني، 26. في الزاوية مع شارع كفاليير داربينو.

- وأين يوجد؟

- في بافيا.

- في إيطاليا؟

- نعم.

- هنا أيضاً إيطاليا.

توقّف عن الحديث. ظننتُ أنّه نام لكنّه سألني فجأة:

- ما هي هذه الطيور؟

نظرتُ حولي. ـ عصافير.

- أنت متأكّد أنّها ليست خفافيش؟

- لا. الخفافيش تنام في النهار وأصواتُها مختلفة.

- الثعالب الطائرة على العكس تطير في النهار أيضاً وتصفّر مثل الطيور وتزن أكثر من كيلوغرام. وإذا تعلّقت بغصن صغير تسقط على الأرض. وهذه، حسب رأيي، هي ثعالب طائرة.

بعد حكاية الدببة الغسّالة لم أعد أجرؤ على قول شيء. ربّما توجد أيضاً في أمريكا ثعالب تطير. سألته:

- و أنت، هل ذهبتَ مرّة إلى أمريكا؟

ـ يوم أمس رأيتُ ماما. قالت إنّها لا تستطيع أن تأتيَ لأخذي معها لأنّها ماتت. ماتت مع كلّ العائلة وإلاّ لقالت لي إنّها ستأتي على الفور.

وضعتُ يديّ على أذنيّ.

ـ فِليبّو، الوقت متأخّر. يجب أن أعيدك إلى الحفرة.

ـ أستطيع أن أعود إلى الحفرة، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حسناً. هيّا.

كان قد بقي صامتا نصف ساعة والقميص يغطّي عينيْه. ومن حين إلى آخر، كان فمه وعنقه يتصلّبان وأصابع يديه وساقيْه تتقلّص في شيء يُشبه التشنّج. بقي مسحورا جامدا لا يتحرّك، يستمع إلى الثعالب الطّائرة.

ـ تعلّق برقبتي ـ.أحاطني بذراعيْه. حملته إلى أن وصلنا الحفرة. ـ الآن سننزل السلّم. أمسك بي جيّدا. لا تتركني.

كان الأمر عسيراً. كان فِليبّو يطوّق عنقي بشدّة حتّى أنّني أكاد لا أتنفّس ولا أستطيع أن أرى درجات السلّم، فكنتُ مضطرّا إلى تلمّسها بقدميّ.

وعندما وصلنا القاع كنتُ شاحباً مثل الرّداء وألهث. وضعته في ركن وغطّيته ثمّ سقيته قليلا من الماء وقلتُ له:

ـ الوقت متأخّر. يجب أن أذهب. بابا سيقتلني.

ـ أنا باق هنا. ولكن يجب أن تحمل إليّ السندويتشات. وأيضاً دجاجا مصليا.

ـ نأكل الدّجاج يوم الأحد. اليوم تعدّ ماما الكباب. هل تحبّ الكباب؟

ـ بالطماطم؟

ـ نعم.

ـ أحبّها كثيراً.

كنتُ آسفا لتركه. ـ إذاً أنا ذاهب... ـ كنتُ على وشك الإمساك بإحدى الدَّرَجات عندما جذب أحد السلّم.

رفعتُ عينيّ.

ظهر على الحافة رأس مغطّى بقناع داكن اللّون. كان يرتدي زيّا مثل زيّ الجنود تماماً. ـ يا هلا! يا هلا! شهر أبريل مضى ـ بدأ يغنّي ويدور على نفسه. ـ ومايو أفاق على شدو الوقواق! تَخيَّلْ من أنا؟

ـ فِليتشي!

ـ برافو! ـ قال ذلك ثمّ بقي صامتاً لحظة. ـ الّلعنة عليك! كيف عرفتَ ذلك؟ انتظر! انتظر لحظة.

غاب بعض الوقت وعاد وبيده بندقيّة.

ـ أنتَ هو إذاً! ـ كان فِليتشي يضرب كفّا بكفّ. ـ أنتَ هو إذاً، يا ابن الملعونة! كنتُ أجد دائماً الأشياء في

وضع مختلف. في البداية ظننتُ أنّني مجنون. ثمّ فكّرت إنّه الشّبح فورماجينو بينما كنتَ أنتَ يا ميكيلينو. الآن ارتحتُ. كدتُ أجنّ.

أحسستُ بقبضة انغلقت على عرقوب ساقي. كان فِليبّو متشبّثا بقدمي وهو يهمس. ـ سيّد الديدان يأتي ويذهب. سيّد الديدان يأتي ويذهب. سيّد الديدان يأتي ويذهب.

الآن عرفتُ من هو سيّد الديدان.

نظر إليّ فِليتشي من ثقبتيْ القناع. ـ تعرّفتَ إذاً على الأمير؟ أرأيت كيف غسلته جيّدا؟ كان لا يريد ذلك، ولكنّني غلبته. ولكنّه لم يُرد أن يسلّمني البطانية.

كنتُ في الفخّ. لم أكن أستطيع رؤيته. كانت أشعّة الشمس تنفذ من بين الأغصان الـمُورِقة وتعمي بصري.

ـ خذ هذه!

وانغرس سكّين في الأرض. على بعد عشرة سنتيمترات من نعلي وعشرين سنتيمترا من رأس فِليبّو.

ـ هل رأيت دقّة تصويبي؟ كان بإمكاني أن أغرسه بسهولة في إصبع قدمك الأكبر. وبعد ذلك ماذا ستفعل؟

كنتُ عاجزا عن الكلام كما لو أنّ أحدا سدّ حلقي.

ـ ماذا ستفعل دون إصبع؟ ـ كرّر قائلا. ـ قل لي ماذا ستفعل؟ قل ماذا ستفعل؟

ـ أموت بعد أن أفرغ من الدم.

ـ برافو. وإذا أصبتك بهذه، ـ وأراني البندقيّة، ـ ماذا سيحصل؟

ـ أموت.

ـ أرأيتَ أنّك تعرف كلّ شيء. هيّا، اصعد!- أخذ فِليتشي السلّم وأنزله.

لم أكن أريد الصعود. ولكن لا خيار لي. سيطلق عليّ الرّصاص. لم أكن واثقاً من أنّني قادر على الصعود. كانت ساقاي ترتعشان.

قال فِليتشي:

ـ انتظر، انتظر. هات الموسى، من فضلك.

انحنيْتُ فهمس لي فِليبّو:

ـ لن تعود أبدا؟

انتزعتُ الموسى من الأرض ودون أن يراني أجبتُ فِليبّو بصوت خافت:

ـ سأعود.

ـ تَعِدني بذلك؟

أمرني فِليتشي قائلاً:

ـ أغلقْ الموسى وضَعْه في جيبك.

ـ أعدك.

هيّا، هيّا! اصعد، أيّها الأحمق. ماذا تنتظر؟

بدأتُ في الصعود بينما كان فِليبّو يواصل همسه. ـ سيّد الديدان يأتي ويذهب. سيّد الديدان يأتي ويذهب. سيّد الديدان يأتي ويذهب.

وعندما أوشكتُ على الخروج من الحفرة أمسكني فِليتشي بكلتا يديه من بنطلوني ورَماني على حائط الدّار كما لو كنتُ كيساً. ٱرْتطمْتُ بالحائط ثم هويتُ على الأرض. حاولت القيام. أصِبتُ في جنبي، وكان وجع حادّ يشلّ ساقي وذراعي. التفتُّ. نزع فِليتشي القناع وأخذ يتقدّم نحوي بخطوة المهاجم والبندقيّة مصوّبة نحوي. كنتُ أرى جزمته السوداء تتضخّم شيئاً فشيئاً مثل الدبّابة.

فكّرتُ. الآن سيطلق عليّ الرّصاص.

بدأتُ أزحف ملتصقا بالأرض نحو الغابة.

ـ كنتَ تساعده على الفرار. أليس كذلك؟ ولكنّك أخطأتَ. من يحسب وحده لا يحقّق وعده.ـ.ركلني بقدمه في أسفل ظهري. ـ انهض أيها الأحمق. ماذا تفعل هكذا على الأرض؟ انهض! أو إنّك أصِبت بسوء؟ ـ رفعني من أذني. ـ من حسن حظّك أنّك ابن أبيك. وإلاّ في هذه السّاعة... الآن سآخذك إلى البيت وسيقرّر أبوك العقاب الذي تستحقّه. أنا قمتُ بواجبي. قمتُ بالحراسة. وكان ينبغي أن أطلق عليك الرّصاص.ـ.جرّني إلى الغاب الصغير. كنتُ من شدّة الخوف لا أقدر حتّى على البكاء. كنتُ أتعثّر وأسقط على الأرض وكان هو يرفعني من أذني ويوقفني. ـ تحرّك، هيّا هيّا هيّا!

خرجنا من بين الأشجار.

أمامنا كان البحر المصفرّ والملتهب من سنابل القمح يمتدّ حتّى يكاد يُلامس السّماء. لو غطستُ فيه لما وجدني أبداً.

دفعني فِليتشي بقصبة البندقيّة نحو الفيات 127، ثمّ صاح بي:

ـ آه، تذكّرت! أأرْجع إليَّ الموسى!

حاولتُ أن أعيدها إليه ولكنّني لم أقدر على إدخال يدي في جيبي.

ـ دع عنك! ـ وأخذ منّي الموسى ثمّ فتح الباب ورفع الكرسيّ الأمامي قائلاً:

ـ اصعد!

ركبتُ السيّارة وفي المقعد الأماميّ كان يوجد سلفاتوري.

ـ سلفاتوري، ماذا تـ...؟ ـ وماتت بقيّة الكلمات في شفتيّ.

كان سلفاتوري إذاً. وشى بي إلى فِليتشي.

نظر إليّ سلفاتوري ثمّ أدار وجهه إلى ناحية أخرى.

جلستُ على المقعد الخلفي دون أن أنبس بكلمة.

جلس فِليتشي إلى المقود. ـ سلفاتوري العزيز، برافو عليك. هات يدكـ.وصاقحه. ـ كنتَ على حقّ. لقد كان

الفضوليّ هنا. وأنا كنتُ لا أصدّقك- ثمّ نزل. ـ الوعد وعد. وعندما يعد فِليتشي نَطالي بشيء فإنّه يفي بالوعد. سُق السيّارة. ولكن سِرْ ببطء.

سأله سلفاتوري:

- الآن؟

- ومتى تريد؟ اجلس في مكاني.

صعد فِليتشي من جهة الرّاكب ومرّ سلفاتوري أمام المقود. ـ هذا أفضل مكان لتعلّم السياقة. يكفي أن تتّبع المنحدر وأن تدوس على الفرامل من حين إلى آخر.

لقد باعني سلفاتوري سكرداتشوني مقابل درس في السياقة.

- بهذه الطريقة ستكسر العربة!- كان فِليتشي يصيح ويراقب بوجهه الملتصق بالبلّور الأماميّ سطح الطريق غير المتساوي. ـ اضغط على الفرامل! اضغط على الفرامل!

كان سلفاتوري يصل بصعوبة إلى مستوى المقود وكان يُمسك به كأنّما يريد كسره.

عندما صوّب فِليتشي البندقيّة نحوي بُلت على نفسي. الآن فقط تفطّنت إلى ذلك. كان بنطلوني مبلّلا.

كانت السيارة مليئة بذبابات كبيرة مهتاجة. وكنّا نهتزّ فوق الحدبات ونسقط في الحُفر وكان عليّ أن أتشبّث بقوّة بِمقبض الباب.

لم يقل لي سلفاتوري أبداً إنّه يريد تعلّم السياقة. كان باستطاعته أن يطلب ذلك من أبيه. كان لا يرفض له شيئاً أبداً. لماذا طلب ذلك من فِليتشي؟

كنتُ أحسّ بوجع في كلّ بدني، في ركبتيّ المخدوشتيْن، في ضلوعي، في ذراعي وفي معصمي. وكان الوجع خصوصا في فؤادي. لقد حطّمه سلفاتوري.

كان أعزّ أصدقائي. مرّة، فوق شجرة الخرّوب، أقسمنا على الصداقة الأبديّة. كنَّا نعود معا من المدرسة. وعندما يخرج أحدنا قبل الآخر ينتظر صاحبه.

لقد خانني سلفاتوري.

كانت أمّي على صواب عندما تقول إنّ عائلة سكرداتشوني يعتبرون أنفسهم فوق الآخرين فقط لأنّهم أكثر مالا. وكانت تقول إنّهم لا يلتفتون إليك حتّى إنْ كنت على وشك الغرق. وفي أكثر من مرّة تخيّلت الأختيْن سكرداتشوني على حافة وَعْس تشتغلان على آلة الخياطة بينما كنتُ أغرق في الرّمال وأمدّ يدي طلبا للغوث، وهما ترميان لي الحلوى بالعسل وتقولان إنّهما لا تقدران على الوقوف لأنّ سيقانهما منتفخة. ولكن أنا وسلفاتوري كنّا أصدقاء.

إنّني أخطأت.

كانت تشدّني رغبة جامحة في البكاء ولكنّي أقسمتُ لنفسي أنّني لو ذرفتُ دمعة واحدة لأخذتُ مسدّس العجوز ولأطلقت النّار على نفسي. أخرجتُ من بنطلوني علبة فريق «لَنيروسي فيتشانسا». كانت مبلّلة كلّها بالبول.

ووضعتها على الكرسيّ.

صاح فِليتشي:

ـ كفى، توقّف! لم أعد أتحمّل هذا!

ضغط سلفاتوري بقوّة على الفرامل فانطفأ المحرّك وتوقّفت السيّارة بصفة مباغتة حتّى إنّ فِليتشي كاد أن يكسر أنفه على البلّور الأماميّ لولا أن مدّ يديه لتوقّي الضربة.

فتح الباب ونزل. ـ ابتعد عن المقود!

تنحّى سلفاتوري جانبا دون أن ينبس بكلمة.

أمسك فِليتشي بالمقود قائلاً:

ـ سلفاتوري العزيز. أقولها صراحة. أنتَ غير مؤهّل للسياقة. دع عنك هذا. مستقبلك في سباق الدرّاجات.

عندما دخلنا أكوا ترافَرسي وجدنا أختي وبربرا وريمو وجُمجمة يلعبون لعبة «العالم» وسط الغبار.

شاهدونا وتوقّفوا عن اللّعب.

كانت شاحنة أبي غير موجودة وكذلك سيّارة العجوز.

أوقف فِليتشي الفيات 127 في المستودع.

هرع سلفاتوري خارج السيّارة. أخذ درّاجته وانطلق دون حتّى أن ينظر إليّ.

رفع فِليتشي الكرسيّ الأمامي. ـ أخرج!

لم أكن أريد الخروج.

ذات مرّة، في المدرسة، كسرتُ الباب الزجّاجيّ الذي يفضي إلى السّاحة بإحدى تلك العصيّ التي نستعملها في الرياضة البدنيّة. كنتُ أريدُ أن أبيّن لتِرْبٍ لي اسمه أنجيلو كانتيني أنّ ذلك الزّجاج غير قابل للكسر. وعلى عكس ذلك، تحطّم وتحوّل إلى مليار من المكعّبات الصغيرة المربّعة. استدعى المدير أمّي وقال لها إنّه يريد التحادث معها.

لما وصلت أمّي نظرت إليّ وهمست في أذني:

ـ سنصفّي الحساب من بعد ـ، ثمّ دخلت إلى مكتب المدير بينما بقيتُ أنتظر جالسا في الرواق.

في تلك المرّة خفتُ خوفا شديدا، ولكن لا مقارنة بين ذلك الخوف وبين الخوف الذي كنتُ أحسّ به الآن. سيقصّ فليتشي كلّ شيء على أمّي وستقصّ بدورها ذلك على أبي. وسيغضب أبي غضبا لا حدّ له. وسيأخذني العجوز ويحملني معه.

كرّر فِليتشي قوله صائحا:

- اخرج!

تسلّحتُ بكلّ ما لديّ من شجاعة ونزلتُ من السيّارة.

كنتُ أشعر بالخجل. كان بنطلوني مبلّلا بالبول.

وضعت بَربرا يدها على فمها. وجرى ريمو ناحية جُمجمة. وخلعت ماريا نظّاراتها ونظّفتها بطرف قميصها.

كان هناك ضياء يعمي الأبصار وكنتُ لا أستطيع أن أفتح عينيّ. كنتُ أحسّ ورائي بخطوات فِليتشي الثقيلة. كانت أمّ بَربرا تطلّ من إحدى النوافذ. ومن نافذة أخرى كانت أمّ جُمجمة تطلّ. وكانت نظراتهما إليّ لا تعبّر عن أيّ معنى. ولولا أن نبح توقو بصوته الحادّ لكان الصّمتُ مطلقاً. أعطى جُمجمة ركلة إلى توقو فهرب وهو يعوي.

صعدتُ سلّم البيت وفتحتُ الباب.

كانت مصاريع النوافذ متدانية والضوء قليل. وكان الراديو مفتوحا ومروحة الهواء تدور. كانت أمّي في قميص داخليّ جالسة إلى الطاولة تقشّر البطاطس. رأتني داخلاً يتبعني فِليتشي. أفلت السكّين من يدها على الطاولة ثمّ سقط على الأرض. ـ ماذا حدث؟

حشر فِليتشي يديْه في زيّه العسكريّ. طأطأ رأسه وقال:

- وجدته هناك. مع الطفل الصغير.

وقفت أمّي من الكرسيّ. أطفأت الراديو وتقدّمت خطوة ثمّ أخرى وتوقّفت. وضعت يديْها على وجهها وجثت على الأرض وهي تنظر إليّ.

انفجرتُ باكياً.

جرت نحوي وأخذتني بين ذراعيها. ضمّتني بقوّة إلى صدرها وتفطّنتْ إلى أنّني كنتُ مبلّلا. أجلستني على الكرسيّ ونظرت إلى ساقيّ وذراعيّ المجرّحة وإلى الدّم المتجمّد على ركبتيّ. رفعت قميصي وسألتني:

ـ ماذا حدث لك؟

أشرتُ إلى فليتشي. ـ إنّه هو! إنّه هو... هو الذي... انهال عليّ بالضرب!

استدارت أمّي ونظرت إلى فِليتشي ثمّ صاحت به حانقة:

ـ ماذا فعلتَ له، أيّها التعيس!

رفع فِليتشي يديْه. ـ لا شيء. ماذا فعلتُ له؟ لقد عدتُ به إلى المنزل.

ضيّقت أمّي عينيْها. ـ أنت! كيف تسمح لنفسك، أنت؟ ـ كانت أوداجها منتفخة وصوتها مرتعشاً. ـ كيف تسمح لنفسك، إيه؟ ضربتَ ابني، يا ابن الكلب! ـ وانقضّت على فليتشي.

تراجع قائلاً:

ـ أعطيته ركلة على مؤخّرته. ماذا سيحدث له؟

حاولت أمّي صفعه فأمسك فليتشي بمعصميْها ليُبعدها عنه، ولكنّها صارت مثل اللبؤة. ـ يا ابن الكلب! إنّني سأفقع عينيْك!

ـ لقد وجدته في الحفرة... كان يريد إطلاق سراح الطفل. لم أفعل له شيئاً. كفى، اهدئي!

كانت أمّي حافية، ولكنّها أسدت له ركلة أصابت خصيتيْه.

أصدر فِليتشي المسكين عواء غريبا، مزيجا بين الغرغرة وامتصاص الرّيق مثلما يفعل حوض الغسيل عندما يمتصّ الماء ووضع يديه على أسفل بطنه ثمّ سقط على ركبتيْه. ارتسمت على وجهه تكشيرة ألم وحاول أن يصيح ولكنّه لم يقدر. انعدم الهواء في رئتيْه.

كنتُ واقفا على الكرسيّ وأمسكتُ عن البكاء. كنتُ أعرف مدى وجع الضربة على الخصيتيْن. وكانت تلك الضربة جديرة حقّا بالإعجاب.

كانت أمّي لا ترأف. أخذت المقلاة من الحوض وضربت فِليتشي في وجهه. أطلق صيحة ثمّ هوى على الأرض.

رفعت أمّي من جديد المقلاة. كانت تريد قتله، ولكنّ فِليتشي أمسكها من عرقوبها وجذبها. سقطت على الأرضيّة وأفلتت من يدها المقلاة، وارتمى فوقها فِليتشي بكلّ ثقله.

بدأت أصرخ يائسا:

-اتركها! اتركها! اتركها!- ولكن فِليتشي أمسكها من ذراعيها وجلس فوق بطنها وسمّرها على الأرض.

كانت أمّي تعضّ وتخدش مثل القطّة. ارتفع قميصها الداخليّ وبانت أردافها وكتلة الشعر الأسود بين فخذيْها.تمزّق كتف القميص فبرز ثديُها ناصعا كبيرا بحلمته الداكنة.

توقّف فِليتشي محدّقا فيها.

رأيتُه كيف كان ينظر إليها.

نزلتُ من الكرسيّ أريد قتله. ارتميتُ فوقه وحاولت خنقه.

في تلك اللّحظة بالذات دخل أبي والعجوز.

ارتمى أبي على فِليتشي. أمسكه من ذراعه وجذبه من فوق أمّي.

تدحرج فِليتشي على الأرضية وأنا معه.

صُدِمَ صُدغي صدمة قويّة وأحسستُ بصفير في رأسي مثل صفير مُغلِّي الماء، وفي خياشيمي مثل رائحة المطهّر الذي يستعملونه في مراحيض المدرسة وبيارق صفراء تنفجر أمام عينيّ.

كان أبي ينهال ركلا على فِليتشي وقَدْ زحف تحت الطاولة. وكان العجوز يُحاول مسك أبي الذي كان يفتح فمه ويمدّ يديْه ويركل الكراسي بقدميْه.

كان الصفير في رأسي شديدا حتّى أنّي كنتُ لا أسمع بكائي.

أخذتني أمّي وحملتني إلى غرفتها. أغلقت الباب بمرفقها ثمّ مدّدتني على الفراش. كنتُ لا أستطيع الكفّ عن البكاء. كان جسمي ينتفض كلّه وكنتُ محتقناً.

كانت أمّي تضمّني إليها وهي تقول:

-لم يحصل شيء. لم يحصل شيء. انتهى. انتهى كلّ شيء.

وبينما كنتُ أبكي كنتُ لا أستطيع أن أحوّل نظري عن صورة الأب «بيو» المعلّقة على الخزانة. كان الراهب ينظر إليّ ويبدو لي أنّه يبتسم راضياً.

في المطبخ، كان أبي والعجوز وفليتشي يتصايحون.

ثمّ خرج ثلاثتهم من البيت وأطبقوا الباب وراءهم بقوّة.

وساد الصّمت.

الحَمام ينوح تحت السّقف. وصوت الثلاّجة والصراصير ومروحة الهواء. كان هذا هو الصّمت.

ارتدت أمّي ثيابها وقد انتفختْ عيناها ثمّ طهّرت خدشا كان في كتفها. بعد ذلك غسلتني ونشّفتني ثمّ وضعتني في الفراش وغطّتني. أطعمتني خوخة بالسكّر ثمّ استلقت إلى جانبي. أمسكت بيدي وبقيت صامتة.

لم تكن لديّ القوّة حتّى لتحريك إصبع. أسندتُ رأسي إلى صدرها وأغلقتُ عينيّ.

فتح أحد الباب.

ـ كيف حاله؟

كان صوت أبي. كان يتكلّم بصوت خافت كما لو أنّ الطبيب قال له إنّي في آخر رمق.

مسحت أمّي على شعري. ـ لقد ضرب رأسه. ولكنّه الآن نائم.

ـ وأنتِ كيف حالك؟

ـ لا بأس.

ـ هل أنتِ متأكّدة؟

ـ نعم. ولكن لن يدخل ذلك التعيس بيتنا بعد الآن. وإنْ مسّ من جديد ميكيلي فسوف أقتله. وبعد ذلك أقتلك أنت.

ـ لقد قمتُ أنا بما يلزم. يجب أن أذهب.

ثم أغلق الباب.

انحنت عليّ أمّي وهمست في أذني:

ـ عندما تكبر اترك هذا المكان ولا تعدْ إليه أبداً.

كان الوقتُ ليلاً.

لم تكن أمّي بجانبي وكانت ماريا نائمة بالقرب منّي. كانت السّاعة ترسل دقّاتها من فوق المنضدة وعقاربُها تشعّ بلون أصفر. وكانت الوسادة تفوح برائحة أبي ونورُ المطبخ الأبيض يمرّ من تحت الباب.

وهناك كانوا يتخاصمون.

جاء أيضاً المحامي سكرداتشوني من روما. كانت المرّة الأولى التي يأتي إلى بيتنا.

في تلك العشيّة حدثت أشياء مَهولة، أشياء مهولة وعظيمة لا ينفع معها الغضب. وهكذا تركوني وحالي.

لم أعد أشعر بالاضطراب. كنتُ أحسّ بنفسي في أمان. أغلقت أمّي علينا باب غرفتها ولن تترك أحداً يدخل إليها.

كان في رأسي تورّمٌ يؤلمني عندما ألمسه، وفيما عدا ذلك كنتُ بخير. كان هذا يؤسفني قليلا. حالما يتفطّنان إلى أنّني غير مريض سوف يُعيدانني إلى الغرفة مع العجوز. وأنا أريد أن أبقى في فراشهما، دائماً، دون أن أخرج، دون أن أرى سلفاتوري وفِليتشي وفِليبّو. لا أحد، دون أن يتغيّر شيء.

كنتُ أسمع أصواتهم في المطبخ: العجوز والمحامي والحلاّق وأب جُمجمة وأبي. كانوا يتشاجرون بخصوص مكالمة هاتفيّة ينبغي أن يقوموا بها وعمّا يجب قوله.

وضعتُ رأسي تحت الوسادة.

كنتُ أرى المحيط من الحديد وهو في هيجان والأمواج من المسامير ترتفع ورشاش من الكُرات الحديديّة تضرب

الحافلة البيضاء وهي تغرق بصمت رافعة مُقدِّمها، وبداخلها كانتْ الوحوش، وقد سادهم الاضطراب، يضربون بقبضة أيديهم مرتاعين.

دون جدوى.

البلّور غير قابل للكسر.

فتحتُ عينيّ.

- ميكيلي، انهض- كان أبي جالسا على حافة الفراش يهزّني من كتفي. - يجب أن أتحدّث إليك.

كانت الغرفة مظلمة إلاّ من بقعة من النور كانت تغمر السّقف. كنتُ لا أرى عينيْه ولم أكن أعرف إنْ كان غاضبا.

كان الحديث متواصلا في المطبخ.

- ميكيلي، ماذا فعلت اليوم؟

- لا شيء.

- لا تقل حماقات- كان غاضباً.

- لم أفعل شيئاً سيّئا. أقسم لك.

- لقد وجدك فِليتشي مع ذلك الطفل. قال إنّك كنت تريد مساعدته على الفرار.

استقمتُ جالسا. ـ لا! غيرِ صحيح! أقسم لك! أخرجته من الحفرة ثمّ أعدته إليها فوراً. لم أكن أريد مساعدته على الهرب. فليتشي يكذب.

ـ تكلّمْ بصوت خافت. أختك نائمة.ـكانت ماريا مستلقية على بطنها وهي تحتضن الوسادة.

همستُ. ـ لا تصدّق قولي؟

نظر إليّ. كانت عيناه لامعتيْن في الظلام مثل عينيْ كلب.

ـ كم رأيتَه من مرّة؟

ـ ثلاث مرّات.

ـ كم من مرّة؟

ـ أربع.

ـ هل يستطيع التعرّف إليك ؟

ـ ماذا؟

ـ إن رآك هل يتعرّف إليك ؟

فكّرت قليلا. ـ كلاّ. إنّه لا يرى. يحتفظ دائماً برأسه تحت الغطاء.

ـ هل ذكرتَ له اسمك ؟

ـ لا.

هل تحادثت معه؟

ـ لا... قليلاً.

ـ ماذا قال لك؟

ـ لا شيء. يتحدّث عن أشياء غريبة، لا يُفهم منها شيء.

ـ وأنت ماذا قلت له؟

ـ لا شيء.

نهض. كان يبدو عازمًا على الذهاب ثمّ جلس من جديد على حافة الفراش. ـ استمع إليّ جيّدا. لست أمزح. إنْ رجعتَ إلى ذلك المكان فسوف أُقتلك ضربًا. إنْ رجعت مرّة أخرى إلى ذلك المكان فسوف يرمون رأسه بالرّصاص ـ ثمّ هزّني هزّة عنيفة. ـ كلّ هذا بسببك.

تمتمتُ:

ـ لن أعود. أقسم لك.

ـ أقسم برأسي.

ـ أقسم برأسك.

ـ قل أقسم برأسك أنّني لن أعود إلى هنالك أبداً.

قلتُ:

ـ أقسمُ برأسك أنّني لن أعود هنالك أبداً.

ـ إنّك أقسمتَ برأس أبيك ـ ثمّ بقي صامتا وهو جالس بجانبي.

في المطبخ، كان أب بَربرا وفِليتشي يتخاصمان.

نظر أبي خارج النافذة. ـ اِنْسَ ذلك الطفل. لم يعدْ موجودًا. ولا تتحدّث في هذا مع أحد، أبداً.

ـ فهمتُ. لن أذهب إلى هنالك.

أشعل سيجارة.

سألته:

ـ لا تزال غاضباً عليَّ؟

ـ كلاّ. نَمْ ـ.تنفّس الدخان بعمق واستند إلى حافة النافذة بيديْه. كان شعره اللاّمع يشعّ بنور العمود الكهربائيّ. ـ ولكن، بالله قل لي، لماذا يبقى الأطفال الآخرون طيّبين وأنت تروح هُناكَ وهناك ترتكب الحماقات؟

ـ إذاً ما زلت غاضباً؟

ـ لا. لست غاضبا. كُفَّ عن هذا ـ.أخذ رأسه بين يديْه وهمس. ـ يا لَها من مِحنة ـ.كان يحرّك رأسه يَمنة ويَسرة. ـ هناك أشياء تبدو خاطئة عندما... ـ كان صوته متشنّجا وكان لا يجد الكلمات. ـ العالم كلّه خطأ، يا ميكيلي.

نهض وتمطّى بظهره ثم تهيّأ للخروج. ـ نَمْ. يجب أن أعود إليهم.

ـ بابا، هل تستطيع أن تفسّر لي شيئا؟

ألقى بالسيجارة من النافذة. ـ ماذا تريد؟

ـ لماذا وضعتموه في الحفرة؟ إنّني لم أفهم جيّدا لماذا.

- نعم.

- سنرحل قريباً.

- إلى أين؟

- إلى الشمال. هل أنت مسرور؟

حرّكت رأسي بالإيجاب.

رجع إلى جانبي وحدّق في عينيّ. كان فمه يفوح برائحة الخمر. ـ ميكيلي، سأخاطبك كما لو كنتَ رجلاً. استمع إليّ جيّدا. إن أنتَ عدتَ إليه فسوف يقتلونه. لقد أقسموا على ذلك. يجب أن لا تعود إليه إن كنت لا تريد أن يطلقوا عليه الرّصاص وإن كنت تريد أن نرحل من هنا. ويجب أن لا تكشف هذا لأحد أبداً. هل فهمت؟

- فهمتُ.

قبّل رأسي. ـ الآن نَمْ ولا تفكّر في هذا. هل تحبّ أباك؟

- نعم.

- هل تريد أن تساعده؟

- نعم.

ـ الآن، اِنْسَ كلّ شيء.

ـ حسنا.

ـ نَم الآن ـ ثمّ قبّل ماريا دون أن تتفطّن إلى ذلك وخرج من الغرفة مغلقاً الباب بلطف.

7

كان كلّ شيء في فوضى.

الطاولة مليئة بالقوارير والفناجين والأطباق المتّسخة. والذبابُ يطنّ فوق بقايا الطعام. وبقايا السجائر تفيض من الحاويات. والمقاعدُ والكراسي هنا هناك. ورائحة دخان كريهة.

كان باب غرفتي منفتحاً. وكان العجوز نائمًا بثيابه على فراش أختي يتدلّى ذراعُه نحو الأرض وفمُه مفتوح. وكان من حين إلى آخر ينشّ ذبابة تتجوّل فوق وجهه. أمّا أبي فقد نام في فراشي ووجهه نحو الحائط. وكانت أمّي نائمة على الأريكة منكمشة على نفسها. غطّت جسمها ببطانية بيضاء مطرّزة. لا يظهر منها غيرُ شعرها الأسود وجانبٌ من جبينها وقدم عارية.

كان باب البيت مفتوحاً على مصراعيْه ونسمة من الهواء الدافئ تحرّك صفحات الجريدة على الصّوان.

صاح الدّيك.

فتحتُ الثلاجة. أخذت الحليب وملأتُ كوباً ثمّ خرجتُ إلى الشرفة. جلستُ على الدّرجات وبقيتُ أتأمّل الفجر.

كان اللون برتقاليّا فاقعا تشوبه كتلة لزجة بنفسجيّة تمتدّ على الأفق مثل القطن. وفوق كلّ ذلك، كانت السّماء صافية سوداء لا تزال بعض النجوم تشعّ فيها.

فَرغْتُ من شرب الحليب ووضعت الكوب على إحدى الدّرجات ثمّ نزلتُ إلى الشارع.

كانت كرة جُمجمة قرب المقعد العموميّ. ركلتها بقدمي فتدحرجت وغابت تحت سيّارة العجوز.

ظهر توقو من المستودع. عوى وتثاءب في الوقت نفسه. تمطّط متمدّدا على طوله جارّا قائمتيْه الخلفيّتيْن. ثمّ تقدّم نحوي وهو يلوّح بذنبه.

جثوتُ على ركبتيّ. ـ توقو، كيف حالك؟

أخذ يدي بين فكّيه وجذبني. لم يكن يضغط على يدي بقوّة ولكنّ أسنانه كانت مدبّبة.

-إلى أين تريد أن تحملني؟ قل لي، أين تريد أن تحملني؟

تبعته إلى المستودع. رفرف الحمام الذي كان قابعا على أعمدة الحديد التي تسند السقف وطار إلى الخارج.

كان مرقده في إحدى الزوايا على الأرض: بطانية قديمة رمادية اللّون، كلّها ثقوب.

ـ تريد أن تريَني بيتك؟

تمدّد توقو وفتح قوائمه مثل الدجاجة المشويّة.

كنتُ أعرف ماذا يريد. داعبتُ بطنه بأصابعي وبقي يستمتع بذلك دون حراك ملوّحا بذنبه يمينا وشمالا.

كانت البطانية مثل بطانية فِليبّو تماما.

قرّبتُ أنفي منها. لم تكن رائحتها كريهة مثل بطانيّته.

كانت تنبعث منها رائحة كلب.

كنتُ متمدّدًا على الفراش أقرأ مجلّة «تاكس».

مكثت في غرفتي كامل اليوم مثلما يحدث عندما أُصَاب بالحمّى ولا أذهب إلى المدرسة. جاء ريمو وسألني إن كنتُ أريد أن ألعب، لكنّني رفضتُ وقلت إنّي مريض.

نظّفت أمّي البيت إلى أن عاد ساطعاً مثلما كان ثمّ ذهبت إلى أمّ بربرا. أمّا أبي والعجوزُ فقد خرجا من المنزل عندما استفاقا.

دخلت أختي الغرفة تجري وقفزت على الفراش مسرورة. كانت تمسك شيئاً وراء ظهرها.

- تصوّر ماذا أقرضتني بَربرا؟

خفضت المجلّة. ـ لا أعرف.

- هيّا، خمّن!

- لا أعرف ـ.لم تكن لديّ رغبة في اللّعب.

أخرجت من وراء ظهرها «كان»، زوج «باربي»، ذلك الطويل النحيف المتعجرف كبرياء. ـ هكذا يُمكننا أن نلعب معا. أنا آخذ «باولا» وأنت تأخذ «كان». سنخلع لباسهما ونضعهما في الثلاجة... وهكذا يتعانقان. هل فهمت؟

ـ لا رغبة لي في اللّعب.

تأمّلت فيّ. ـ ما بك؟

ـ لا شيء. اتركيني وحالي. إنّني أطالع.

تأفّفت ماريا. ـ يا لك من مُضجر! ـ ثمّ خرجت.

عدتُ إلى المطالعة. إنَّهُ عدد جديد من المجلّة أقرضني إيّاه ريمو. ولكنّني كنت غير قادر على التركيز. ألقيتُه على الأرض.

كنتُ أفكّر في فِليبّو.

والآن، كيف سأفعل؟ لقد وعدتُه بالعودة إليه، لكنّني لا أستطيع. أقسمتُ لأبي ألاّ أرجع.

وإذا رجعتُ إليه فسوف يُطلقون عليه الرّصاص.

ولكن لماذا؟ لم أكن أريده أن يهرب، كنتُ أتحادث معه فحسب. ليس في هذا ضرر.

فِليبّو ينتظرني. إنّه هناك، في الحفرة، يتساءل متى سأعود إليه، متى سأحمل إليه الكباب.

قلتُ بصوت مرتفع:

- لا أستطيع المجيء.

في المرّة الأخيرة التي ذهبتُ إليه قلتُ له: «أرأيتَ، إنّني جئتُ؟»، فأجابني إنّه كان يعرف ذلك. وليست الدّببة الغسّالة هي التي أخبرته. «لقد وعدتني».

يكفيني أن أحادثه خمس دقائق. «فِليبّو، لا أستطيع أن أعود إليك. إنْ عدتُ فسوف يقتلونك. سامحني. ليست غلطتي». وهكذا يطمئِنُّ قلبُه. بينما إنْ لم أَعُدْ فسيظنّ أنّني لا أريد رؤيته وأنّني لا أفي بوعودي. ولكن هذا غير صحيح. كان هذا الأمر يقضّ مضجعي.

إن تعذّر عليّ الذهاب إليه فإنّ أبي يستطيع أن يقول له ذلك. «آسف ميكيلي، لا يستطيع المجيء. لهذا السّبب لا يفي بوعده. إن أتاك فسوف يقتلونك. أبلّغك تحيّاته».

- كفى، يجب أن أنساه! - قلتُ ذلك للغرفة ثمّ أخذتُ المجلّة وذهبتُ إلى بيت الرّاحة. جلستُ على المرحاض وبدأتُ أقرأ، لكنّني توقّفتُ في الحال.

كان أبي يناديني من الشارع.

ماذا يريد منّي؟ لم أفعل شيئاً. لم أخرج من المنزل. لبستُ بنطلوني وخرجتُ إلى الشرفة.

- تعال! تعال هنا!- وأشار إليّ بالنّزول. كان واقفا بجانب الشاحنة. وكانت هناك أيضاً أمّي وماريا وجُمجمة وبربرا.

- ماذا جرى؟

قالت أمّي:

- انزل، هناك مفاجأة.

فِليبّو. أطلق أبي سراح فِليبّو وحمله إليّ.

توقّف قلبي عن النبض. وسارعتُ بالنزول. - أين هو؟

- ابق حيث أنت-.صعد أبي فوق الشاحنة وأخرج المفاجأة.

- ما رأيك؟ - سألني أبي.

وأمّي من بعده. - ما رأيك؟

كانت درّاجة حمراء اللّون يشبه مقودُها قرنيْ ثور وعجلتها الأماميّة أصغر. ذاتُ ثلاثة مستويات للسّرعة. وكان مطّاطُ عجلاتها في شكل مكعّبات غليظة ومقعدُها طويلاً حتّى أنّه يتّسع لراكبيْن.

سألتني أمّي ثانية:

- ما بِكَ؟ لا تعجبك؟

حرّكتُ رأسي بالإيجاب.

كنتُ قد رأيتُ درّاجة تشبهها قبل ذلك ببضعة أشهر في متجر الدرّاجات بلوتشينيانو. ولكنّها لم تكن في جمال هذه. لم يكن فانوسُها مفضّضا ولم تكن عجلتُها الأماميّة صغيرة. دخلت إلى المتجر وبقيتُ أتأمّلها. رآني البائع، وكان رجلا طويل القامة ذي شاربيْن، يرتدي سترة رماديّة، فقال لي:

- إنّها جميلة، أليس كذلك؟

- جميلة جدّا.

- إنّها آخر ما تبقّى. هذه فرصتك. لماذا لا تطلب من أبويْك أن يشترياها لك؟

- بودّي، ولكن...

- لكن ماذا؟

- عندي درّاجة.

- تلك؟ - وأشار باحتقار إلى «الخردة» المسندة إلى العمود الكهربائيّ.

اعتذرت قائلاً:

- كانت درّاجة أبي.

- حان الوقتُ لاستبدالها. قل ذلك لأبويْك. سيكون لك شأنٌ آخر بتُحفة مثل هذه.

ذهبتُ في حال سبيلي. لم يمرّ بخاطري حتّى أن أسأله عن ثمنها.

وهذه الدرّاجة أجمل بكثير.

كانت تحمل فوق جعبتها العليا كتابة بأحرف ذهبيّة: «Red Dragon».

سألتُ أبي:

- ماذا يعني «راد دراغون»؟

هزّ أبي كتفيه وقال:

- اسأل أمّك فهي تعرف ذلك.

وضعت أمّي يدها على فمها ضاحكة وقالت:

- يا لك من مغفّل! هل تظنّ أنّي أعرف اللّغة الإنكليزية؟

التفتَ أبي إليّ - ماذا تنتظر؟ أَلاَ تجرّبها؟

- الآن؟

- ومتى؟ غداً؟

كنتُ لا أريد أن أجرّبها أمام الجميع. - هل أستطيع أن أحملها إلى المنزل؟

ركب جُمجمة فوق الدرّاجة قائلاً:

- بما أنّه لا يريد سأجرّبها أنا.

ضرَبتْهُ أمّي بكفّ يدها على رأسه. - انزل فوراً! إنّها درّاجة ميكيلي.

سألني أبي:

- تريد حقّا أن تحملها إلى فوق؟

- نعم.

- هل تستطيع ذلك؟

- نعم.

ـ حسناً، ولكن اليوم فحسب...

صاحت أمي:

ـ بينو، هل جُننت؟ الدرّاجة فيِ البيت؟ ستترك آثار العجلات.

ـ سيتَجنّب ذلك.

خلعت أختي نظّاراتها وألقتها على الأرض ثمّ انفجرت باكية.

غضب أبي غضبا شديدا. ـ ماريا، التقطي في الحال نظاراتك!

شبكت ماريا ذراعيْها. ـ لا! لن ألتقطها، هذا غير عادل. كلّ شيء لميكيلي ولا شيء لي!

ـ انتظري دورك ـ.أخرج أبي من الشاحنة علبة مغلّفة بالورق الأزرق وبشريط مزدان بعقدة جميلة. ـ هذا لكِ.

أعادت ماريا النظّارات فوق عينيْها وحاولت أن تفكّ العقدة ولكنّها لم تقدر. وفي نهاية الأمر قطعتها بأسنانها.

ـ انتظري! الورق جميل، سنحتفظ به ـ.حلّت أمّي الشريط وأخذت الورق.

كانت بداخل العلبة دمية «باربي» بِتاج فوق رأسها ولباس ناصع ملتصق بجسمها، عارية الذراعيْن.

كاد أن يُغمى على ماريا. ـ باربي الرّاقصة...! ـ استندت إليّ. ـ إنّها رائعة.

أغلق أبي غطاء الشاحنة. ـ بهذه الهدايا يجب أن تبقيا هادئيْن طيلة السنوات العشر القادمة.

صعدتُ أنا وماريا سلّم المنزل. أنا بدرّاجتي فوق كتفي وهي بدميتها باربي الرّاقصة في يدها.

قالت ماريا وهي تنظر إلى الدمية:

ـ إنّها جميلة. أليس كذلك؟

ـ نعم. كيف ستسمّينَها؟

ـ بَربرا.

ـ لماذا بربرا؟

ـ لأنّ بربرا قالت إنّها عندما ستكبر سوف تصبح مثل باربي ولأنّ باربي بالإنكليزية هي بربرا.

ـ وماذا ستفعلين بباربي «المسكينة»؟ ستتخلّصين منها؟

ـ لا. ستُصبح خادمة ـ.ثمّ نظرت إليّ وسألتني:

ـ وأنتَ لم تُعجبك الهديّة؟

ـ أعجبتني. ولكنّي كنتُ أتخيّلُ شيئاً آخر.

نمتُ تلك اللّيلة مع العجوز.

كنتُ قد أويتُ إلى فراشي وأوشكتُ على إتمام قراءة «تاكس» عندما دخل إلى الغرفة. كان يبدو لي أنّه شَاخَ

عشرين سنة أخرى في دفعة واحدة. كان وجهه بطبيعته محفوراً ولكنّه صار الآن أشبه بجمجمة عظميّة.

تثاءب. ـ أنت نائم؟

أغلقتُ المجلّة وأدرت وجهي نحو الحائط. ـ لا.

ـ آه! إنّي محطّم ـ.أضاء المصباحَ الكهربائيّ حِذو الفراش وبدأ يخلع ملابسه. ـ هذه السّفرة ذهابا وإيّابا كلّفتني عناء الكثير من الكيلومترات. ظهري تكسّر. يجب أن أنام ـ. رفع بنطلونه في الهواء وتمعّن فيه ثم عوّج أنفه متقزّزا. ـ يجب أن أجدّد ملابسي ـ.ثم خلع جزمته وجوربيْه ووضعهما على حافة النافذة.

كانت رائحة كريهة تنبعث من قدميْه.

فتّش في حقيبته وأخرج قارورة الـ «ستوك 84» ورفَعَهَا إلى فمه. ارتسمت على وجهه تكشيرة ثمّ مسح فمه بظهر يده. ـ تبّا! إنّها مقزّزة- ثمّ أخذ المحفظة، وبعد أن فتحها نظر إلى الصّور وسألني:

ـ هل تريد أن ترى ابني؟ ـ ومدّ إليّ الصّورة.

كانت الصّورة التي شاهدتها يوم فتّشتُ أمتعته، صورة فرانشسكو ببزّة الميكانيكيّ.

ـ شابّ جميل. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ في هذه الصّورة كان لا يزال في صحّة جيّدة. أصابه الهزال من بعد.

دخلت فراشة ليليّة بنيّة اللّون من النافذة وبدأت تضرب بأجنحتها المصباح الكهربائيّ. وفي كلّ مرّة تصطدم بالزجاج الحارق تُحدث صوتا مكتوماً.

أخذ العجوز جريدة وسحقها على الحائط. ـ تبّا لهذه الفراشات الملعونة ـ.ثمّ مدّ لي صورة أخرى. ـ هذا بيتي.

كانت فيلاّ صغيرة واطِئة نوافذُها مطلية باللّون الأحمر. وراء السطح المصنوع من القشّ تبرز قمم أربع نخلات بينما جلست أمام الباب زنجية ترتدي «بيكيني» أصفر اللّون. كان شعرها طويلا وتحمل بين يديها «جمبوناً» كما لو كان كأس بطولة. وكان بجانب المنزل مستودع صغير مربّع الشكل أمامه سيّارة ضخمة عارية بيضاء وبلّورها أسود.

سألته:

ـ أيّ سيّارة هذه؟

ـ إنّها «كاديلاّك». اشتريتُها مستعمَلة ولكنّها تامّة الشروط. لم أجدّد إلاّ العجلات ـ.خلع قميصه. ـ كانت فرصة ثمينة.

ـ والزنجيّة، من هي؟

تمدّد على الفراش. ـ زوجتي.

ـ زوجتك زنجيّة؟

ـ نعم. تركتُ زوجتي العجوز. هذه تبلغ من السنّ ثلاثة وعشرين. إنّها زهرة، واسمها سونيا. ولا تظنّ أنّها تحمل «جمبوناً»، إنّه «سباك»[11]. «سباك» أصليّ من جهة فينيتو. جلبته إليها من إيطاليا. إنّه غير موجود في البرازيل، ويُعتبر أكلة نادرة الجودة. كلّفني حمله مشقّة كبيرة. بل أوقفني أعوان الجمارك. كانوا يريدون فتحه ظنّا منهم أنّ بداخله مخدّرات... كفى حديثا، سأطفئ المصباح. إنّي مُنهَكٌ.

شمل الظلامُ الغرفة بينما بقي يصلني منه صوت تنفسّه وأصوات أخرى غريبة كان يحدثها بفمه.

وفجأة قال:

ـ أنتَ لا تعرف نمط الحياة هناك. العيش هناك لا يكلّفك شيئاً. والجميع في خدمتك، وأنت لا تفعل شيئاً طول النهار. ليس مثل هذه البلاد القذرة. إنّني سأرحل من هنا إلى الأبد.

سألته:

ـ أين يوجد البرازيل؟

ـ بعيداً بعيداً جدّا. تصبح على خير وأحلاماً سعيدة.

ـ تصبح على خير.

(11) – speck، جمبون مدخّن يُصنع في شمال إيطاليا وهو إحدى اختصاصات جهتيْ فينيتو و ترانتينو (المترجم).

8

توقّف كلّ شيء.

أنامت جنيّة بعصاها السحريّة أكوا ترافرسي وتتابعت الأيّام حارقة متساوية دون نهاية.

قبع الكبار في منازلهم وأحجموا عن الخروج. كانوا قبل ذلك يُخرجون الطاولات، بعد العشاء، ويلعبون الورق. أمّا الآن فقد مكثوا في الدّاخل. لم يظهر فِليتشي بعد كلّ ما حدث. كان أبي يقضّي اليوم كلّه في الفراش لا يتحادث إلاّ مع العجوز. وكانت أمّي تعدّ الأكل بينما أغلق سلفاتوري على نفسه البيتَ.

كنتُ أركب درّاجتي الجديدة. وكان الجميع يريد ركوبها. كان جُمجمة يشقّ أكوا ترافرسي على عجلة واحدة. أمّا أنا فلم أكن أقطع أكثر من متريْن.

كنتُ في أغلب الأحيان أفضّل العزلة. أركبُ الدرّاجة إلى ما وراء الجدول الجافّ وأتّبع دروبا مغبرّة بين الحقول كانت تحملني بعيداً، حيث لا يوجد شيء ما عدا أعمدة

مخلوعة وأسلاكًا شائكة أكلها الصّدأ. ومن بعيد كانت الحاصدات ترتعش وسط موجات الحرّ المتصاعدة من الحقول.

كان كما لو أنّ الربّ حلق شعر العالم على الآخر. كانت الشاحنات المحمّلة بأكياس القمح تمرّ أحياناً عبر أكوا ترافرسي تاركة وراءها سحابات من الدخان الأسود.

وكنتُ عندما أنزل إلى الشارع أشعر أنّ الجميع يراقبون ما أفعل. كنتُ أحسّ بأمّ بربرا وهي تتجسّس عليّ من وراء النوافذ، وألحظ جُمجمة وهو يتهامس مع ريمو مشيراً إليّ، وأرى بربرا وهي تبتسم لي ابتسامة غريبة. وحتّى عندما أبقى وحدي جالسا فوق أحد جذوع شجرة الخرّوب أو على مقعد الدرّاجة، كان ذلك الشعور لا يفارقني. وحتّى عندما أفتح لنفسي ممرّا وسط ذلك البحر من السنابل الذي ينتظر أن يُحشر في الأكياس، ولا وجود من حولي إلاّ للسّماء، كنتُ أشعر أنّ الآلاف من العيون تراقبني.

لا تخافوا. لن أذهب إلى هناك. لقد أقسمتُ.

ولكن الهضبة كانت هنالك. تنتظرني.

في البداية كنتُ أقطع الطريق التي تؤدّي إلى ضيعة مِليكيتّي. وبعد ذلك، دون أن أشعر، بدأتُ أقطع كلّ يوم شوطا صغيراً آخر.

لقد نسيَني فِليبّو. كنتُ أشعر بذلك.

فِليبّو؟ فِليبّو، هل تسمعني؟

لا أستطيع المجيء. لا أستطيع.

إنّه لا يفكّر فيّ.

لعلّه مات. لعلّه لم يَعُدْ من هذا الكون.

ذات عشيّة، بعد الغداء، استلقيتُ على الفراش أطالع. كان النّور ينفذ من خلال مصراعي النافذة إلى داخل الغرفة الحامية. وكانت الصراصير تصفّر في أذنيّ. أخذني النوم ومجلّة «تيرامولاّ» في يدي.

حلمتُ أنّه كان ليلا، ولكنّني مع ذلك كنتُ أرى. كانت الهضاب تتحرّك في الظلام. تنتقل بطيئة مثل سلاحف تحت بساط ثمّ تفتح عيونها مثل حفر حمراء تنفتح وسط القمح وتستقيم وهي متأكّدة أنّ لا أحدَ يراها، وتصبح عمالقة مصنوعة من التراب ومغطّاة بالسنابل تتقدّم متموّجة وسط الحقول وتُقبل نحوي وتدفنني.

أفقتُ في بحر من العرق. ذهبتُ إلى الثلاّجة بحثا عن الماء. كنتُ أرى العمالقة.

خرجتُ وركبتُ الخُردة.

وجدتُ نفسي أمام الدّرب المؤدّي إلى الدّار المهجورة.

كانت الهضبة أمامي تغشّيها ضبابة من الحرّ. وكان يبدو لي أنّني أرى عينيْن سوداويْن وسط القمح، تحت القمّة بالضبط، ولكنّهما كانتا فقط بقعا من النّور، ثنايا في الأرض. بدأت

الشمس تغربُ ووهجها يخفّ. وبدأ ظلّ الهضبة يغمر السّهل شيئاً فشيئاً.

بإمكاني أن أصعد.

ولكنَّ صوت أبي كان يمنعني. «استمع إليّ جيّدا. إنْ عدت إليه فسوف يقتلونه. لقد أقسموا على ذلك».

مَن؟ مَن أقسم على ذلك؟ من سيقتله؟

العجوز؟ لا. ليست له القوّة الكافية.

هم عمالقة الأرض، أسياد الهضبة. الآن، هم مُسْتَلْقُون وسط الحقول لا يراهم أحد، ولكنّهم يستيْقظون في الليل ويجتازون الحقول. وإنْ ذهبتُ إلى فِليبّو، حتّى إذا كان الوقت نهاراً، فسوف ينهضون مثل أمواج المحيط ويصلون إليه ويغمرونهُ بترابهم ويدفنونهُ.

عد أدراجك يا ميكيلي. عد أدراجك. هكذا قال لي صوت أختي الضعيف.

عكستُ اتّجاه الدرّاجة وانطلقتُ وسط القمح، بين الحُفر، وأنا أدير المداس مثل اليائس مؤمّلا أن أكسر ظهور تلك الوحوش الملعونة.

كنتُ مختبئاً تحت صخرة في الوادي الجافّ.

كنتُ أتصبّب عرقاً والذباب لا يكفّ عن مضايقتي.

عشر جُمجمة على كلّ الآخرين. بقيتُ وحدي. الآن صار الأمر أكثر صعوبة. ينبغي أن أخرج وأعدوَ بسرعة، دون أن أتوقّف، أن أشقّ الحقل المحصود وأصل إلى شجرة الخرّوب، وأصيح: «جحر! كلّكم أحرار!»

ولكن جُمجمة كان هناك، قريبا من الشجرة، حَذِرا مثل كلب الصّيد. وعندما سيراني أعدو سوف ينطلق هو الآخر، وبأربع قفزات سيلحق بي.

يجب أن أعدوَ وكفى. إن نجحتُ سيكون ذلك حسناً. وإنْ لم أنجح. لا يهمّ.

كنتُ على وشك أن أتحرّك عندما انقض عليّ ظلّ أسود.

جُمجمة!

لا، كان سلفاتوري. ـ تَحَوّل قليلا وإلاّ سيراني. إنّه قريب من هنا.

تركتُ له مكانا بجانبي وتسلّل هو الآخر تحت الصخرة.

ودون أن أشعر سألته:

ـ والآخرون؟

ـ قبض عليهم كلّهم. بقينا أنا وأنت فحسب.

كانت المرّة الأولى التي تخاطبنا فيها منذ يوم فِليتشي.

سألني جُمجمة مرّة لماذا تخاصمتُ مع سلفاتوري.

أجبته «لم نتخاصم. كلّ ما في الأمر أنّ سلفاتوري لا يروق لي».

فطوّق جُمجمة كتفي بذراعه قائلا «برافو. إنّه بليد».

مسح سلفاتوري العرق من جبينه.

- من يذهب لتحرير الجحر؟

- اذهب أنت.

- لماذا؟

- لأنّك أسرع.

- إنّني أسرع عندما تكون المسافة بعيدة، ولكن، للوصول إلى شجرة الخرّوب، فأنت أسرع.

بقيت صامتاً.

- عندي فكرة. نخرج معاً. وعندما يصل جُمجمة أَقف بينكما. اِجْرِ أنت إلى شجرة الخرّوب. هكذا يخسر اللعبة. ما قولك؟

- إنّها فكرة طيّبة. ولكن سأحرّر أنا الجحر وتخسر أنت.

- لا يهمّ. إنّها الطريقة الوحيدة للتغلّب على ذلك المغفّل.

ابتسمتُ.

نظر إليّ ومدّ يده.

ـ نَتَصَالحُ؟

ـ حسناً ـ.وصافحته.

ـ هل تعرف أنّ دِستاني لم تَعُدْ مُعَلِّمتَنَا؟ هذا العام ستأتي معلّمة أخرى.

ـ من قال لك هذا؟

ـ تحادثت خالتي مع المدير وقالت لي إنّها جميلة وليست مضجرة مثل دِستاني.

اقتلعتُ حزمة من الحشائش. ـ بالنسبة إليّ يتساوى كلّ شيء.

ـ لماذا؟

ـ لأنّنا سنرحل من أكوا ترافرسي.

نظر إليّ سلفاتوري مستغرباً. ـ وأين ستذهبون؟

ـ إلى الشمال.

ـ أين؟

قلتُ دون تفكير:

ـ إلى بافيا.

ـ وأين توجد بافيا؟

هزرت كتفيّ. ـ لستُ أدري. لكنّنا سنقطن في عمارة، في الطابق الأخير. وسيشتري أبي الفيات 131 ميرافيوري. وسأذهبُ إلى المدرسة هناك.

أخذ سلفاتوري حجرة ومرّرها من يد إلى أخرى. ـ ولن تعود؟

ـ لا.

ـ ولن ترى المعلّمة؟

نظرتُ إلى الأرض. ـ لا.

همس:

ـ إنّي آسف ـ.ثم نظر إليّ. ـ هل أنت مستعدّ؟

ـ مستعدّ.

ـ هيّا إذاً. ولا تتوقّف أبداً. ننطلق عند ثلاثة.

ـ واحد. اثنان. ثلاثة ـ وانطلقنا.

ـ ها هما! ها هما! ـ صاح ريمو من موقعه فوق الخرّوب.

ولكن جُمجمة لم يستطع شيئاً. كنّا أسرعَ منه. ضربنا جذع الخرّوب معاً وصِحنا. ـ جحر. كلّكم أحرار!

9

أفقنا فوجدنا كلّ شيء يغشّيه ضباب رماديّ. كان الطقس حارّا مع رطوبة وهبّات مفاجئة تحرّك القيظ. أثناء الليل تراكمت في الأفق سحب غليظة ومضطربة وبدأت تزحف على أكوا ترافرسي.

بقينا ننظر إليها مندهشين. لقد نسينا أنّه يمكن أن ينزل ماء من السّماء.

كنّا مجتمعين كلّنا داخل المستودع. كنتُ أنا مستلقيا فوق أكياس القمح ورأسي مستند إلى راحتيّ، أنظر هادئا إلى الزنابير منهمكة في صنع بيتها. وكان الآخرون جالسين في دائرة بجانب المحراث. أمّا سلفاتوري فقد كان مرتخيا فوق مقعد الجرّار، مسندا قدميْه إلى المقود.

كنتُ أحبّ تلك الزنابير. فقد حطّم ريمو بيتَها بالحجارة عشر مرّات على الأقلّ، ولكنَّ تلك الزنابير العنيدة عادت دائماً لتعيد بناءه في نفس المكان، في الزاوية بين العموديْن

والميزاب. كانت تعجن التبن والخشب بلعابها وتصنع بيتا كَأَنَّهُ من الكرتون.

كان الآخرون يتحادثون فيما بينهم ولكنّني لم أكن أستمع إليهم. كان جُمجمة كعادته يتحدّث بصوت مرتفع وسلفاتوري يستمع صامتاً.

كان بودّي لو نزل الغيث. لا أحد يُطيق ذلك الجفاف.

سمعتُ بَربرا تقول:

- لماذا لا نذهب إلى لوتشينيانو لشراء المثلّجات؟ عندي نقود.

- لديكِ نقود لنا نحن أيضاً؟

- لا. لا تكفي. قد تكفي لكوبيْن فقط.

- إذاً، لمَ ذهابنا نحن الآخرون إلى لوتشينيانو؟ لِنتفرّجْ عليكِ وأنتِ تملئين بطنك بالمثلّجات وتزدادين سمنة على سمنة؟

لماذا تصنع تلك الزنابير البيتَ؟ من علّمها طريقة صنعه؟

«إنّها تعرف ذلك لأنّه في طبيعتها»، هكذا أجابني أبي مرّة عندما ألقيتُ عليه هذا السؤال.

اقتربت منّي أختي وقالت لي:

- إنّي ذاهبة إلى المنزل. وأنت ماذا ستفعل؟

- سأبقى هنا.

ـ حسناً. سأعدّ لنفسي الخبز بالزبد والسكّر. تشاو ـ. وذهبت يتبعها توقو.

وأنا ما هي طبيعتي؟ ماذا أستطيع أنْ أصنع أنا؟

ـ والآن؟ ـ سأل ريمو. ـ لماذا لا نلعب لعبة «سرقة الرّاية»؟

أنا أعرف كيف أتسلّق شجرة الخرّوب. أعرف ذلك جيّدا ولم يعلّمني أحد.

استقام جُمجمة واقفاً وركل الكرة بقدمه فأرسلها إلى الناحية الأخرى من الشارع.

ـ عندي فكرة عظيمة يا أولاد. لماذا لا نعود حيث ذهبنا المرّة السابقة؟

لعلّ من الأفضل أن ألتحق بماريا وأن أتناول أنا أيضاً قطعة خبز بالزبد والسكر، ولكنّني لست جائعا.

ـ أين؟

ـ فوق الجبل.

ـ أيّ جبل؟

ـ إلى الدّار المهجورة. أمام ضيعة مِليكيتّي.

استدرتُ. لقد استفاق جسمي فجأة وأخذتْ دقّاتُ قلبي تتسارع في صدري وانقبضتْ معدتي.

كانت بربرا غير مقتنعة كثيراً. ـ ماذا سنفعل هناك؟ المكان بعيد. وإذا أمطرتْ؟

قلّد جُمجمة صوتها قائلاً:

ـ وإذا أمطرتْ؟ سَنَبْتَلُّ! ومن جهة أخرى، لم يطلب منكِ أحد أن تأتي معنا.

ريمو أيضاً لم يكن سعيدا جدّا بالفكرة. ـ ماذا سنفعل هناك؟

ـ سنكتشف الدّار. في المرّة السابقة دخل إليها ميكيلي فحسب.

قال لي ريمو شيئاً.

نظرتُ إليه. ـ ماذا؟ لم أفهم.

سألني:

ـ ماذا يوجد داخل الدّار؟

ـ كيف؟

ـ ماذا يوجد داخل الدّار؟

كنتُ عاجزا عن الكلام ونضب الرّيق من فمي. تمتمتُ. ـ لاشيء... لا أدري... ـ كنتُ أشعر بسائل مثلّج يسري من رأسي إلى رقبتي وعلى طول جانبيّ. ـ أثاث قديم، مطبخ، أشياء من هذا القبيل.

سأل جُمجمة سلفاتوري:

ـ نذهب إليها؟

ـ لا، لا رغبة لي في ذلك، ـ وهزّ رأسه. ـ بربرا على حقّ المكانُ بعيد.

ـ أنا سأذهب. يُمكن أن نجعل منها قاعدتنا السرّيةـ.أخذ جُمجمة درّاجته التي كانت مسندة إلى الجرّار. ـ من يريد المجيء فَمرْحبا به. من لا يريد فليبقَ! ـ.ثمّ سأل ريمو:

ـ وأنت ماذا ستفعل؟

ـ سآتي معكـ.نهض ريمو وسأل بربرا:

ـ أنتِ لن تأتي إذاً؟

ـ لن يكون هناك سباق؟

فأكّد لها جُمجمة. ـ دون سباق- ثمّ سأل من جديد سلفاتوري:

ـ أنت لن تأتي معنا إذاً؟

كنتُ أنتظر دون أن أقول شيئاً.

قال سلفاتوري:

ـ أنا مع ميكيلي- ثمّ نظر إليّ وسألني:

ـ وأنت ماذا ستفعل. هل ستأتي؟

نهضتُ وقلتُ: نعم، سأذهب معكم.

قفز سلفاتوري من فوق الجرّار. ـ حسنا، هيّا بنا.

كنّا نتقدّم من جديد، معاً مثل المرّة الأولى، نحو الهضبة.

نسير بالدرّاجات في صفّ يتبع أحدُنا الآخر. لم تتخلّف إلاّ أختي.

كان الجوّ ثقيلا وكان لون السّماء غير طبيعيّ، قرمزيّا. والسّحبُ التي كانت في البداية متراكمة في الأفق، أخذت تتجمّع فوق رؤوسنا ويتدافع أحدُها فوق الآخر مثل فيالق التّتر قبل المعركة. كانت سحبا كبيرة قاتمة. وكانت الشمس معتمة وعكرة كما لو أنّ غشاء حجبها. لم يكن الطقس لا حارّا ولا بارداً، ولكنّ الرّيح كانت تهبّ. على حافتي الطريق ووسط الحقول كان التبن مجمّعا في قوالب موضوعة مثل قطع الشطرنج. وحيث لم تمرّ الحاصدة كانت هناك موجات طويلة تعبث بالسنابل.

كان ريمو ينظر إلى الأفق قلقا. ـ المطرُ وشيك.

وكنتُ كلّما اقتربتُ أكثر من الهضبة زاد ألمي. كنتُ أحسّ بثقل فوق معدتي. وكانت بقايا الأكل تضطرب في بطني. كنتُ بحاجة إلى الهواء وكان غشاء من العرق يبلّل ظهري ورقبتي.

ماذا كنتُ أفعل؟ كلّ دَورة على مداس الدرّاجة كانت مثل قطعة من القسَم تتفتّت.

«استمع إليّ، ميكيلي. لا يجب أن تعود إليه أبداً. إنْ عدت إليه فسوف يقتلونه. وسيكون بسببك».

«لن أعود إليه».

«أقسم برأسي».

«أقسم لك».

«قل، أقسم برأسك أنّني لن أعود إليه».

«أقسم براسك أنّني لن أعود إليه».

كنتُ بصدد انتهاك القسَم. كنتُ ذاهبا إلى فِليبّو. وإنْ وجدوني معه فسوف يقتلونه.

كنتُ أريد العودة من حيث أتيتُ، ولكن ساقيّ كانتا تديران المداس وكانت هناك قوّة لا تُقاوم تجذبني نحو الهضبة.

دوّى رعد من بعيد خرق ستار الصّمت.

قالت بربرا وكأنّها قرأت أفكاري:

- لِنَعدْ إلى المنزل.

قلت لاهثاً:

- نعم، لِنَعدْ إلى المنزل.

مرّ جُمجمة بجانبنا وضحك ساخرا:

- إنْ كنتما خائفيْن أن يبلّكما قليل من الماء عودا إلى المنزل. هذا أفضل.

تبادلنا أنا وبَربرا نظرة ثمّ واصلنا دفع درّاجتيْنا.

بدأت الرّيح تعصف بأكثر قوّة. كانت تهبّ فوق الحقول وترفع العصافة في الهواء. كان من الصّعب الحفاظ على الدرّاجات مستقيمة، وكانت الرّيح تدفعنا خارج الطريق.

قال جُمجمة ضاغطا على الفرامل وسط الحصى- ها إنّنا وصلنا. من قال إنّ المكان بعيد؟

كان الدّرب المؤدّي إلى الدّار المهجورة يمتدّ قبالتنا.

نظر إليّ سلفاتوري وسألني:

- ننطلق؟

- نعم، هيّا.

بدأنا الصعود. كنتُ أجد صعوبة في اللّحاق بالآخرين. تبيّن بالواضح أنّ «راد دراغون» ليست في المستوى. كنتُ لا أريد الاعتراف بذلك، ولكن هذه هي الحقيقة. عندما أدير مداس الدرّاجة واقفاً كان المقود يصل إلى فمي. وعندما أغيّر مدار السّرعة تخرج السلسلة من مسلكها. ولكي لا أتخلّف كان عليّ أن أستعمل مدار السّرعة الأكثر صعوبة.

من الحقول، على يميننا، ارتفع سرب من الغربان. كانت تنعق وتحلّق بأجنحتها المفتوحة، تحملها تيّارات الهواء.

ابتلع غشاء رماديّ قرصَ الشمس وبدا فجأة وكأنَّ المساء قد حلّ. ثمّ دوّى رعدٌ، تبعه رعدٌ آخر. نظرتُ إلى السّحب وهي تتسارع وتلتفّ إحداها بالأخرى. ومن حين إلى آخر كانت تستضيء من الدّاخل كما لو اشتعل بداخلها عودٌ من الديناميت.

العاصفة وشيكة.

وإذا مات فِليبّو؟

وصار جثّة ناصعة البياض منكمشة على نفسها في قاع حفرة يغطّيها الذباب، منتفخة باليرقان والدّيدان، وقد تيبّست يداه وأصبحت شفتاه جامدتيْن رماديّتيْن.

كلّا، لم يمت.

وإذا لم يتعرّف إليّ؟ وإذا رفض أن يكلّمني؟

«فِليبّو، أنا ميكيلي. رجعتُ. لقد أقسمتُ لك على ذلك، رجعتُ»

«أنت لست ميكيلي. ميكيلي مات. وهو في حفرة مثلي. اذهب عنّي»

تفتّح أمامنا الوادي. كان قاتما وصامتا. قد سكتت الصراصير والعصافير.

عندما مررنا بين أشجار البلّوط سقطت قطرة غليظة وثقيلة أصابت جبيني وأخرى أصابت ذراعي وأخرى كتفي ثمّ غمرتنا الزوبعة. انهال المطر غزيرا كثيفاً مثل الحبال. كان المطر يضرب قمم الأشجار وكانت الريح تعصف بين الأغصان وتُصفِّر بين الأوراق، وكانت الأرض تشرب الماء مثل إسفنج جافّ. كانت القطرات تسقط على الأرض المتعطّشة وتختفي بينما كانت الصواعق تقصف الحقول.

صاح جُمجمة:

ـ لنختبئ! هيّا أسرعوا.

عدوْنا، ولكنّنا مع ذلك ابتللنا. تباطأتُ قليلا. إنْ رأيتُ الفيات 127 أو شيئاً غير معتاد فسأطلق ساقيّ للرّيح.

لم تكن هناك سيّارات ولم ألاحظ شيئاً غريبا.

انحشروا كلّهم داخل الإسطبل. كانت الحفرة هناك، وراء العوسج. كنتُ أريد أن أسرع إليها، أن أرفع الغطاء وأن أرى فِليبّو. ولكنّني حَمَلْتُ نفسي على اتّباعهم.

كان الآخرون يقفزون وقد أثارتهم الزوبعة. خلعنا أقمصتنا وعصرناها. كانت بربرا مضطرّة إلى إبعاد القميص عن جِسْمِهَا كي لا ينكشف نهداها.

كانوا كلّهم يتضاحكون منفعلين ويفركون سواعدهم من البرد وينظرون إلى الخارج. يبدو أنّ السّماء انفلقت. وسط ضجّة الرّعد، كان البرق يربط السّحب بالأرض. وتحوّلت السّاحة في ظرف بضع دقائق إلى بِرْكة مليئة بالماء. ومن جوانب الوادي، كانت تسيل وديان صغيرة متّسخة بالتراب الأحمر.

لاشكّ في أنّ فِليبّو ميّت من الخوف. كلّ ذلك الماء ينساب إلى داخل الحفرة. وإنْ تواصل المطر فسوف يغرق وسيصمّ أذنيْه قرع المطر على الصفيحة.

يجب أن أذهب إليه.

سمعتُ صوتي يقول:

ـ في الطابق العلويّ درّاجة ناريّة.

التفتوا جميعهم نحوي.

ـ نعم، هناك درّاجة ناريّة...

قفز جُمجمة واقفا كما لو كان تحته غار من النّمل. ـ درّاجة ناريّة؟

ـ نعم.

ـ أين؟

ـ في الطابق العلوي. في القاعة الأخيرة.

ـ وماذا تفعل هناك؟

هززتُ كتفيّ. ـ لا أدري.

ـ صالحة للاستعمال حَسَب رأيك؟

ـ ربّما.

نظر إليّ سلفاتوري وعلى شفتيْه ابتسامة ساخرة. ـ ولماذا لم تحدّثنا عنها أبداً؟

عوّج جُمجمة رأسه. ـ صحيح. لماذا لم تحدّثنا عنها أبدا، هيه؟

ابتلعتُ ريقي. ـ لأنّني لم أكن أرغب في ذلك. لقد نَفَّذْتُ العقوبة وكفى.

لمع بريق من التفهّم في عينيه. ـ هيّا ننظر كيف هي. تصوّر لو شغّلناها...

انطلق جُمجمة وسلفاتوري وريمو جريًا خارج الإسطبل محتمين من المطر بأيديهم فوق رؤوسهم ومتدافعين وسط برك الماء.

وسارت في إثرهم بَربرا ولكنّها توقّفت تحت المطر. ـ وأنت لن تأتيَ؟

ـ سألحق بكم. اذهبي.

صقل الماء شعرَها فتساقط مثل خيوط السباقيتيّ المتّسخة.
ـ تريد أن أنتظركَ؟

ـ لا، اذهبي. سألحق بكم فوراً.

ـ حسناً- ثمّ انطلقت جرياً.

طفتُ بالدّار ومررت بين العوسج. كان قلبي يدقّ في أذنيّ وكانت ساقاي لا تكادان تحملانني. دخلتُ السّاحةَ. لقد تحوّلت إلى مستنقع تضربه زفّات المطر.

كانت الحفرة مفتوحة.

ولم تكن الصفيحةُ الخضراء ولا الحشيّةُ هناك.

كان المطر يتساقط فوقي وينساب داخل بنطلوني القصير وينفذ إلى السليب. كان شعري ملتصقاً بجبيني وكانت الحفرة هناك مثل فم أسود مفتوح في الأرض القاتمة. كنتُ أقترب منها وأنفاسي مكبوتة، ضاغطاً على قبضتيّ، بينما كانت السماء من حولي تنهار وموجاتٌ من الألم المتوهّج تُلْهِب حلقي.

أغلقتُ عينيّ وفتحتهما وأملي أن يتغيّر شيءٌ ما.

لا تزال الحفرة هناك، سوداء مثل الثقب في قاع حوض الغسيل.

اقتربتُ وأنا أترنّح وقدماي في الطين. مرّرت يدي على وجهي لأنشّفه من الماء. كنتُ أُوشِك على السقوط ولكنّني واصلت تقدّمي.

إنّه غير موجود. لا تنظر. اترك هذا المكان.

توقّفت.

تقدّم. تقدّم وانظر.

لا أتحمّل هذا.

نظرت إلى نعليَّ اللَّذيْن غمرهُما الوحلُ. زِدْ خطوة أخرى، قلتُ لنفسي. زِدتُ خطوة. زد خطوة أخرى. زِدتُ خطوة. برافو. خطوة أخرى وأخرى. رأيتُ حافة الحفرة أمَام قدميّ.

وصلت.

الآن يجب أن ألقي نظرة بداخلها.

كنت متأكّدا أنّه لم يعد يوجد أحد بداخل الحفرة.

رفعتُ رأسي ونظرتُ.

كان الأمر كما تصوّرت. لم يعدْ هناك شيء، حتّى السطل والقدر. لم يكن هناك إلاّ ماء قذر وبطانية مبلّلة.

لقد حملوه إلى مكان آخر، دون أن يقولوا لي شيئا، دون أن يخبروني.

لقد ذهب ولم أتمكّن حتّى من توديعه.

أين هو الآن؟ لا أعرف. ولكني أعرف أنّه لي وأنّهم أخذوه منّي.

صِحتُ نحو المطر:

- أين أنتَ؟

سقطتُ جاثيا على ركبتيّ. غمستُ أصابعي في الوحل وعصرتُه في يديّ.

- الدرّاجة الناريّة غير موجودة.

استدرتُ.

كان سلفاتوري.

كان واقفا على بعد بضعة أمتار منّي، قميصُه مبلَّل وبنطلونُه متّسخ بالوحل. - ليست هناك أيّة درّاجة نارية. أليس كذلك؟

غمغمتُ:

- لا.

أشار إلى الحفرة. - كان هنا؟

أشرت برأسي بالإيجاب وتمتمتُ. - لقد حملوه إلى مكان آخر.

اقترب سلفاتوري ونظر داخل الحفرة ثم حدّق فيّ. ـ أعرف أين حملوه.

رفعت رأسي ببطء. ـ أين هو؟

ـ إنّه عند مِليكيتّي. في الوهد.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ سمعتُه يوم أمس. كان أبي يتحادث مع أبيك ومع العجوز القادم من روما. اختفيتُ وراء باب المكتب وسمعتهم. لقد نقلوه. قالوا إنّ التبادل لم ينجح.ـ.رمى إلى الوراء خصلة شعر مبلّلة. ـ قالوا إنّ هذا المكان لم يَعُدْ آمنا.

مرّت الزّوبعة سريعة مثلما انفجرت.

الآن صارت بعيدة. كتلة قاتمة تتقدّم فوق الحقول مبلِّلة إيّاها مواصلة طريقها.

نزلنا متّبعين الدّرب.

كان الهواء من الصّفاء بحيث كنّا نلمح وراء السهل الأصفر خيطا رقيقا أخضر اللّون. البحر. كانت المرّة الأولى التي أراه فيها من أكوا ترافرسي.

تركتْ العاصفة رائحةَ عشب وتراب مبتلّ وقليلا من البرودة. كانت السّحب المتبقيّة في السماء بيضاء متناثرة بينما كانت شفرات من الشمس الساطعة تشقّ السهل. وعادت

العصافير إلى شدوها حتّى إنّك تتخيّل نفسك في مسابقة غناء.

قلتُ لجُمجمة إنّني أردتُ أن أمزح معهم.

فأجابني:

- إنّه مزاح بليد!

انتابني شعور بأنّنا لن نصعد أبداً بعد الآن إلى تلك الهضبة. إنّها بعيدة ولا يوجد شيء جميل في تلك الخربة القديمة. وكان ذلك الوادي المُستتر مَجْلَبة للشؤم.

كانت نهاية فِليبّو إذاً عند مِليكيتّي مع الخنازير لأنّ التبادل لم ينجح ولأنّ الحفرة لم تعدْ آمنة. هذا ما قالوه. ولا دخل في هذا لأسياد الهضبة وللوحوش التي تصوّرتها.

«ميكيلي، كفّ عن هذه الوحوش. الوحوش غير موجودة. يجب أن تخشى العباد لا الوحوش». هكذا قال لي أبي.

إنّه السّبب في كلّ هذا. لم يُطلق سبيله. ولن يُطلق سبيله أبداً.

عندما تصطاد القططُ العظايةَ تلعب معها وتلهو إلى أنْ يتقطّع جلدُها وتخرج أمعاؤها وتفقد ذنبها. تتبعها بتأنّ وتجلس ثمّ تضربها وتتسلّى بها إلى أن تموت. وعندما تموت تلمسها بطرف قوائمها كأنّما تتقزّز منها، والعظاية لا تتحرّك. عند ذلك تنظر إليها قليلا وتمضي في حال سبيلها.

خرق هدير قويّ وضجّة حديديّة الهدوءَ الذي كان سائدا وغطّى بصخبه كلّ شيء.

صاحت بربرا وهي تشير إلى السّماء. ـ انظروا! انظروا!

برزت من وراء الهضبة مروحيّتان، مثل يَعْسُوبَيْن حَديديّيْن، يعسوبيْن عظيميْن زرقاويْن يحملان على جنبيهما عبارةَ «شرطة».

انخفضتا نحونا فبدأنا نلوّح بأيدينا ونصرخ ثمّ طارتا متوازيتيْن ودارتا في الآن نفسه كما لوأنّ الطيّاريْن أرادا إظهار براعتهما ثمّ حلّقتا فوق الحقول ثمّ فوق أكوا ترافرسي وغابتا في الأفق.

لقد اختفى الكبار.

كانت السيارات هناك، ولكنّهم كانوا غير موجودين.

البيوت خاوية والأبواب مفتوحة.

جريْنا من بيت إلى بيت.

كانت بَربرا منفعلة. ـ هل يوجد أحد في بيتك؟

ـ لا. وأنتِ؟

ـ لا أحد.

ـ أين ذهبوا؟ ـ كان ريمو يلهث. ـ نظرتُ أيضاً في المبقلة.

سألت بربرا:

ـ ماذا سنفعل؟

أجبتُ:

ـ لا أدري.

كان جُمجمة يسير وسط الطريق ويداه مغروستان في جيبيْه ونظرتُه قاتمة، مثل «بِستوليرو» في قرية مهجورة. ـ وما يعنينا منهم؟ هكذا أفضل. منذ مدّة وأنا أنتظر أن يذهبوا كلّهم إلى الجحيم ـ.وبصق على الأرض.

ـ ميكيلي!

التفتُّ.

كانت أختي في تبّان وقميص داخليّ خارج المستودع تحمل دُميتيْها «باربي» في يديْها وتوقو يتبعها مثل ظلّها.

جريتُ إليها. ـ ماريا! ماريا! أين ذهب الكبار؟

أجابتني هادئة. ـ في منزل سلفاتوري.

ـ لماذا؟

أشارت إلى السّماء. ـ المروحيّتان.

ـ ماذا؟

ـ نعم. مرّت المروحيّتان. وبعد ذلك خرجوا كلُّهم إلى الشارع صائحين وذهبوا كلّهم إلى منزل سلفاتوري.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

نظرتُ حوليّ. لم يكن سلفاتوري معنا.

ـ وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟

ـ أمرتني ماما أن أنتظر هنا. سألتني أين ذهبتَ؟

ـ وماذا قلتِ لها؟

ـ قلتُ إنّك ذهبتَ إلى الجبل.

بقي الكبار في منزل سلفاتوري إلى أن حلّ المساء.

بقينا ننتظر في الساحة جالسين على حافة حوض الحنفيّة.

سألتني ماريا للمرّة المائة:

ـ متى ينتهون؟

وأجبتها أنا للمرّة المائة:

ـ لا أدري.

قالوا لنا أن ننتظر. إنّهم يتحادثون.

كانت بَربرا تصعد السلّم وتدقّ الباب كلّ خمس دقائق، ولكن لا أحدَ فتح لها. ـ تُرى عمّ يتحدّثون كلّ هذا الوقت؟

ـ لا أدري.

كان جُمجمة قد تركنا وذهب صحبة ريمو. وكان سلفاتوري داخل المنزل منزوياً دون شكّ في غرفته.

جلست بربرا بالقرب منّي. ـ ولكن، ماذا يحدث؟

هززتُ كتفيّ.

نظرت إليّ. ـ ما بكَ؟

ـ لا شيء. إنّي مُتعب.

ـ بربرا! ـ أطلّت أنجيلا مورا من إحدى النوافذ. ـ بربرا، اذهبي إلى المنزل.

سألتها بربرا:

ـ متى ستعودين؟

ـ بعد قليل. هيّا، إلى المنزل بسرعة.

ودّعتنا بربرا وذهبت تَجُرّ ساقيْها جرّا.

سألتْ ماريا أنجيلا مورا:

ـ وماما، متى ستخرج؟

نظرت إلينا وقالت:

ـ اذهبا إلى المنزل وتناولا عشاءكما. ستأتي بعد قليل ـ. ثمّ أغلقت النافذة.

حرَّكتْ ماريا رأسها بالنفي. ـ لن أذهب. أنا سأنتظر هنا.

نهضتُ. ـ هياّ، لِنَعُدْ إلى البيت. هذا أفضل.

ـ لا!

ـ هيّا. هاتي يدكِ.

شبكت ساعديْها. ـ لا! أنا باقية هنا كلّ اللّيل. لا يهمّني.

ـ هاتي يدك. هيّا.

أحكمت نظاراتها على عينيْها واستقامت واقفة. ـ ولكنّني لن أنام.

ـ كما تريدين.

أمسكتُ بيدها وعُدنا إلى البيت.

10

كانوا يصيحون بقوّة حتّى أنّنا استفقنا.

كنّا قد اعتدنا على كلّ شيء، على الاجتماعات اللّيليّة، على الضجّة، على الأصوات المرتفعة، على الأطباق المحطّمة. ولكنّهم الآن يصيحون كأشدّ ما يكون.

سألتني ماريا وهي مستلقية على فراشها:

- لماذا يصيحون هكذا؟

- لستُ أدري.

- كم السّاعة؟

- السّاعة متأخّرة.

كان اللّيل قد تقدّم وشملت الظلمة القاعة وكنّا في غرفتنا يقِظَيْن مثل جُدجديْن.

تذمّرت ماريا - قل لهم أن يكفّوا. إنّهم يزعجونني. قل لهم أن يصيحوا بأقلّ قوّة.

- لا أستطيع.

كنتُ أحاول أن أفهم ما يقولون، ولكنَّ الأصوات كانت مختلطة.

استلقت ماريا بجانبي. ـ إنّي خائفة.

ـ هم الخائفون.

ـ لماذا؟

ـ لأنّهم يصيحون.

كانت تلك الصيحات مثل نفثات العظاية.

عندما لا تستطيع العظاية الإفلات وتكاد أن تمسك بها تفتح فمها وتنتفخ ثم تنفث وتحاول أن تخيفك لأنّها خائفة أكثر منك، منك أنت العملاق. والشيء الوحيد الذي بقي لها هو أن تُدخِل فيك الرعب. إنْ كنتَ تجهل أنّها في الواقع وديعة وأنّها لا تضرّ أحدا وأن كلّ ذلك حيلة فأنتَ تعدل عن لمسها.

فتح أحدٌ الباب.

استضاءت الغرفة لحظة من الزمن وظهر شبح أمّي الأسود وخلفها بان العجوزُ في المطبخ.

أغلقت أمّي الباب. ـ أنتما مستَيْقظان؟

أجبناها:

ـ نعم.

أضاءت النّور فوق المنضدة. كانت تمسك في يدها طبقا عَليْه خبز وجبن. جلست على حافة الفراش. ـ جئتكما ببعض الأكل ـ.كانت تتحدّث بصوت خافت، مُتعب. كانت تحيط بعينيْها دائرتان زرقاوان، وكان شعرها منفوشا. كانت منهكة. ـ كُلاَ وناما.

قالت ماريا:

ـ ماما...؟

وضعت أمّي الطبق على ركبتيْها. ـ ماذا؟

ـ ماذا يحدث؟

ـ لا شيء ـ.كانت تحاول قطع الجُبن، ولكن يدها كانت ترتعش. لم تكن ماهرة في التمثيل. ـ الآن كُلا ثمّ... ـ انحنت ووضعت الطبق على الأرض ثمّ رفعت يدها إلى وجهها وبدأت تبكي في صمت.

ـ ماما... ماما... لماذا تَبْكين؟ ـ وشهقت ماريا بالبكاء.

وأنا أيضاً كنتُ أحسّ برغبة في البكاء مثل غصّة في حلقي. قلتُ:

ـ ماما؟ ماما؟

رفعت رأسها ونظرت إليّ بعينيْن محمرّتيْن لامعتيْن. ـ ماذا؟

ـ مات. أليس كذلك؟

صفعتني على خدّي وخضختني كما لو كنتُ دمية من القماش. ـ لم يمت أحد! لم يمت أحد! هل فهمت؟ ـ ارتسمت على وجهها ملامحُ تألّم وهمستْ. ـ إنّك ما زلت صغيراً... ـ فتحت فمها وضمّتني إلى صدرها.

أجهشتُ بالبكاء.

الآن صرنا كلّنا نبكي.

ومن هناك كان العجوز يصيح.

سمعته أمّي وابتعدت عنّي. ـ كفى الآن!- جفّفت دموعها. أعطتنا قطعتيْن من الخبز. ـ كُلا.

غرست ماريا أسنانها في الخبز لكنَّها لم تقدر على ابتلاعه. كان البكاء لا يزال يخضّها. افتكّت أمّي منها قطعة الخبز.

ـ لستما جائعيْن؟ لا بأس ـ.أخذت الطبق. ـ ناما ـ.أخذت منّا الوسادتيْن وأطفأت النّور. ـ إن أزعجكما الضجيج ضَعَا رأسيْكما تحت هذه. هيّا! ـ ووضعت الوسادتيْن فوق رأسيْنا.

حاولتُ أن أتخلّص منها. ـ ماما، أرجوك. إنّني أختنق.

زمجرت أمّي:

ـ اسمعا الكلام! ـ وضغطت أكثر على الوسادة.

كانت ماريا كاليائسة كما لو أنّ أحدا حاول ذبحها.

ـ كفى! ـ صرخت أمّي بقوّة حتّى أنّ الآخرين كفُّوا لحظة عن الخصام وخَشِيتُ أنا أن تضربها.

سكتتْ ماريا.

إن تحرّكنا، إن تكلّمنا، كانت أمّي تعيد علينا مثل الإسطوانة المعطوبة:

ـ سسست! ناما!

تظاهرتُ بالنّوم ورجائي أن تفعل ماريا مثلي. وبعد قليل هدأت هي الأخرى.

بقيت أمّي مدّة طويلة، حتّى أنّه لم يبق عندي شكّ أنّها ستقضّي معنا كامل الليل، ولكنّها نهضت. ظنّت أنّنا استسلمنا للنوم وخرجت من الغرفة مغلقة وراءها الباب.

وضعنا الوسادتيْن جانبا. كان الظلام شاملا. لكنَّ انعكاسا ضعيفا من العمود الكهربائيّ في الشارع كان يضيء الغرفة.

نهضتُ.

استقامت ماريا جالسة. وضعت نظاراتها وسألتني وهي تزفر من تأثير البكاء:

ـ ماذا تفعل؟

وضعتُ سبابتي على أنفي. ـ اسكتي.

قرّبتُ أذني من الباب. .

ما زالوا يتناقشون، ولكن بأقلّ صخب. كان صوت فِليتشي وصوت العجوز يصل إلى سمعي ولكنّي لم أكن أفهم شيئاً. حاولتُ أن أنظر من ثقب القفل، لكنّني كنتُ لا أرى إلاّ الحائط.

أمسكتُ بمقبض الباب.

عضّت ماريا يدها بفمها. ـ ماذا تفعل، أنت مجنون؟

ـ اسكتي! ـ فتحتُ الباب ما يكفي لإلقاء نظرة.

كان فِليتشي واقفا قرب المطبخ. كان يَرْتَدي بزّة خضراء وكان السحّاب مفتوحا إلى مستوى ضلوعه السفلى مظهرا عضلات صدره المنتفخة. كان نظره ثابتا وفمه منفرجا على أسنان الحليب في فمه. حلق شعر رأسه تماماً.

قال وهو يضع يده على صدره:

ـ أنا؟

أجاب العجوز:

ـ نعم أنت ـ كان جالسا إلى الطاولة ساقاً على ساق والسيجارةُ بين أصابعه وعلى فمه ابتسامة ماكرة.

سأل فليتشي:

ـ أنا لُوطِيّ؟ أنا أنثى؟

أكّد العجوز. ـ تماماً.

ميّل فِليتشي رأسه. ـ و... وكيف اكتشفت ذلك؟

ـ كلّ شيء مكشوف. أنت لُوطِيّ. ولن تستطيع شيئاً ضدّ هذا. و... ـ جذب نفسا من السيجارة. ـ هل تعرف ما هو الأشنع في كلّ هذا؟

قطّب فِليتشي حاجبيْه مستفهماً. ـ لا، ما هو؟

كانا مثل صديقيْن يتصارحان بأسرار خفيّة.

أطفأ العجوز العقب في الطبق. ـ هو أنّك لا تدري. هذا مشكلك. إنّك وُلدت مخنّثا ولا تدري. الآن كبرت. لم تعد طفلا صغيراً. يجب أن تدرك ذلك. ستحسّ بنفسك أفضل. وستفعل ما يفعله المخنّثون. ولكنّك عوضا عن ذلك تتظاهر بالفحولة وتظنّ نفسك رجلا. تتحدّث وتكثر مِنَ الحديث. ولكن كلّ ما تفعله وكلّ ما تقوله يحمل علامة الزيف، يحمل علامة التخنّث.

كان أبي واقفا ويبدو أنّه يتابع الحوار، ولكنّه كان في دنيا أخرى. وكان الحلاّق مستندا إلى باب المنزل كما لو أنّ البيت سينهار من لحظة إلى أخرى. أمّا أمّي فقد كانت جالسة على الأريكة تشاهد، بنظرة غائبة، التلفاز وهو يعمل دون صوت. وكان المصباح مغطّى بسحابة من الذبابات الصغيرة السوداء تسقط ميّتة وسط الأطباق الناصعة.

قال أبي فجأة:

ـ استمعوا إليّ، استمعوا إليّ. لِنَعِدْهُ إليها. لِنُعِدْهُ إليها.

نظر إليه العجوز وهزّ رأسه بابتسامة. ـ من الأفضل لك أنت أن تسكت.

نظر فِليتشي إلى أبي ثمّ اقترب من العجوز. ـ قد أكون مخنّثا، ولكن في الأثناء، أيّها الروماني القذر، خُذ هذه! ـ رفع ذراعه وهوى عليه بلكمة على فمه.

سقط العجوز يتخبّط على الأرض.

تراجعتُ خطوتيْن إلى الوراء وحملتُ يديّ إلى رأسي. ضرب فِليتشي العجوز. بدأتُ أرتعد وصعدتْ من معدتي رغبة في التقيّؤ، ولكنّني لم أتمالك نفسي من النظر من جديد.

في المطبخ، كان أبي يصيح. ـ ماذا تفعل أيّها التعيس؟ هل جُننت؟ ـ أمسك فِليتشي من ذراعه وحاول أن يُبعده.

ـ ابن العاهرة هذا. قال إنّني أنثى... ـ كان فِليتشي على وشك البكاء. ـ سأقتله...

كان العجوز ملقًى على الأرض يثير الشفقة. كنتُ أريد مساعدته، ولكنّني لا أستطيع. وكان يُحاول الوقوف لكنَّ سَاقيْهِ كانتا تنزلقان على الأرضية وكان ساعداه لا يحملانه. كان دم ممتزج باللّعاب يسيل من فمه. وتدحرجت نظّاراته من فوق رأسه تحت الطاولة. كنتُ أنظر إلى ساقيه الشاحبتيْن والخاليتيْن من الشعر وهما تبرزان من قماش بنطلونه الأزرق. أمسك بحافة الطاولة ورفع جِسْمَه ببطء إلى أن انتصب واقفا. أخذ منديلا وضغطه على فمه.

كانت أمّي تبكي فوق الأريكة. وكان الحلاّق مسمّرا إلى الباب كما لو أنّه شاهد الشيطان.

تقدّم فِليتشي خطوتيْن نحو العجوز رغم محاولات أبي لصدّه عنه. ـ ماذا تقول الآن؟ حسب رأيك، هذه اللّكمة هي لكمة أنثى؟ قل لي مرّة أخرى إنّي أنثى وأقسمُ أنّك لن تنهض أبداً من الأرض.

جلس العجوز على أحد الكراسي وهو يمسح بالمنديل جرحا كبيرا في شفته. ثمّ رفع رأسه ونظر إلى فِليتشي نظرة حادّة وقال بصوت ثابت:

ـ إنْ كنت رجلا قَدّمْ لنا الدّليل على ذلكَ إذاً. ـ وسطع في عينيْه بريق شرّير. ـ قلتَ إنّك ستقوم أنتَ بالمهمّة ثمّ تراجعت. كيف قلت؟ آه، أنا سأذبحه مثل الخروف، لا جدال في ذلك، أنا لا أخاف. أنا طيّار مِظلّي. أنا هذا. أنا ذاك. كلّه كلام. أنت ثرثار. أنت أتعس من كلب. أنت لا تقدر حتّى على حراسة طفل.ـ وبصق كميّة كبيرة من الدّم على الطاولة.

ـ أيّها الملعون القذر! ـ بدأ فِليتشي يتذمّر وهو يجرّ قدميْه وراء أبي. ـ لن أفعل ذلك! لماذا يجب عليّ أنا أن أفعل ذلك، لماذا؟- وسال على خدّيه الأمرديْن خيط من الدّموع.

صاح أبي طالبا النجدة من أب بَربرا:

ـ ساعدني! ساعدني!ـ.فارتمى الحلاّق على فِليتشي. كانا يجدان صعوبة في إمساكه.

ـ لن أفعل ذلك، أيّها الملعون! لن أذهب إلى السّجن بسببك. اِنسَ ذلك!

قلتُ في نفسي إنّه سيقتله الآن.

انتصب العجوز واقفا. ـ إذاً سأفعل أنا ذلك. ولكن لا تخفْ. إنْ سقطتُ فسوف تسقط معي. سأجذبك معي أيّها الحقير. كُنْ واثقا من ذلك.

ـ أين ستجذبني، أيّها الرومانيّ القذر؟ ـ وهجم فِليتشي منخفض الرأس. حاول أبي والحلاّق منعه ولكنّه نفضهما عنه مثلما تُنفض القشرة وارتمى من جديد على العجوز.

أخرج العجوز المسدّس من بنطلونه وثبّتها على جبينه. ـ حاول أن تضربني مرّة أخرى. هيّا، ماذا تنتظر. أرجوك، هيّا...

تجمّد فِليتشي كما لو كان يلعب لعبة «واحد، اثنين، ثلاثة، نجمة».

حال أبي بينهما. ـ كفى. لِنهْدأْ! لقد أتعبتمانا! ـ وفرّق بينهما.

ـ حاول! ـ وَضَع العجوز المسدّس في حزامه. بقيت على جبين فِليتشي دائرة حمراء.

كانت أمّي جالسة في ركن تبكي وتعيد قائلة ويدُها على فمها:

ـ خفّضوا! خفّضوا أصواتكم! أرجوكم. خفّضوا أصواتكم!

ـ لماذا يريد أن يُطلق عليه الرّصاص؟

التفتُّ.

كانت ماريا قد نهضت من فراشها ووقفت ورائي.

صحتُ بها بصوت خافت:

- عودي إلى الفراش!

أشارت برأسها رافضة.

- ماريا، عودي إلى فراشك!

ضغطت أختي على شفتيْها ورفضت من جديد.

رفعتُ يدي مهدّدا بصفعها، لكنّي تماسكتُ. ـ عودي إلى فراشك وأمسكي عن البكاء.

هذه المرّة سمعت كلامي.

في الأثناء تمكّن أبي من إجلاسهما بينما بقي هو يمشي ويجيء وقد لمعت عيناه ببريق جنونيّ.

- كفى. لِنعُدَّ أنفُسَنا. كم نحن؟ أربعة. في نهاية الأمر بقينا نحن الأربعة. نحن المغفّلون. حسناً. من منّا يخسر يقتله. سهل جدّا.

- ويكون نصيبه السجن مدى الحياة ـ قال الحلاّق ذلك واضعا يده على جبينه.

- برافو! ـ صفّق العجوز بيديْه. ـ أرى أنّنا بدأنا نتحدّث بصواب.

أخذ أبي علبة الثقاب وأراها للجميع. ـ هو ذا.لِنَلْعَبْ لعبةً. تعرفون لمسة الجنديّ؟

أغلقتُ الباب.

كنتُ أعرف تلك اللعبة.

وجدتُ في الظلام قميصي وبنطلوني ولبستهما. أين وضعتُ نعليّ؟

كانت ماريا على الفراش تنظر إليّ. ـ ماذا تفعل؟

ـ لا شيء- وجدتُ النعليْن في أحد الأركان.

ـ أين أنت ذاهب؟

لبستُ نعليّ. ـ إلى مكان.

ـ هل تعرف أنّك طفل عاقّ، عاقّ جدّا.

صعدتُ فوق الفراش ومن هناك فوق حافة النافذة.

ـ ماذا تفعل؟

نظرتُ تحتي. ـ سأذهب إلى فِليبّو ـ لِحُسن الحظّ أنّ أبي أوقف الشاحنة الصغيرة تحت نافذتنا.

ـ من هو فِليبّو؟

ـ صديق لي.

كان العلوّ شاهقا وغطاءُ الشاحنة خرماً. كان أبي يقول دائماً إنّه يجب أن يشتري غطاء جديدا. لو قفزت فوقه واقفا لاخترقته وتهشّمتُ على لوح الصندوق.

- إن فعلتَ ذلك فسأعلِمُ ماما.

نظرتُ إليها. ـ اطمئنّي. الشاحنة هنا. نامي أنت. وإذا جاءت ماما، قولي لها... ـ ماذا يجب أن تقولي؟ ـ قولي لها ما شئتِ.

- ولكنّها ستغضب.

- لا يهمّ ـ.رسمتُ علامة الصَّليب. أمسكتُ أنفاسي. خطوتُ خطوة وألقيتُ بنفسي مفتوح الذراعيْن.

سقطتُ على ظهري وسط الغطاء دون أن أصاب ولو بخدش. لقد تحمّل الكتّان ثقلي.

أطلّت ماريا من النافذة. ـ عُدْ سريعا، أرجوك.

- سأعود سريعا. لا تخافي ـ.صعدتُ فوق مقصورة القيادة ومن هناك قفزتُ إلى الأرض.

كان الطريق مظلماً مثل تلك اللّيلة الخالية من النجوم. وكانت المنازل معتمة وساكنة، والنوافذ الوحيدة المُضاءة كانت نوافذ بيتنا. وكان المصباح الكهربائيّ قرب الحنفيّة محاطا بدائرة من الذبابات الصغيرة.

كانت السّماء مغشّاة من جديد بالسّحب وأكوا ترافرسي مغلّفة بغشاء من الظلام أسود كثيف. كان ينبغي أن أدخل وسطه لأصل إلى ضيعة مِليكيتّي.

يجب أن أتسلّح بالشجاعة.

تايجر جاك. فكّر في تايجر جاك.

البطل الهنديّ سيساعدني. قبل أن أقوم بحركة، يجب أن أفكّر ماذا سيفعل الهنديّ لو كان مكاني. كان هذا هو السرّ.

جريتُ إلى وراء الدّار وأخذتُ درّاجتي. كان قلبي يدقّ مثل المطرقة في صدري.

كانت «راد دراغون» مستندة بعجرفةِ ألوانها فوق «الخُردة».

كنتُ على وشك أن آخذها ثمّ قلت في نفسي: هل أنا مجنون؟ هذه الدرّاجة الرقيقة لن تحملني بعيداً.

كنتُ أطير فوق «الخُردة» القديمة.

وكنتُ أشجّع نفسي:

- هيّا، يا تايجر، إلى الأمام.

كنتُ غارقا في بَحْرٍ أسود، لا أكاد أتبيّن الطريق. وعندما لا أتبيّنها كنتُ أتخيَّلُهَا. من حين إلى آخر، كان ضياء القمر

الشاحب يخرق تطريز السّحبَ في السمّاء ويضيء الحقول لِبضعِ ثوانٍ وشبحَ الهضاب السوداء على جانبيْ الطريق.

كنتُ أشدّ على أسناني وأعدّ دورات المداس.

واحد، اثنين، ثلاثة، أتنفّس...

واحد، اثنين، ثلاثة، أتنفّس...

كانت العجلات تنزلق فوق الحصى والرّيح تلتصق بوجهي مثل قماش ساخن.

هذا صفيرُ بومة حادّ. وهذا نباحُ كلب بعيد ثمّ الصّمت. ولكنّني كنتُ أسمع مع ذلك وشوشتها في الظلام.

كنتُ أتصوّرها على حاشيتيْ الطريق مخلوقاتٍ صغيرة آذانها مثل أُذنيْ الثعلب وعيونُها حمراء، تلحظني وتتحادث فيما بينها.

انظر! انظر. إنّه طفل!

ماذا يفعل هنا في اللّيل؟

لِنأخذه!

نعم، نعم، نعم. إنّه لذيذ... لنأخذه!

ووراءها أسيادُ الهضبة وعمالقةُ الأرض والسنابل، كلُّهم يلاحقونني منتظرين فقط أن أخرج عن الطريق للانقضاض عليّ ولدفني. كنتُ أحسّ بأنفاسهم. كان لهم نفس صوت الرّيح بين السنابل.

السرّ هو في البقاء وسط الطريق، ولكنْ يجب أن أكون مستعدًّا لكلّ شيء.

كان لعازر لا يخاف من شيء.

قلتُ في نفسي: ستراه.

في اللّيل كان لعازر مستنيرا. ينطفئ ويستضيء مثل شارة مقهى «الجوهرة» في لوتشينيانو. وعندما يستضيء يظهر النّمل الذي يسري في عروقه. لا يتنقّل سريعا. كنتُ واثقا من ذلك. وإنْ جرى فسوف يسقط ويتفتّت. المهمّ هو أن تمرّ بجانبه دون أن تتوقّف، دون أن تتباطأ.

- فِليبّو... إنّي آت... فِليبّو... إنّي آت - كنتُ أعيد على نفسي ذلك لاهثا من التّعب.

وبينما كنتُ أقترب من الضيعة تملكّني رعب جديد. كان يخنقني أكثر وينمو بداخلي شيئاً فشيئاً. كان شَعري منتصبا فوق رقبتي مثل الأشواك.

خنازير مِليكيتّي.

كان أسياد الهضبة وغيرُهم من الوحوش يخيفونني، ولكنّني كنتُ أعرف أنّهم غير موجودين وأنّني كنتُ أنا الذي أتخيّلهم ولا أستطيع أن أتحدّث عنهم مع أحد لأنّهم سيتهكّمون مِنّي. أمّا الخنازير فيمكن أن أتحدّث عنها لأنّها موجودة بالفعل وتتلهّف من الجوع.

تتلهّف للّحمة الحيّة.

«حاول الكلب أن يهرب، لكنَّ الخنازيرَ لم تترك له مجالا للهرب. التهمته في بضع ثوان». هكذا قال جُمجمة.

ولعلّ مِليكيتّي يتركها أثناء اللّيل حرّة. وهي الآن تطوف حول الضيعة ضخمةً فظيعةً بأنيابها المدبّبة رافعة خياشيمها إلى الهواء.

كلّما بقيتُ بعيداً عن تلك الحيوانات الممقوتة كان ذلك أفضلَ.

ظهر من بعيد في العتمة نور ضعيف.

إنّها الضيعة.

كنتُ على وشك الوصول.

ضغطتُ على الفرامل. لم يعدْ هناك ريح. وكان الهواء ساكنا وساخنا. من المنحدر القريب كانت تأتي أصوات الصراصير. نزلتُ من الدرّاجة وألقيتُ بها وسط العوسج قريبا من الطريق.

لا أرى شيئاً.

كنتُ أتقدّم بسرعة متنفّسا أقلّ ما يُمكن وملقيا دائماً بنظرات سريعة ورائي. كنتُ أخشى أن ينغرس في ظهري مِخلبُ وحش من الوحوش. الآن وأنا أمشي على ساقيّ صرتُ أَسمع الكثير من الأصوات والخشخشة والضربات المكتومة والأصوات الغريبة. كانت من حولي كتلة حالكة وكثيفة تضغط على الطريق. بللتُ شفتيّ الجافّتيْن. كان فمي مرّا. وكان قلبي يدقّ في حلقي.

وضعتُ قدمَ نعلي على شيء لزج. قفزتُ وأطلقتُ صيحة مخنوقة وسقطتُ على الأرض وقد جُرّحتْ رُكبتِي.

-مَن؟ مَن؟ - تمتمتُ وتكمّشتُ على نفسي منتظرا أن تلتفّ عليّ أصابع مدوسة هلاميّة ومُحرقة.

ثم سمعتُ صوت ضربتيْن مكتومتيْن وشيئاً يقول «بوا بوا بوا».

ضفدع! مشيتُ فوق ضفدع قمح. لقد توقّف ذلك المغفّل وسط الطريق.

نهضتُ وواصلت المشي متعثّرا نحو النور الضعيف.

لم أحمل معي ولو مصباح جَيْبٍ. كان بإمكاني أن آخذ معي مصباح الجيب الذي يحتفظ به أبي في الشاحنة.

عندما وصلتُ حاشيةَ الساحة اختبأتُ وراء شجرة.

كانت الدّار على بعد مائة متر تقريباً. وكانت نوافذها معتمة سوى مصباح صغير كان يتدلّى من جانب الباب ويضيء جزءا من الحائط المقشّر والكرسي المتأرجح والمتآكل بالصدإ.

غير بعيد، وسط الظلام، كان مربضُ الخنازير. كانت تصل إلى أنفي رائحة وسخها الكريهة.

أين يُمكن أن يكون فِليبّو؟

هناك، في الوهدة، كما قال سلفاتوري. كنتُ قد توغّلت داخل تلك الوهدة الضيّقة الطويلة مرّتيْن مع أبي في

الشتاء لجمع الفِطْر. كان كلّه صخورا وحُفرا وجوانب من الحجارة.

لو مررتُ عبر الحقول فسأصل إلى حافة الوهدة ومن هناك أنزل إلى قاعها دون أن اضطرّ إلى الاقتراب كثيراً من المنزل.

كانت خطّة جيّدة.

اجتزتُ الحقل عدواً. كان القمح قد حُصد. وفي النهار، من دون السنابل، كان بالإمكان مشاهدتي. أمّا الآن، في غياب القمر، فَإِنّي في أمن.

توقّفتُ على حافة الوهدة. من تحتي كان الظلام حالكاً حتّى أنّني كنتُ لا أدركُ مدى انحدار الصخور، وهل كانت ملساء أو كان فيها مَمْسك.

كنتُ ألعنُ نفسي دائماً لأنّني لم أحمل معي مصباح الجيب. لا يُمكن أن أنزل من هناك. سأجازف بنفسي.

الحلّ الوحيد هو أن أقترب من المنزل. المنحدرُ في تلك النقطة أقلّ انخفاضاً. يوجد دربٌ صغير ينزل بين الصخور. ولكنْ توجد أيضاً الخنازير.

كنتُ أتصبّب عرقاً.

«لِلخنازير أفضلُ حاسّة شمٍّ على الإطلاق، أفضل بكثير من كلاب الصّيد»: كان يقول أبُ جُمجمة الذي كان صيّادا.

لا أستطيع أن أمرّ من هناك. ستحسّ بي الخنازير.

ماذا سيفعل تايجر جاك لو كان مكاني؟

سيواجه الخنازير. وسيقتلها ببندقيّته «الونشستر» وسيحوّلها إلى نقانق يشويها على النّار مع تاكس ومع «شعر الفضّة».

لا. هذا ليس أسلوبه.

ماذا سيفعل؟

فكّر. قلتُ في نفسي: اِجمعْ قُواك.

سيحاول أن ينزع عنه رائحة البشر. هذا ما سيفعل!

عندما يذهب الهنود لصيد الجاموس يَدْهنون أجسامهم بالشحم ويغطّون ظهورهم بالجلود. هذا ما يجب أن أفعل: يجب أن أغطّي جسمي بالتراب. لا. ليس بالتراب. بالبراز. هذا أفضل. مع عفونة البراز فوق لحمي، لن تتفطّن الخنازير إليّ.

اقتربتُ أكثر ما يُمكن من المنزل متوارياً دائماً بالظلام.

كانت الرائحة الكريهة تزداد.

إضافة إلى صوت الصراصير كنتُ أسمع شيئاً آخر: موسيقى، تقاسيم على البيانو وصوت أبحّ يغنّي: «الماء مثلّج هنا، ولا أحد سينقذني. سقطتُ من الباخرة، سقطت بينما فوقها الحفلة ساهرة. موجة على موجة...»

كان مِليكيتّي مطرباً؟

كان هناك شخص جالس على الكرسيّ المتأرجح. وعلى الأرض، بالقرب منه، يوجد الراديو. إمّا إنّه مِليكيتّي أو هي ابنته العرجاء.

تجسّستُ قليلا من وراء عجلة جرّار مطاطيّة قديمة.

كان يبدو ميّتا.

اقتربتُ أكثر.

كان مِليكيتّي.

كان رأسه اليابس ملقًى على وسادة متّسخة وفمُه مفتوحاً. وكان يُمسك فوق ركبتيْه بندقيّته ذات القصبتيْن. كان يشخر بصوت مرتفع حتّى أنّني كنتُ أسمعه من مكاني.

الطريق مفتوح.

خرجتُ من مخبئي. خطوْتُ بِضعَ خطوات فمزّق نباحٌ حادّ ستار الصّمت وسكتَ كلُّ شيء، مدّة لحظة، حتّى الصراصير.

الكلب! نَسِيتُ الكلب.

كانت هناك عينان حمراوان تلمعان في الظلام. وكان الكلب يجذب وراءه السلسلة التي شُدّ إليها وينبح مخنوقا.

ارتميتُ مثل السمكة وسط الحشفة.

قفز مِليكيتّي. ـ ماذا جرى؟ ما بك؟ أيّ شيطان تملكّك؟ ـ كان على الكرسيّ يدير رأسه يمنة ويسرة مثل البومة. ـ تِبيريو! اهدأ! كُنْ عاقلا، تِبيريو!

ولكنَّ الكلبَ لم يكفّ عن النباح. عند ذلك تكسّل مِليكيتّي ووضع حول رقبته طوقه التقويمي وانتصب واقفا. أطفأ المذياع وأشعل مصباح جيب.

صاح في الظلام:

- ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ هناك أحد؟ - ثمّ قام بدورتيْن في السّاحة دون حماس كبير والبندقيّة تحت ذراعه موجّهة نحو رقعة الضياء من حوله. ثمّ عاد ساخطا إلى المنزل. - كفّ عن هذا الصّخب. ليس هناك أحد.

التصق الكلب بالأرض وأخذ ينخر بين أنيابه.

ودخل مِليكيتّي المنزلَ وأغلق الباب بعنف.

بقيتُ أكثر ما يُمكن بعيداً عن الكلب واقتربتُ من مربض الخنازير. كنتُ ألمح في الظلام أشكال السياج المربّعة، وكانت العفونة الحامزة تصل خياشيمي وتحرق حلقي.

كان ينبغي أن أتنكّر. خلعتُ القميص والسروال القصير وبقيتُ في سليب. غمستُ يديّ في التراب المبتلّ بالبول، وبتقزّز واشمئزاز دهنتُ نصفي الأعلى وذراعيّ وساقيّ ووجهي بتلك العجينة الكريهة.

همستُ لنفسي:

- هيّا، يا تايجر. انطلقْ ولا تتوقّفْ - وبدأت أتقدّم على أربع قوائم بصعوبة. كنتُ أغرق بيديّ وركبتيّ في الوحل.

أخذ الكلب ينبح من جديد.

وجدتُ نفسي بين سياجيْن وأمامي كان رواقٌ لا يزيد عرضه على متر يمتدّ إلى أن يغيب في العتمة.

كنتُ أسمع الخنازير. كانت هناك. تبعث بأصوات خفيضة وعميقة تشبه زمجرة اللّيوث. كنتُ أحسّ بقوّتها في الظلام. كانت تتحرّك مثل كتلة متراصّة وتضرب الأرض بحوافرها. وكانت قضبان الحديد ترتجف تحت ضغطها.

أمرت نفسي: تقدّمْ ولا تلتفتْ.

كنتُ أدعو الله أن تنطلي حيلة الدّرع الذي صنعته من البراز. لو أنّ إحدى تلك الحيوانات حشرت خيشومها بين القضبان وعضّتني لقطعت منّي ساقاً.

أبصرتُ نهاية السياج عندما سمعتُ وقعَ حوافر مفاجئاً ونخيراً كما لو أنّ الخنازير تتشاجر فيما بينها.

لم أتمالك نفسي من النظر إليها.

على بعد متر، كانت هناك عينان صفراوان خبيثتان تلحظانني. وراء تلك النقطتيْن الصغيرتَيْن من الضوء توجد دون شكّ مئات الكيلوغرامات من العضلات، ومعها اللّحم والوبر والحوافر والأنياب والجوع.

ظلَلْنا لحظة لا نهاية لها يَتفرّس أحدُنا في الآخر ثم قفز المخلوق وتأكّدتُ أنّه سيطيح بالسّياج.

أطلقتُ صيحة وانتصبتُ واقفاً ثم جريتُ فانزلقتُ فوق الرّوث وقمتُ من جديد وواصلت العدو فاغر الفم وسط الظلام ضاغطاً بقوّة على قبضتيّ. وفجأة وجدتُ نفسي في الهواء، أطير، وقد صار قلبي في فمي وانقبضت أمعائي من الألم.

تجاوزتُ حافة المنحدر.

كنتُ أسقط في الفراغ.

وجدتُ نفسي، تحت الحافة بمتر، فوق زيتونة نابتة وسط الصخور الوعرة تمدّ نحوَ الهاوية أغصانَها الملتفّة.

تشبّثتُ بغصن. لو لم توقِف تلك الشجرةُ المباركة سقطتي لتهشّمت فوق الصخور مثل فرانشسكو.

ظَهَرَ جزء من القمر وسط السّحب الشاحبة فتراءت لي الهاوية من تحتي مثل جرح عميق وسط الحقول.

حاولتُ أن أستدير ولكنَّ الجذع كان يتمايل مثل صاري السفينة. قلتُ في نفسي: إنّه سينكسر وسأسقط في الهاوية مع الشجرة كلّها.

كانت يداي وساقاي ترتعش. وعند كلّ حركة كنتُ أشعر أنّي أسقط. وفي النهاية قبضتْ أصابعي على حرف من الصّخر وتنفّستُ الصعداء. صعدتُ من جديد على حافة المنحدر.

كان عميقًا ويمتدّ يميناً وشمالاً على مسافة مئات الأمتار. بداخله حُفر ومغارات وأشجار.

يُمكن أن يكون فِليبّو في أيّ مكان.

على يميني ينطلق درب وعر ينثني ملتويا بين الصخور. وكان عمود مرشوقٌ في الأرض قَدْ شُدّ إليه حبلٌ متآكل يصلح دون شكّ لمساعدة مليكيتّي على النزول. تشبّثت بالحبل واتّبعت الدرب الوعر. بعد بضعة أمتار وصلتُ أرضًا مسطّحة ومغطّاة بالرّوث. كان يُحيطُ بِهَا حاجزٌ مصنوع من جذوع الأشجار شُدّ بعضها إلى بعض. في طرف العمود كانت بعضُ الأثواب معلّقة وحبال ومناجل. وأبعد بقليل توجد كومة من الأعمدة الخشبيّة. وإلى جذر نابت في الأرض رُبطت ثلاث معزات صغيرات ومعزاة أكبر. كانت تحدّق فيّ.

قلتُ لها:

ـ عوض أن تنظرِي إليّ مثل الحمقاء، قُولي لي أين يوجد فِليبّو.

وفجأة هوى من السّماء ظلّ أسود وصامت حلّق فوقي فحميْتُ رأسي بيديّ.

كانت بومة.

ارتفعتْ من جديد في الهواء وغابت في العتمة ثم هوت من جديد فوق المسطّح الأرضيّ وطارت من جديد نحو السماء.

غريب، إنّها طيور وديعة.

لماذا هاجمتني؟

همستُ قائلاً:

ـ سأذهب، سأذهب.

كان الدرب يتواصل منحدراً. تشبّثتُ من جديد بالحبل لمتابعة النزول. كان ينبغي أن أمشي جاثيا وأن أتحسّس بيديّ العوائق التي تعترضني مثلما يفعل العميان. عندما وصلتُ إلى قاع الوهدة، بَقِيتُ فاغر الفم. كانت أجمات البهشيّة والشوك والقطلب والطحلب والصخور مغطّاة بنقاط لامعة تنبض كما لو كانت أضواء صغيرة في اللّيل.

إنّها حباحب.

تفرّقت السّحب ولوّن هلالٌ شاحب المنحدر بلون مصفرّ. كانت الصراصير تغنّي. وكفّ كلبُ مِليكيتّي عن النّباح. كان كلّ شيء هادئا.

أمامي كانت غابة صغيرة من الزياتين. وعلى الجانب المقابل من المنحدر، كان ينفتح وسط الصخور شقّ ضيق.

كانت تخرج منه رائحة حامزة، رائحة روث. ما إن دخلتُ حتّى سمعتُ ثغاء وحركات. كان بساطا من النعاج. أغلقوا عليها داخل المغارة بشبكة من الحديد. كانت تتزاحم داخلها مثل السردين في علبة. لا مكان فيها لفِليبّو.

رجعتُ إلى الجانب الآخر من المنحدر، لكنّني لم أعثر على حُفر أو مغارات يُمكن أن تُخفي طفلا.

لما ألقيتُ بنفسي من النافذة لم يخطر ببالي أبداً أنّه قد يُمكن أن لا أجده. كان يكفيني أن أجتاز العتمة وأن أنجوَ من الخنازير وسأجده أمامي ينتظرني.

لم يكن الأمر كذلك.

كانت تلك الوهدة طويلة جدّا ويُمكن أن يكونوا أخفوا فِليبّو في مكان آخر.

كنتُ مريضا من الخزي. صحتُ: ـ فِليبّو، أين أنت؟- ولكن بصوت خافت. يُمكن أن يسمعني مِليكيتّي. ـ أجبني! أين أنت؟ أجبني!

لا شيء.

أجابتني بومة. كانت تلقي صوتا غريبا، يبدو أنّه يقول: «إنّه لي. إنّه لي. إنّه لي». ولعلّها البومة نفسَها التي هاجمتني منذ حين.

هذا ظلم! لقد قطعتُ كلّ تلك الطريق وجازفت بحياتي. وها إنّه لا يريد الظهور. بدأت أعدو إلى الأمام وإلى الخلف بين الصخور والزياتين، دون غاية، وقد انتابني اليأس.

ومن شدّة الغضب أمسكتُ غصنا كان على الأرض وضربتُ به على الصخور بشدّة، حتّى انسلخ جلد يديّ. ثمّ جلستُ. كنتُ أحرّك رأسي يائسًا وأُبعِد عن خاطري فكرة أن كلّ ما فعلته كان دون جدوى.

لقد هربتُ من المنزل مثل الأبله.

سيغضبُ أبي غضبًا شديدًا وسيقتلني ضربًا.

لا بدّ أنّهم تفطّنوا إلى أنّني لست في غرفتي. وحتّى إنْ لم يكتشفوا ذلك فسيأتون بعد قليل لقتل فِليبّو.

أبي والعجوز في المقدّمة. وفي إثرهما فِليتشي والحلّاق. بكلّ سرعة، في الظلام، على المرسيدس الرماديّة، بالمصوّب فوق مقدّمتها، ترفس تحت عجلاتها الضفادع.

أمرني صوت ماريا «ميكيلي، ماذا تنتظر؟ عُدْ إلى المنزل».

أجبتُ:

- نعم، سأعود.

لقد فعلتُ كلّ ما في وسعي ولكنّه لم يَشَأْ أن أعثر عليه. الغلطة ليست غلطتي.

كان ينبغي أن أتحرّك بسرعة، يُمكن أن يصلوا من لحظة إلى أخرى.

إن عدوت دون أن أتوقّف أبداً فلعلّي أصل المنزلَ قبل خروجهم. وهكذا لن يتفطّن أحد إلى شيء. سيكون هذا جميلاً.

تسلّقتُ سريعا الصخور متّبعا المسلك الذي كنتُ قد قطعته. الآن صار هناك قليل من الضياء جعل الأمر أكثر سهولة.

البومة. كانت تحوم دائماً فوق المسطّح الأرضيّ. وعندما تمرّ أمام القمر كان يظهر لي خيالُها الأسود وجناحاها العريضان القصيران.

ـ ماذا تريدين منّي؟ ـ، مررتُ من جديد بالمسطّح الأرضيّ وأنا أجري، بالقرب من المعزات، فهوى الطائر عليّ مرّة أخرى. ابتعدتُ والتفتُّ أنظر إلى تلك البومة المجنونة.

كانت تواصل تحليقها فوق المسطّح. كانت تلامس الكومة من الأعواد المسندة إلى الصخرة ثمّ تقوم بدورة وتعيد الكرّة من جديد بعناد.

ولكن لماذا تتصرّف بهذه الطريقة؟ هل يوجد فأر؟ لا، ماذا إذاً؟

العشّ!

أكيد. العشّ وصغارها.

الخطاف أيضاً عندما تُهدم أعشاشُها تواصل التحليق بصفة دائريّة إلى أن تموت من التعب.

لقد غطّوا عشّ تلك البومة. والبوم يبني عشّه في الحفر.

الحفر!

عدتُ إلى الوراء وبدأت أحوّل الأعواد المكوّمة بينما كانت البومة تكاد تلمسني. كنتُ أقول لها: ـ انتظري، انتظري.

كانت كومةُ الأعواد تُخفي فتحةً في الصخر. فوّهة مستديرة مثل البيضة ذات اتّساع عجلة شاحنة.

ولجت البومة إلى داخلها.

كان الظلام فيها حالكاً. وكانت فيها رائحة حطب محروق ورماد. لم أكن أدرك مدى عمقها.

حشرتُ رأسي في الفتحة وناديتُ: ـ فِليبّو؟

أجابني الصدى مرجعا لي صوتي.

ـ فِليبّو؟ ـ أدخلتُ رأسي أكثر. ـ فِليبّو؟

انتظرتُ. لم تحدث أيّة حركة.

ـ فِليبّو، هل تسمعني؟

إنّه ليس هناك.

إنّه غير موجود. وعاد صوت أختي يقول لي «أسرع إلى البيت».

خَطَوْتُ ثلاث خطوات عندما بدا لي أنّي أسمع أنينا أو توجّعاً مكبوتا.

هل هي مخيّلتي؟

عدتُ إلى الوراء وحشرت رأسي من جديد في الفتحة.

ـ فِليبّو؟ فِليبّو، أنت هنا؟

ومن الحفرة جاءني صوت «مممممم! مممممم!»

ـ فِليبّو، أهو أنت؟

ـ مممممم!

إنّه هنا.

شعرت بأنّ ثقلاً انزاح من فوق صدري. ٱستندتُ إلى الصخرة وتركتُ جسمي يسقط. بقيتُ جالسا هناك وحيدا فوق ذلك المسطّح المغطّى بروث الماعز، والابتسامةُ على شفتيّ.

لقد وجدته.

شدّتني الرّغبة في البكاء، لكنّي جفّفت عينيّ بيديّ.

- مممم!

نهضتُ. - إنّي آت. إنّي آت في الحال. أرأيت؟ لقد جئتُ ووَفيتُ بوعدي. أرأيتَ؟

حبل. يلزمني حبل. وجدتُ حبلاً مكوّرا بالقرب من المناجل. ربطته إلى الجذر الذي شُدّت إليه المعزات ورميته في الحفرة. - ها أنا!

تدلّيتُ إلى داخل الحفرة. كان قلبي يدقّ بشدّة يرتعش لها صدري ويداي. وكانت الظلمات تُحدِث فيّ الدّوار، والهواء ينقصني. وكان يبدو لي أنّني أغرق في البترول وكان البرد شديدا.

لم أنزل متريْن حتّى لمست قدماي الأرض. كان المكان مليئا بالأعواد وبقطع الخشب وبصناديق الطماطم المكوّمة. كنتُ أتقدّم جاثياً أتحسّس الظلام بذراعيّ الممتدّتيْن عارياً أرتعش من البرد.

- فِليبّو، أين أنتَ؟

ـ مممممم!

لقد كمّموا فمَهُ.

ـ إنّني... ـ انحشر قدمي بين الأعواد وانزلقتُ ويَدِي ممتدّة فوق كومة من الحطب مليئة بالشوك. أحسستُ بألم حادّ التفّ حول عرقوبي. صحتُ وصعد إلى فمي سائل مرّ وساخن، وغمرت ظهري موجة مثلجة بينما التهبت النّار في أذنيّ.

وبيديّ المرتعشتيْن خلّصت قدمي المنحشرة. كان الألم يعصر عرقوب ساقي. توجّعتُ قائلاً: ـ أظنّ أنّ ساقي التوَت. أين أنت؟

ـ مممممم!

زحفتُ وأنا أشدّ على أسناني نحو مصدر الأنين ووجدته. كان تحت كومة الحطب. أبعدتها عنه وتلمّسته. كان مستلقياً على الأرض عارياً وقد أُوثقَتْ يداه وساقاه بشريط لاصق غَليظٍ.

ـ مممممم!

لمستُ وجهه بيديّ. كان فمه أيضاً مكمّما بالشريط اللاّصق.

ـ لا تستطيع الكلام؟ انتظر، سأنزعه. ولكنّه سيؤلمك قليلاً.

وبحركة سريعة نزعته. لم يصرخ، ولكنّه بدأ يلهث.

ـ كيف حالك؟

لم يقل شيئاً.

ـ فِليبّو، كيف حالك، أجبني؟

كان يلهث مثل كلب الصيد الذي لسعته أفعى.

ـ هل أصابك سوء؟

لمستُ صدره. كان يعلو وينخفض بسرعة كبيرة.

ـ الآن سنذهب من هنا. سنذهب من هنا. انتظر ـ.حاولت أن أحلّ الوثاق حول معصميْه وساقيْه. كان مشدودا بقوة. وأخيراً، بدأتُ أقضم الشريط اللاّصق بيأس وحرّرتُ في البداية يديه ثمّ ساقيْه.

ـ انتهيتُ. هيّا بنا! ـ أخذته من ذراعه، ولكنّ الذراع سقط دون قوّة. ـ قف، أرجوك. يجب أن نذهب، إنّهم على وشك الوصول ـ.كنتُ أحاول أن أوقفه، لكنّه كان في كلّ مرّة يسقط كما لو كان دمية. لم تبق في ذلك الجسم المسكين المنهك قطرةٌ من الحيويّة. لم يمُت إلاّ لأنّه لا يزال يتنفّس. ـ أنا لا أستطيع أن أحملك. ساقي تؤلمني! أرجوك، فِليبّو، ساعدني... ـ أخذته من ذراعيه. ـ هيّا! هيّا! ـ أجلسته، وما إن تركته حتّى سقط على الأرض. ـ ماذا يجب أن أفعل؟ ألا تفهم أنّهم سيطلقون عليك الرّصاص إنْ أنت بقيتَ هنا؟ ـ واختنق صوتي بالبكاء. ـ هكذا ستحكم على نفسك بالموت، أيّها المغفّل، أيّها المغفّل العبيط! أنا جئتُ من أجلك، جئتُ إلى هنا، أنا وفيتُ بوعدي. وأنت... وأنت... ـ وأجهشتُ بالبكاء. كانت الشّهقات تهزّ جسمي

كلّه. ـ يجب... أن... تنهض... أيّها الأبله، أبله... أنت... لا غير ـ.حاولتُ مرّة أخرى، وأخرى، بعناد، لكنّه سقط في الرّماد ورأسه مائل إلى جانب مثل دجاجة ميّتة. ـ قف! قف! ـ صحتُ به وبدأتُ ألطمه.

لم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل. انكمشتُ على نفسي ورأسي بين ركبتيّ. ـ إنّك لم تمت بعدُ، هل تفهم هذا؟ ـ بقيتُ هكذا، أبكي. ـ هذه ليست الجنّة.

كَفّ عن اللّهاث وهمس بشيء.

قرّبتُ أذني من فمه. ـ ماذا قلت؟

همس. ـ إنّي لا أستطيع.

بدأتُ أخضخضه. ـ كيف لا تستطيع؟

ـ لا أستطيع، سامحني.

ـ كلاّ، بل تستطيع. نعم تستطيع...

كَفّ عن الكلام. أخذته في أحضاني. كان الوحل يغطّي جسمينا وكنّا نرتعش من البرد. لا جدوى من فعل أيّ شيء. أنا أيضاً عجزتُ. كنتُ أحسّ بنفسي ميّتا من التعب، منهك القوى، وكان عرقوبي ينبض من الألم. أغمضتُ عينيّ وبدأ قلبي يرتخي، ودون أن أريد غلبني النوم.

فتحتُ عينيّ من جديد.

كنتُ في الظلام. ومدى ثانية ظننتُ نفسي في البيت، في فراشي.

ثمّ سمعتُ كلب مِليكيتّي ينبح. وصدى أصوات.

لقد وصلوا.

هززته بعنف. ـ فِليبّو! فِليبّو، لقد جاؤوا! يريدون قتلك. انهض.

تنفّس بصعوبة. ـ لا أستطيع.

ـ بل تستطيع. تريد أن نراهن على ذلك؟ ـ جثوتُ على ركبتيّ ودفعته إلى الأمام بيديّ، بين الأغصان دون مبالاة بالألم. ألمي، ألمه. كان من الضروري أن أخرجه من تلك الحفرة. كانت كومة الحطب تجرّحني ولكنّني واصلتُ دفعه ضاغطا على أسناني إلى أن وصلنا إلى فم الصخرة.

كانت الأصوات قريبة. وظهر ضياء فوق أغصان الأشجار.

أمسكته من ذراعيْه. ـ الآن، يجب أن تقف على ساقيْك. يجب أن تفعل ذلك. وكفى.ـ جذبته إليّ وتعلّق برقبتي. ثمّ وقف. ـ أرأيتَ، أيّها الغبيّ؟ أرأيتَ أنّك واقف على قدميْك، إيه؟ ولكنْ يجب الآن أن تصعد. أنا سأدفعك من الأسفل، ولكن عليك أنتَ أن تتشبّث بحافة الفتحة.

بدأ يسعل. كان يبدو أنّه سينفث الحصى من صدره. ولما هدأ السّعال حرّك رأسه قائلاً:

ـ لن أذهب من دونك.

ـ كيف؟

ـ لن أذهب من دونك.

ضممته إلى صدري كما لو كان دمية من خشب. ـ لا تكن غبيّا. سألحق بك فوراً.

بدا الآن أنّهم وصلوا. كان الكلب ينبح فوق رأسي.

ـ لا.

ـ بل ستذهب، هل فهمت؟ ـ إنْ تركته فسوف يسقط على الأرض. أخذته بين ذراعيّ ودفعته إلى أعلى. ـ أمسك الحبل، هيّا.

وأحسستُ أنّ ثقله قد خفّ. لقد تشبّث بالحبل! لقد تشبّث ابن الملعونة أخيراً بالحبل! الآن يقف فوقي وقدماه على كتفيّ.

ـ الآن سأدفعك، ولكن يجب أن تتسلّق بذراعيْك، هل فهمت؟ لا تتخاذلْ.

رأيتُ رأسه الصغير محاطا بهالة النور الشّاحب وسط الفتحة.

ـ إنّك وصلت. الآن ادفع بنفسك خارج الحفرة.

حاول. كنتُ أشعر به يحاول جاهدا دون جدوى. ـ انتظر. سأساعدك، ـ وأمسكته من عرقوبيْه. ـ سأدفعك، وألْقِ أنتَ بنفسك إلى الخارج ـ.ارتكزتُ جيّدا على قدميّ وشددتُ على أسناني ثم رميته خارج الحفرة ورأيته يغيب وقد ابتلعه فم الصّخرة، وفي اللحظة نفسها أحسستُ بمسمار طويل مدبّب

ينغرس في عظم عرقوبي إلى النخاع وصرعة حادّة من الألم تسري مثل تيّار كهربائيّ في ساقي إلى أسفل بطني، وسقطت على الأرض.

ـ ميكيلي! ميكيلي، استطعتُ الخروج! هيّا.

تجشّأت هواء حامزا. ـ إني آت. إنّي آت على الفور.

حاولتُ الوقوف ولكنَّ ساقي لم تعد تطعني. من مكاني على الأرض حاولت أن أمسك الحبل ولكنّي لم أقدر.

كنتُ أسمع الأصوات وهي تقتربُ أكثر. ووقع الخُطى.

ـ ميكيلي، تعال!

ـ إنّي قادم.

كان رأسي يدور، لكنّني جثوتُ على ركبتيّ. لم أعد قادرا على الوقوف.

قلت:

ـ فِليبّو، اهرب!

أطلّ من الفتحة. ـ اصعد!

ـ لا أستطيع. ساقي. اهرب أنت!

حرّك رأسه بالنفي. ـ لا، لن أذهب ـ أصبح الضياء وراء كتفيه أكثر قوّة.

ـ اهرب. إنّهم هنا. اهرب.

ـ لا.

ـ يجب أن تذهب. أرجوك! اذهب!

ـ لا.

صحتُ به وتوسّلت إليه. ـ اذهب! اذهب! إن بقيتَ هنا فسوف يقتلونك. ألا تريد أن تفهم ذلك؟

بدأ يبكي.

ـ اذهب. اذهب بعيداً. أرجوك، أتوسّل إليك. اذهب بعيداً... ولا تتوقّف. لا تتوقّف أبداً. أبداً... اختفِ! ـ وانهرتُ على الأرض.

ـ لا أستطيع، ـ قال. ـ إني أخاف.

ـ كلاّ. أنت لا تخاف. أنت لا تخاف. لا شيء يبعث على الخوف. اختفِ.

هزّ رأسه بالإيجاب واختفى.

من مكاني على الأرض بدأت أبحث عن الحبل في الظلام. لمسته، لكنّه أفلت مني. حاولتُ من جديد، لكنّه كان بعيد المنال.

من خلال الفتحة رأيتُ أبي. كان يُمسك في إحدى يديْه المسدّس وفي اليد الأخرى مصباح الجيب.

لقد خسر.

كالعادة.

أعماني نور المصباح فأغمضتُ عينيّ.

ـ بابا، أنا هو، أنا ميك...

ثمّ صار كلّ شيء ناصع البياض.

فتحتُ عينيّ.

كانت ساقي تؤلمني. لم تكن السّاق الأولى بل الأخرى. كان الألم نبتة متسلّقة، سلكا شائكا ملتفّا حول أمعائي، شيئاً مريعاً، أحمر، سُدّا مُنهاراً.

ولا شيء يُمكن أن يوقف سُدّا مُنهاراً.

كان هدير يتصاعد. هدير معدنيّ يكبر ويغطّي كلّ شيء ويدوّي داخل أذنيّ.

كنتُ مبتلاّ. لمستُ ساقي. كان سيل كثيف وساخن يلوّث كلّ شيء.

لا أريد أن أموت. لا أريد.

فتحتُ عينيّ.

كنتُ وسط دوّامة من التّبن والأضواء.

وكانت هناك مروحيّة.

وكان هناك أبي يحملني في ذراعيْه ويكلّمني ولكنّي لا أسمعه. كان شعره يلمعَ وَتُحرّكه الريح.

كانت الأضواء تعمي بصري. ومن الظلمات كانت تبرز مخلوقات سوداء وكلاب يتقدّمون نحونا.

أسياد الهضبة.

بابا، إنّهم قادمون. اهرب. اهرب.

تحت الهدير كان قلبي يتسارع داخل صدري.

تقيّأت.

فتحتُ عينيّ من جديد.

كان أبي يبكي ويمسّح عليّ ويداه محمرّتان. اقترب خيالٌ حالكٌ. نظر إليه أبي.

بابا، يجب أن تهرب.

وسط الهدير قال أبي:

- إنّي لم أتعرّف إليه. ساعدوني. أرجوكم. إنّه ولدي. إنّه مجروح. أنا لم...

ومن جديد سقط الظلام.

وكان أبي هناك.

وكنتُ أنا هناك.

الإنجاز الفني: حسين السعيدي

الطباعة :

مطبعة المغرب للنشر

15 مكرر، نهج 8602 ـ المنطقة الصناعية الشرقية 1 . تونس قرطاج

الهاتف : 216 772 71 (216 +) ـ الفاكس: 371 773 71 (216 +)

البريد الالكتروني: commercial.ime&wanadoo.tn

أنا لا أخاف

كان البرد داخل الحفرة أشد.

وكان جلد الميّت متسخا وملطّخا بالوحل والبراز. كان عارياً، في طول قامتي، ولكن أكثر هزالاً. كان جلداً على عظم، بارز الضلوع، وكان له تقريباً مثل سنّي.

لمستُ يده بطرف قدمي لكنّها بقيت دون حراك. رفعتُ الغطاء الذي كان يحجب ساقيه. كان عرقوبُه الأيمن مشدودا بسلسلة غليظة مغلقة بقفل. وكانت جلدته مسلوخة ورديّة اللّون، ينزف من لحمها سائل شفّاف كثيف يسيل فوق حلقات السلسلة المتآكلة بالصّدإ والمشدودة إلى حلقة مغروسة في الأرض.

كنتُ أريد رؤية وجهه. ولكنّني لم أكن أرغبُ في لمس رأسه.

كان ذلك شيئاً يخيفني.

في نهاية الأمر، وبشيء من التردّد، مددتُ يدي وأمسكتُ بإصبعين طرف الغطاء. وبينما كنت أحاول الكشف عن وجهه ثنى الميّت ساقه.

نيكولو أمانيتي

وُلد سنة 1966 بروما. بدأ مسيرته الإبداعيّة سنة 1994 برواية *Branchie* [خياشيم]، تبعتها سنة 1996 مجموعة قصصية تحمل عنوان *Fango* [الوَحَل]. ذاع صيته عالميّا بعد صدور روايتيْه *Ti prendo e ti porto via* [آخذك وأحملك بعيدا] (1999) و**أنا لا أخاف** (2001). أخرجت رواياته إلى السينما وتُرجمت إلى عديد اللغات.

أحمد الصّمعي

يدرّس اللغة والأدب الإيطالي المعاصر بجامعة تونس. إضافة إلى أعماله في تدريس اللغة الإيطالية وفي تاريخ العلاقات بين تونس وإيطاليا، ترجم من الأدب الإيطالي: إيطلو كلفينو، **خرافات إيطالية** (1988)، جيوزيبي بونافيري، **خيّاط الشارع الطويل** (1998)، أومبرتو إيكو، **اسم الوردة** (1991)، **جزيرة اليوم السّابق** (2000)، والعديد من المؤلفات العلميّة.

9 789973 084125

30 د.ت.
25 دولار أو ما يعادلها